

بغلة العرش

خيرى شلبى



لوحة الفنان محمود سعيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب



بغلة العرش

خيرى شلبى

إشارة

لهذه الرواية قصة عجيبة . ففي عام ١٩٦٣ تيهقت في وجداني أسطورة (بغلة العرش) التي كثيرا ما كانت أمي تحكيها لي في الليل كلما سألتها : لماذا نحن فقراء مع أننا من أصل عريق ؟ ولماذا بعض الناس أثرياء مع أنهم من أصل وضيع ؟ وكانت هذه الأسطورة تفتن خيالي الطفل ، وظلت تفتنه وأنا كبير ، فإذا بي أكتبها على شكل قصة قصيرة بعنوان (ليالي مائشة) كانت ذات طابع شعري خالص ، حتى السياق كان موزونا على تفعيلية دون أن أقصد ذلك . نشرت القصة في مجلة خاملة اسمها صوت العروبة ، ثم أعدت نشرها مع ثلاث قصص من جنسيتها موزونة أيضا ، ملحقة برواية (السنيورة) كنوع من التسجيل لمرحلة فنية مررت بها وأفادتني بشكل ما .

على أنني في أواسط السبعينيات فوجئت بالأسطورة تغزو وجداني من جديد بإلحاح قوي وقد تجسدت في عالم من الأحداث والشخصيات الواقعية ، ووجدتني أكتبها في مسرحية طويلة من قسمين ، سلمتها لصديقي المخرج إميل جرجس ليخرجها لمسارح الثقافة الجماهيرية . وحينما شرع في التنفيذ استوقفته لأن أحد أصدقائي من مؤلفي المسرح قرأ المخطوطة وأشار ببعض تعديلات جوهرية تعطيتها قوة ، فركنت المسرحية منتويا بالعودة إليها بعد حين لتعديلها . لكنني نسيتها تماما . وفي أول التسعينيات فوجئت بالأسطورة تنتعش بقوة أشد ، أنعشها مناخ الفساد وانتشار الثروات الفاحشة والفقر المدقع معا . فلما شرعت أكتبها تبينت أنها ذات طبيعة روائية صرفة ، أو هكذا خيل لي بحكم تمرسي بفن الرواية سنوات طويلة فأصبحت أفكر بشكل روائي . حاولت نسيانها والانصراف الى مشاريع معدة سلفا ومستوية ، لكنها كانت أقوى من النسيان ، طغت على كل المشاريع ، فما كدت أمسك بالقلم حتى تدفقت ، لتجيء على هذا النحو ، ويخيل لي أنها كتبت نفسها بنفسها . فإذا كنت قد وفقت فالفضل يرجع لقوة الأسطورة وتجذرها في الواقع المصري .

د . خ . ش

إهداء

إلى أول حفيد لي : أحمد أشرف رضوان ، ابن
ابنتي ريم ، لعله يعرف مستقبلا لماذا كان جده فقير
الحال ، وكيف - رغم فقره - عاش مرفوع الجبين
طول عمره .

خ . ش ،

الهزيع الأول

وعد و مكتوب

الناس مقامات

فى ليلة القدر من كل عام - كهذه الليلة - تتحول بلدتنا إلى سرادق كبير غير مرئى، لكنه ربما كان أقوى وأمتن من ذلك الذى يتم نصب عمدانه فى الأرض على أى مساحة؛ إذ إنه سرادق يضرب أوتاده فى جميع الأفئدة منذ البكور؛ فما أن يبدأ المساء حتى يبدو وكأن أهل البلدة - حتى المعتكفين فى دورهم ينتظرون الوعد الأمين - يجلسون فى مكان واحد، متجاورين متصلين؛ إذا همس أحدهم بلفظ جاوبه آخر من الدار المجاورة أو حتى من آخر البلد. حبال الإتصال ممتدة مجدولة من المشاعر المتشابهة المتضاربة فى أن. وإذا كان الجالس فى أى صوان منصوب يغفل أحيانا عما يفعله الجالس لصقه؛ فإن مايفعله أحد فى داره فى هذا السرادق غير المنصوب يراه فى الحال من هو جالس فى قاعته فى الطرف الآخر من البلد ... ربما لأن الجميع

ليلتئذ عجينة واحدة من هم واحد فى انتظار وعد واحد تكتنفه مشاعر واحدة لآدمى واحد لكنه منسوخ أو ممسوخ فى صور متعددة تلبد الآن فى أحواش الدور تحت عباءة السماء الفضية، أو على النواصى ومداخل السكك، أو ساهرة فى الأجران أو على مصاطب الدور أو أمام تعريشات مص القصب.

على أنهم سواء كانوا مئجمعين أو متفرقين فإن عين الواحد منهم لا تغفل عن الآخر؛ بل إن العيون تتلصص على الغائبين بنوع خاص؛ سيما والغائبون عن التجمعات فى هذه الليلة هم الأغلبية؛ إذ إن كل واحد منهم يتوقع أنه الموعود بالخير ومن ثم فعليه أن ينتظره وحده بمفرده؛ إعتقاداً منه أن الخير القادم ينفر - لابد - من وجود «الآخر» غير الموعود؛ إذ هى عملية سرية تحدث بين العبد وربّه دون مقدمات. أما الذين يتجمعون فهم أولئك الذين يعرفون فى أعماقهم أنهم نحس وليسوا وجوه خير. ومع ذلك فالأمل يداعب قلوب الجميع حتى الأشرار منهم.

وإذا كانت الأعياد فى بلدتنا لا يحفل بها سوى الأطفال فإن ليلة القدر هذه يحفل بها الجميع كباراً وصغاراً، حتى كلاب البلدة يعثرها هدوء وأريحية غريبيين، فلا هو هوة ولا حمحمة ولا شقاوة، ربض معظمها فى الطرقات مريحا رأسه على قائمته الأماميتين الممدودتين- أما الفراخ فتمسك عن القاقاة

والضجيج عند تببيتها فتمثل للمخدع لا تقزع واحدة ولا تهرب أخرى؛ ولا يضيع ديك أو ذكر بط. يخيم السلام على مراحات الأغنام فتخلد إلى نوم عميق . كل الخلافات بين الناس تؤجل أو تصادر، يستدوق الجميع، فلا مطالبة بدين، ولا عتاب على فعل أو قول، ولا راداً لمطلب أو سلفة، ولا توقف أمام إهانة أو شتمة عابرة. سامحك الله منتشرة على كل الألسن. كل واحد يتوقع أن هذه الليلة ليلته التي سيثري فيها ثراءً فاحشاً بأمر إلهي ، سينتقل من جحيم الفقر إلى جنة عرضها عرض السموات والأرض، فخير له إذن أن يبدأ من الآن في اتقاء شر الجميع. بأن يسترضى الجميع، أن يسكب من لسانه قطرات العسل، تطول به نوبات الكرم إلى حد يوشك على التهور. قتحول البلدة بقدرة قادر إلى سبيكة من الدفء الإنساني، يصير ملمس الناس كالقطيفة.

هم جميعاً - مع ذلك - يعرفون أن هذا الصفاء النوراني العبقري عمره ساعات قليلة، سرعان مايرتد بعدها كل شيء إلى ماكان عليه، يبدأ الصباح كالعادة بالتناحر والعراك والتشاحن لأتفه الأسباب. بل إن هذه الليلة الجميلة لابد أن يعقبها فوران الغضب في كثير من الصدور، وتصل نار الحنق والسخط إلى ذروة أوارها : ألسنة حداد كالمبارد تقطع في لحم ناس؛ أخيلة

مريضة تخوض في أعراض ناس؛ تولد بدايات لسير حياة سوف تنشأ في الأيام القليلة القادمة ؛ تنبت براعم سقتحول إلى نجوم في سماء البلدة، يصاب ناس بالإحباط، ينقهر ناس، يسقط ناس في بثر الخطيئة عن عمد كأنما انتقاماً من عدو مجهول أو ربما احتجاجاً على السماء، يعاد النظر في كثير من الأشياء، رذائل تتحول إلى فضائل ، وفضائل تقوى في النفوس بسرعة فائقة، ينفضح ناس، الفضيحة سرعان ماتكتسح في طريقها الأبرياء والمظلومين، يعم الشك بصورة وبائية ، حتى ليخشى الواحد منهم أن يصرف قرشاً أمام أحد وإلا جوبه بنوع من الإتهام المستتر. لكل هذا فالبلدة يشملها هدوء وترقب شديدين، فيما تغلى الصدور تحت نار من الأعصاب المتوترة المشتعلة بالانتظار؛ فإما السماء راضية عن الواحد منهم، وإما لفظته. ذلك أن مجئ بغلة العرش إلى واحد منهم إنما هي ضربة حظ عبقرية إلهية ليس من السهل تكرارها في أزمنة متقاربة بين جيلين أو ثلاثة أجيال.

الخطر في الأمر أن مجرد وجودها حتى كخبر يتناقله الناس باهتمام، يعتبر فرصة لا تعوض أمام اللصوص الذين سرقوا من قبل أموالاً وادخروها. فها هنا يستطيعون إبرازها بعين قوية لأن العين العامة لن تسألهم : من أين لكم هذا؛ حيث

تكفلت هذه الشائعة بالرد نيابة عنهم بأن بغلة العرش قد جاءتهم من السماء تحمل خُرْجا مليئاً بالذهب كهبة سماوية لا أحد يملك حق الإعتراض عليها أو المطالبة بمبرر لقُدومها.

ورغم أن الجميع يوقنون من هذا يقيناً تاماً ، فإنهم مع ذلك لا يستطيعون السيطرة على غضبهم وانفلات سخطهم بل وكُفّر بعضهم أحياناً؛ خاصة أولئك الذين يتظاهرون بالعبادة عن ورع متقن لا يتركون الفرض يأتى على أخيه، ولا يدعون نافلة أو سنة أو أمراً مستحباً لدى الأئمة الأربعة إلا نفذوه بفيض من الأريحية حتى لتبدو علامات الصلاة على جباههم كالريالات المغشوشة من معدن الرصاص سرعان ما يعلوها الصدا الأسود؛ كما أن المسابح الطويلة المزينة بفصوص حمراء تتدلى من أياديهم ليل نهار؛ ولقب الحاج لصيق بهم .. هؤلاء بالذات يسوؤهم مجئ البغلة لناس لم يركعوها فى حياتهم، ولم يكن لهم فى ذاكرة البلدة أى رصيد من العبادة أو حتى السلوك الحسن. فلا يملك الممعنون فى العبادة حين يبلغهم النبأ - سيما وأنهم أول من يتشمم الخبر باعتبارهم أول من يبادر بالانتظار والتوقع - إلا أن يصفق الواحد منهم كفا على كف فى ذهول حقيقى :

- «سبحان الله ! لله فى خلقه شئون ! جلّت حكمته ! تعالت

إرادته وتقدست مشيئته ! يحيى العظام وهى رميم ! سبحان مغير الأحوال !» ..

إلا أن هذه العبارات التى تبدو فى ظاهر معناها كأنها امتثال لارادة الله عز وجل، وتسليم بالأمر الواقع لمشيئته جل وعلا ؛ فإن من السهل على أى مستمع غشيم أن يدرك ماوراءها من عصبية محمومة تنطوى على مايشبه الإحتجاج وربما الإعتراض ؛ يكاد لسان حالهم يقول : إשמعنى أنا ؟! كيف يكون فلان الفلانى هذا مفضلاً عند الله أكثر منى وهو لا يفعل ماأفعل من واجبات. عشرات الكيفات واللامازات تتدفق فى تيار العصبية المفرطة المتسريلة بعبارات الإمتثال والإتعاظ ..

أولئك هم مصدر الفرجة الحقيقية لمن يريد التندر والضحك فى اليوم التالى لليلة القدر والأيام التى تليه. معظمهم يضطرب بشكل مثير للضحك فعلا يبدو اهتزاز إيمانهم واضحا لكل ذى عينين ؛ مع ذلك هم يمعنون فى التمسك بمظاهر الإيمان. قليلون منهم يقل ظهورهم فى صلاة العصر والمغرب والعشاء والفجر بل والجمعة بشكل ملحوظ. الأقل فالأقل ينسون المسابح فى جيوبهم. يستمر هذا لبضع شهور. سرعان ما يعود كل شئ إلى سابق عهده فينخرط المؤمنون الحقيقيون فى أداء فروضهم؛ ينافسهم المتظاهرون بالورع. شيئاً فشيئاً يدرك

الجميع أن باب السماء لا يمكن أن يخلق للأبد في وجه العباد، وأن الله قرين العدالة، والحياة يوم لك ويوم عليك، هي معك اليوم وغدا مع غيرك، النعمة لا تدوم والجاه غير مخلد فالفقر إنزاع غير سرمدى، هذا شأن الدنيا فكل يوم هو في شأن، ولو دامت لغيرك ما أتت إليك، فليس من المعقول أن يتعصب الله لشخص دون غيره، ومن ثم فباب السماء مجبول على أن يفتح دائما، وإن عطية الله لا تنفد.. فإلى أن تقترب ليلة القدر تكون البلدة كلها قد باتت ساحة للورع والتقوى بصورة غير طبيعية، تصل إلى ذروتها صبيحة يوم ليلة القدر.

لا أحد يذكر بالضبط متى بدأت ظاهرة بغلة العرش هذه وكيف باتت واقعا راسخا كأنه طقس عتيق. هكذا يبدو الأمر بالنسبة للجيل الجديد من أبناء بلدتنا. أما أبناء جيلي فإنهم يتذكرون أنها بدأت منذ ما يربو على ربع قرن تقريبا؛ فظلت تتطور وتكتسب مصداقية من سنة لأخرى...

الأعجب من ذلك أنني رغم أنني - حسب تعبيرهم - موظف قد الدنيا يعيش في أم الدنيا؛ أراني دائما في البلدة في هذا الموعد من كل عام كأنني على موعد ثابت مع الحدث. والحق أنني لست أعرف إذا ما كنت أنا قد دبرت إجازاتي السنوية التي أقضيها في بلدتي بحيث تكون هذه الليلة من بينها، أم أن الظروف هي التي

تكفلت بذلك؟! أيا كان الأمر فإنني منذ شاهدت هذه الظاهرة لأول مرة في تلك الليلة البعيدة، لم اتخلف عن مشاهدتها كل عام...

وإذا كنت فيما سبق لم أشهد الحدث نفسه بعيني؛ فإنني - ككل أهل البلدة - أشهد ردود فعله مجسدا في صور بعضها خلاب وبعضها محزن؛ وكلها مثيرة للتأمل محركة للخيال والعاطفة والغیظ والحنق وكل ألوان المشاعر. فما الحدث إلا ردود فعل في النهاية. كما أن ذاكرة الليل في بلدتنا أصبحت تحفظ من الغرائب والمدهشات مالا يكاد عقل يصدق أو يستوعبه. ولهذا، ففي كل عام أراني أكثر تلهفا على قدوم هذه الليلة أكثر من العام الماضي. ورغم أنني أصبحت أتوقع كل ماسيحدث بحذافيره؛ فإن ما يحدث وإن تكرر لا بد أن يكون دائما طازجا وجديدا وغنيا؛ ومثيرا للذهول أكثر مما سبق. الحق أنني لم أعد قادرا على الحكم الصحيح فيما إذا كانت الغرابة كاملة في هذا الحدث السنوي، أم في بلدتي نفسها دون كل بلاد الله المنتشرة على الأرض!؟..

* * *

في المنحنى القائم بين الريف والحضر، جنوحا على خط البراري في شمال الدلتا، تقع بلدتنا؛ تلك التي لم تترسخ

صورتها الحديثة فى ذاكرتى بعد. فما زالت كما كانت على صورتها القديمة، تبدو لى من بعيد؛ فيما أنا مقبل عليها من المدينة البعيدة التى أتلقى العلم فيها، ممطياً ظهر ركوبه عجفاء؛ وقد بدأت الأراضى الزراعية الخضراء والصفراء والبيضاء تلد أخصاصا واعشاشا مبنية بالبوص والخشب والطين؛ تأخذ فى التطور كلما أمعنت الخطى فى مدخلها الرئيسى الموصل إلى محطة القطار فى بلدة أخرى بعيدة، إن هي إلا فراسخ قليلة حتى تتحول الأخصاص والأعشاش إلى بيوت ومنازل بعضها مبنى باللبن وبعضها بالطوب الأحمر؛ كلها من طابق واحد أو طابقين على الأكثر، تتخللها بضع مآذن وأبراج كنائس؛ حيث تبدو البلدة وهى ممتدة على رقعة عريضة بين المزارع كشكل طائرة ورقية مضلعة من جميع الجهات بارزة الأضلاع فى بعضها، كأنها - وهذا هو الأرجح - مبنية على تخطيط عشوائى، كحركة المياه عند الطوفان تنفرد تلقائيا على قدر ما تسمح لها قوة الإندفاع..

هى إسم على مسمى . إسمها سيدى سالم؛ هو قطبها الكبير له فيها مقام رهيب يتوسط مسجدا لا مثيل له فى الفخامة والإتساع وطول المئذنة ورخام الأرض وضخامة الميضاة؛ كأنه أعد لصلاة العالم أجمع، وهو لهذا مفخرة البلدة ومزارها.

وأسماء سالم وسليم ومسلم وسلامه وعبد السلام والمسلمانى شائعة بين العائلات شيوخ النخيل وأشجار الصفصاف والجزورين فى أراضيتها وعلى جانبى سككها وحول دورها ... لنشأتها تاريخ مدون فى الذاكرة الجماعية يعرفه حتى الأطفال الصغار. فسيدى سالم، النائم جثمانه فى هذا المسجد الكبير فى وسط البلد، هو أول ساكنيها وكانت على أيامه بلقعا. كان من اهل الخطوة يمشى هائما فى حب الله يتخير أماكن بعيدة يختلئ فيها بنفسه ليتريض ويجاهد نفسه يكسر أنفها فى مواجهة الله. أيا مذاك كان معروفا لكل صغير وكبير فى بلدان العب كله، وذا مهابة ومكانة مرموقة لها فى القلوب هزة، وإسمه فى الأسماع وقع حميم. إنه من إحدى هذه العزب تتأثرة حول بحيرة المنزلة، إستوطن فيها أهله القدامى وكانوا من الأعراب الرحل؛ لكن استيطانهم قرب بحيرة المنزلة واشتغالهم بالصيد وصنع المراكب وتجارة البحر كان أساسه حرصهم على اكتساب رضا الله؛ ذلك لاعتقادهم أن السكنى فى الموانى البحرية سنة؛ فكل ميناء أو مرسى يسمى عندهم بالرباط؛ وكل من يربط فى بقعة كهذه له فى الجنة مكان يحسد عليه. إلا أن مرابطتهم قرب هذا الميناء لم يمنعهم من الترحال ثم العودة ثم الترحال فالعودة. كانوا جميعا من مريدى سيدى

إبراهيم الدسوقي، الذى كان على قيد الحياة فى خلوته بدسوق
يجهز جيشا من الفدائيين يرسم لهم خطط الإنتقام من الجيوش
الصليبية المغيرة على البلاد. فتياته كانوا من اشجع الفتيان
واقواهم عزيمة وإرادة وقوة لأن صورة الدسوقي تمكنت من
صدورهم فظلت مشعة فى أذهانهم ووجدانهم تحفزهم على طلب
الإستشهاد فى سبيل الله والوطن. وحتى بعد رحيل الغزاة ظل
فتياته يتكاثرون فى جميع البلدان، وظلت عقيدتهم قائمة على
التوثيق بين الله والوطن؛ وبما أن الغزاة قد انتشعوا بعون الله
فليبق الجهاد مستمرا فى خدمة الوطن وأهل الوطن؛ فالعمل فى
شق الترع والمصارف وتعبيد الطرقات وبناء المساجد والتكايا
 وإقامة الأسبلة فى الطرقات الطويلة وإغاثة الملهوف وهداية
التائهين كل ذلك جهاد فى سبيل الله ...

وكان سيدى سالم طفلا فى العاشرة من عمره يوم ذهب به
أمه إلى سيدى إبراهيم الدسوقي تلتمس بركته لابنها شأن
معظم الأمهات فى هذه البلدان الدسوقية. قال الراوى فلما رآه
الدسوقي توسم فيه الصلاح الفطرى وسلامة القلب فوضع يده
الشريفة على كتف الصبى وقال لأمه : بونك والطريق ، يعنى
اذهبى واتركيه لى؛ فما كان من أمه إلا أن أطلقت الزغاريد المدوية،
وظلت تزغرد وتغنى من الفرح طول الطريق إلى بلديها. ومنذ أن

تركته نسيت أنه ابنها، باتت تزوره فى كل عام مرة أو مرتين ،
فيسرها منظره وقد نما فأصبح شيخا مهيب الطلعة بلحية
جميلة وجبين وضاء وعين يسكنها الحياء، فتلتمس منه الدعاء
لها ثم تقفل عائده إلى دارها ..

فى أحد الأعوام - وقد صار ابنها من الفتيان - إشتاقت إليه
والى شيخه فشدت الرجال إلى دسوق . بدأت المسير بعد أذان
الفجر مباشرة؛ وصلت إلى خلوة الشيخ بعد الظهيرة بوقت
طويل. لحظتها كان الشيخ يتناول غداءه داخل الخلوة، وكان
ابنها سالم قد كبر وتغير شكله من شدة الإمعان فى الزهد حتى
صار جلدا على عظم يتسربل بخرق باليه، لدرجة أنها لم تتعرف
عليه وهو جالس وحده على باب الخلوة. إقتحمت الباب إلى
الشيخ مباشرة، مالت عليه فقبلت جبينه ، سحبت يده المشغولة
بالطعام طبعت على ظاهرها قبله ، إنخرطت فى الدعاء له.
بنظرته الثاقبة عرفها الشيخ فإبتسم قال لها :

- «كيف حالك يا أم سالم ؟!»

- «بخير يامولانا طالما أنت راض عني !»

- «لعلك تسألين عن أبنيك ؟»

- «وعنك قبله يامولانا !»

بيده أشار إلى باب الخلوة، فنظرت فى الرجل الجالس على

الأرض يأكل هو الآخر . جمعت نظرتها ما امام الشيخ فإذا هي
دجاجة مشوية عطرة الرائحة، والشيخ يفحص لحمها على
مهل شديد، يلوكه فى غير التذاذ . ثم انتقلت نظرتها إلى ابنها
فوجدت أمامه طبقا من المش و اللفت ، وعلى فخذة رغيف مقدد
وبعض أعواد الفجل . قلب الولية أكلها. عقلها الريفى البسيط
عجز عن استيعاب هذه التفرقة من شيخ من كبار أهل الله
الطيبين . إنفلت لسانها رغما عنها :

- « متأخذنيش يامولانا ! بقى ده يصح برضه ؟ تاكل فرخه
مشوية ! والولد ياقلب امه ياكل مش حادق ! وهو بيخدمك ليل
نهار ؟! أنا لماؤاخذه باسأل بس يعنى !»

نظر إليها أبو العينين باسما ؛ وكان قد انتهى من أكل الدجاجة
فلم يبق منها سوى كومة صغيرة من العظم والشفت. قال :

- « تريدن معرفة السبب ياخاله ؟»

- « فقط يامولاي !»

فسحب أبو العينين نظرتة عن أم سالم فألقى بها فوق كومة
العظم المصوص ، فشوح بذراعه صائحاً فيها :

- « هش قومى !»

فإذا بالدجاجة قد نهضت من كومة العظم واقفة تقافى وتجرى
إلى الخلاء. فنظر إلى المرأة المذهولة وقال لها :

- « حين يستطيع ابنك فعل هذه يحق له أن يأكلها !»

فألقت المرأة حجراً؛ سلمت على الشيخ طلبت عفوه، ثم
على ابنها طلبت دعاءه، وعادت إلى دارها فى البلد. مرت
السنون وابنها يتفانى فى خدمة شيخه ؛ إلى أن طُلب شيخه للقاء
ربه، فانطلق سيدى سالم يمشى فى حب الله إلى كل مكان؛
يهدف إلى نشر عهد سيده وقطبه بين العباد. أقام لنفسه خصا
صغيرا فى بقعة نائية متاخمة لطريق ضيق بين الأحرار وأعواد
البوص والحلفاء كانت تسلكه القوافل القادمة من القرى
المجاورة فى اتجاه يقود - بعد مسيرة أشهر بالدواب والإبل -
إلى شاطئ البحر المتوسط عند بحيرة البرلس ؛ أو عند نهاية
مصب فرع رشيد بانعطافة يسيرة متفرعة منه ؛ وحيث كانت
هذه الطريق مرتعا لقطاع الطرق فى الليالى السوداء لا ينجو
منها إلا كل عتلٌ مسلح بشتى أنواع الاسلحة والرجال. أسبغ
سيدى سالم على الطريق كثيرا من الأنس أشاع بدوره بعض
الأمان ، إذ هو صاحب كرامات حقيقية، لا يفلت من سحر
سيطرته على من يحتك به كل من يحتك به؛ حتى لقد استطاع
أن يهدى الكثيرين من قطاع الطرق يحولهم إلى اتباع ومريدين
يسهرون الليل خارج الخص فى تهجد وتسابيح؛ يقدمون
المساعدات للقوافل والرواحل، يفسحون لهم أماكن لقسط من

الراحة، يتلقون الهبات من خبز وقروش وكبسوات من الخلع. فى مقابلها يقدمون الماء مع الشاى وربما الهداية؛ إذ إن ماحفظوه من كلام سيدى سالم كان يحلولهم إعادة ترديده كل بطريقته الخاصة؛ فتجد من الأتباع قبولاً حسناً؛ مما أقام لهم صداقات عديدة مع الكثيرين من التجار الأثرياء والمقاولين والصيادين أصبحوا يركبون إليهم لقضاء شطر من الليل فى صفاء صحبتهم وصحبة شيخهم الذى لا يمكن من رؤيته سوى صاحب القلب السليم . لا يتأكد أحدهم من سلامة قلبه إلا إذا اصطفاه الشيخ وقربه إليه؛ فى حين لا يفقد الآخرون الأمل فى علاج قلوبهم على يديه بعد ماقدّموه فى السابق من شرور ومساوئ ..

خضوعاً لتعليمات شيخهم لم يكن ليتم لهم شفاء القلوب من أمراضها المتوطنة سوى بالإستغراق فى المجاهدة والترييض النفسى؛ أو فى العمل الشاق المرهق فى سبيل الله؛ أى فى خدمة أهل الله وأبنائه من كافة البشر. أقرب عمل اقترحه عليهم حمل الفتوس والكريكات لحفر قنوات وترع فى هذه المناطق الصحراوية تتصل بنهر النيل الذى أرسل لهم مندوباً عنه اسمه فرع رشيد يجب أن نضيفه فى أرضنا ليفيض علينا من نعيم الله مايروى العطاش، وكان يحلو للشيخ عصر كل يوم أن ينظر

من خصاص نافذته واقفا يملأ صدره بالهواء المشبع بغبار الحفر، فيشعر بالرضا إذ يرى خطوط الحفر قد امتدت على مساحات عريضة إلى مسافات بعيدة جداً ؛ وإن اتباعه قد تضاعفت أعدادهم بشكل مثير للبهجة والفرح ؛ فلا بد أن كل مريد من مريديه قد صار له مئات المريدين. كان يشعر - يقول الراوى - بالسعادة كلما أبلغه كبار مريديه أن جميع أهالى العقب كله قد باتوا يعتقدون أن التطوع بالمشاركة فى الحفر والتعبيد نوع من التوبة أو الصلاة أو طلب رضا الشيخ والتوسط إلى الله لقبول توبتهم ؛ فكان الشيخ يبتسم فيضئ وجهه بنور أسيف فيما هو يقول :

- «هذا دليل على أن عدد الخطائين كثير مخيف ! لكن الحمد لله أنهم أنكروا أنهم خطاءون فجاءوا يلتمسون التوبة على أيدي العبد الفقير ! ألا فليوفقنا الله أن نكون عند حسن ظنهم ! ومن أدراهم أن الله يتقبل منى وأنا اشعر بأنى لم أصل بعد إلى معرفة الطريق الصحيح إلى عتباته المقدسة ! اللهم تقبل منا جميعاً ولا تردنا بالخيبة والخسران !!!

من الواضح أن الله قد تقبل منه القريان بقبول حسن ؛ إذ ماكاد الشيخ يتأهب للقاء ربه ذات ليلة قدر موعلة فى القدم؛ حتى كان مندوب النيل قد نشأت له جيوب كثيرة بعضها بارز

وبعضها سحري يمتد فى قلب البرارى والمناطق الصحراوية البعيدة، فجاء ميسوزون مريدون فاقاموا اخصاصا واعشاشا ومنازل بحذاء خطوط المياه المنسابة فى اتجاهات كثيرة ، بدأت مشاريع زراعية. غيطان وحدائق وزوايا للصلاة راحت تتكاثر يوماً بعد يوم كلما اقلح مشروع وأنذر بخير وفير. مع المشاريع والمنازل نشأت طرق ومدقات ؛ جرى تمييز البقاع والطرق بأنواع متعددة من الأشجار والنخيل . حتى إذا ما أقبلت تلك الليلة البعيدة من لىالى القدر كان خص الشيخ قد احتاطته بلدة محندقة خفيفة الظل تجرى من تحتها القنوات والترع والمحاصيل الزراعية...

ليلتها تمدد الشيخ فى خصه على الخرقه التى يفترشها. وكانت التمرة التى وضعها فى حنكه منذ الصباح لا تزال قيد المضغ تحت أسنانه الواهنة حين طلب جرعة ماء وافاه بها صبيه الجالس بجوار رأسه. ابتلع الشيخ بقايا التمرة فى جرعة الماء ثم شكر الله وحمد فضله العميم؛ ثم طلب كبار مريديه بالإسم. ففى الحال خفوا إليه سراعاً. طلب لهم مزيداً من الهداية والتوفيق والترابط فى الجهاد فى سبيل الله. ثم أدلى بالشهادتين منغومتين على مهل، أطبق جفنيه، تهدل رأسه على الجانب الأيمن ، سافرت روحه إلى بارئها .

تناولت فطورى على عجل. قررت الإنصراف قبل أن يهجم طرفان التلفزيون بفوازيرة الرقيقة وتمثيلياته الخرقاء؛ الدُعاء الشعب المصرى فى العصر الحديث. كان قرين الخرافة فأصبح بديلاً لها فى حياة أهل بلدتنا. لم يعد حديث السياسة هو الرئيس فى مجالسهم بل لم يعد لهم مجالس من الأساس اللهم إلا القعدة أمام التلفزيون إذ هم أقراد حتى وإن تجمعوا. حديثهم أنثذ هو طلاق سميهِ الألفى من فاروق الفيشاوى ، عدم زواج لىلى علوى، مغامرات أحمد زكى على الطريق الصحراوى، زواج شاريهان من الفاسى، طلاق صفاء ابو السعود من الشيخ صالح كامل المليونير السعودى. تراجعت كل الهموم وهى ماثلة. الحفاة الجباع مشغولون بالدورى العام لكرة القدم، وترقب المباراة الفاصلة بين الأهلى والزمالك، ترقب ماسيحدث اليوم فى حلقة المسلسل ...

ينتابنى الضيق أى مستقبل يمكن أن نتوقعه. لأى عمل جاد فى هذا الزمن الملى بالإنحطاط والفساد، وكائنات حمقاء لاهم لهم سوى الأكل والشرب والنكاح والتكاثر بصورة جنونية مخيفة.. العجيب أن هذه الصورة الكثيبة التى تدهمنى فى البلدة كلما زرتها؛ تتناقض تماماً مع الصورة البهيجة التى تطالعنى فى

غرفة صديقي «عدلى بقوش»، المهندس الضابط الذى فقد ساقيه فى حرب أكتوبر. وتكون الفرحة شاملة حين يتصادف وجود «جعفر العطار»، الشاعر الذى يجب على بلدتنا بأن تفخر بأنه من أبنائها؛ كان معلما فى معهد المعلمين بكفر الشيخ لكنه استقال وتفرغ للشعر والأدب فحقق شهرة كبيرة كصوت متميز فى حركة الشعر العربى الحديث، إلا أن غرامه بالبلدة لا يقاوم، وكانت السنوات التى أمضاها فى العراق موظفا بوزارة الثقافة العراقية قد غدت فيه حبه للقرية فلما عاد أصبح شبه مقيم فيها يمارس الزراعة وتربية النحل فلا يمكث فى القاهرة إلا بضعة أمسيات كل أسبوع؛ فأمضى عمره يحمل حقيبة (هاندباچ) على كتفه فيها ثيابه وكتبه رثا غاديا بين البلدة والقاهرة ..

اغلب اليقين أننى تعجلت الخروج إلى الخلاء بعد الإفطار مباشرة لكى أذهب إلى مندرة عدلى بقوش. فأول شئ أشعر بالإشتياق الحقيقى إليه فور نزولى إلى البلد هو هذه الغرفة التى تشبه عشا تفرخ فيه المشاعر أنسالا فى غاية الثراء. ربما كانت هذه المندرة هى الجانب الحقيقى الذى بات يشدنى لزيارة البلد، أو على الأقل يفعمنى بفرحة غامرة.

فى الحال اتخذت طريقى إليها وقد تبدلت حالتى النفسية من

الكآبة الكاملة إلى البهجة المطلقة. فمجرد مرور صورة عدلى بقوش بخاطرى فيه إنعاش لكل الآمال المحبطة فى نفسى؛ تسرى فى كيانى رعدة لازعة لذيدة كلذع المياه الغازية؛ أشعر أن طاقة الأمل والقوة والتفاؤل الكامنة فى روح عدلى بقوش قد انتقلت إلى صدرى أشعرتنى بالخجل وتأنيب الضمير، بداخلنى اليقين بأن الدنيا لا تزال بخير رغم كل مانحن فيه من فساد وانحطاط..

لسوف نتندر الليلة ببغلة العرش حتى ننتشي من الفكاهة وتذوب كل الكلاكيك السوداء فى أعيننا إذ نستكشف فى أروقة النكت العميقة الذكية طيبة قلب أهلنا وخصوبة خيال الشعب المصرى المستمدة من روحه الحضارية الأصيلة؛ تلك الروح التى «لمرتها الأتربة الناتجة عن سنايك خيل الغزاة ومراوغات الزمن الشرعد، وتضافر الأسباب الكونية على هذه الأمة تقف لها بالمرصاد، تصيبها بالكساح كلما اشتد عودها؛ كأن موقعها الجغرافى كان نعمة ونقمة معا؛ شعب مقهور على الإستسلام سبيل على المقاومة فى أن، مقاومة بالنكته بالخرافة بالصلاة بالأغنيات بالكائيات؛ لا يشغله أمر الدفاع عن أرض الوطن قدر نشغاله بأمر الدفاع عن قيمة الحضارية الخالدة التى أبت إلى بصيص جمر يحجبه الرماد. إنه الشعب الذى تبنى فكرة نشر

السلام كسلاح مضاد للحرب، والضمير الإنسانى كسلاح مضاد للهمجية. حمل لواء الإنسانية فظل يدفع ثمنها حتى اليوم فلا يعتريه اليأس أو كلال مهما لحقه من خراب ودمار : تلك النزعة التى تأصلت فيه أغرت به كل وحوش العالم فأغاروا عليه فامتلكوا أرضه وقتا، لكنهم أبدا لم يمتلكوه هو، ظل هو هو ، بل إنه طوى الغازى تحب جناحيه وتكفلت شمس مصر بتمصيره. لا يعرف التاريخ بسالة فى الحرب كبسالة ملوكه الأغراب الذين استوطنوه فدافعوا عن أرضه حتى الموت. فى كنفهم عاش المصرى ذليلاً مهيباً أى نعم؛ لكنه احتفظ بمصريته، بكونه تشخيص وتجسيد لفكرة السلام ويقظة الضمير الإنسانى. إلا أن هذه القيمة - من أسف - تحتاج الآن دما ثقافيا طازجا ووعيا سياسيا شاملا، على ضوئه يعرف المصرى كيف يحاسب ملوكه وأولى الأمر منه، يعرف أن هؤلاء وأولئك ليس ينبغى أن يعاملوا باعتبارهم أجنب كما كانوا . ما هذا ؟.. أكاد أتكلم بلسان عدلى بقوش وعبارات جعفر العطار الى غرستها فينا أخيلته ذات الأعصاب الملتهبة على الدوام.

الحارات تفضى بى إلى شوارع تميل بى إلى منعطفات وأزقة وسط زفة هائلة من أصوات المذياع والتليفزيون والكاسيت المتصلة بامتداد الطرقات كلها على المصاطب أمام الدور وفى

الدكاكين وعلى ظهور الحمير وفى أيدي السائرين ؛ حتى أن كلمة واحدة مما يذاع لم تغب عن أذنى ؛ من فوازير أمال فهمى إلى حلقات ألف ليلة وفوازير التليفزيون فأذان العشاء يقطع كل ذلك يتلوه حديث نبوى فقرآن كريم فاختلاط فزئيط هائل ؛ وأضواء الكهرياء تنبعث من الزرائب والحظائر تنفرش على أكوام السباخ وأقراص الجلة وأحمال القش والحطب ..

مندرة عدلى بقوش مطفأة !! لا بد أن حدثا كونيا خطيراً طرأ عليها. هذه المندرة لم تنطفئ أبدا حتى وهو غائب عنها. فهو دائما أبدا إما هناك أو فى مشوار قصير يعود بعده ليجدد الدماء فى حلقة السمار التى تكون اكتملت فى انتظاره راحت تتصرف على راحتها. ماذا ياترى قد حدث ؟..!

طرقت الباب. لا أحد يرد. الدار كلها مطفأة ومن الواضح أن أهلها جميعا قد غادروها. جيرانهم قابعون فى شرفة بعيدة مبنية بالأسمنت المسلح داخل إطار من البناء القديم بالطوب اللبن، وصوت التليفزيون فى أقصى ارتفاعه بدرجة لا بد أن تخرق طبلة الأذن ومع ذلك فإنهم يتحركون فى الشرفة فى الضوء الشاحب كاشباح بلهاء تمتد كروشها تتجشأ ولا أحد يسمع أحداً .. وجدتنى أتخذ طريقى المعتاد نحو السكة الزراعية على شاطئ

ترعة السلمونية . وجهتى هى هذه القنطرة العريضة المبنية
بالأسمنت المسلح، يتوسطها باب من الحديد غائص فى الماء إلى
عمق بعيد جداً ؛ يمتد أمامه فى قلب الماء مفر صخرى طوله
مترين وعرضه أكثر من متر. فوق القنطرة طابية دائرية جميلة
الشكل جداً ؛ كأنها خشبة المسرح يحلو لنا وللجميع الجلوس
فوقها. فبمجرد اعتلائها تنتاب الجالس فوقها حالة مسرحية
منعشة مفعمة بشعور لذيد بشئ من النجومية المضمرة فى
كل واحد . لابد أن تحدث له بعض التجليات ، تهبط عليه بعض
الأفكار ، يصاب بحالة مفاجئة من خفة الظل يروح يرسل
النكتة تلو النكتة؛ أو بحالة من الورع يتخذ منها موقع الواعظ
دون أن يدري؛ ربما ألقى درساً أو موعظة أو محاضرة أو قصيدة
شعر. جميع طلبة البلدة بجميع الأجيال السابقة علينا والتالية
لنا طبعوا عليها بصمة خيالهم وطموحاتهم ونكريات غرامهم
واكتشافهم لرجولتهم. فوقها ولدت مشاريع لنواد رياضية
وجمعيات ثقافية ؛ دبرت مؤامرات ساذجة، فصولات مضحكة؛
تجودلت الشتائم الرنانة والمناظرات الجوفاء؛ أقيمت أسرار؛ ألفت
أسرار ؛ إنسردت قصص وحكايات وإشاعات وأشعار؛ ضربت
مواعيد؛ أقيمت أمسيات ..

كل من يتغنى نزهة ليلية لابد أن يؤوب إليها فى أول النزهة

وأخرها. كل من أراد اجتراح أحزانه حج إليها. كل مزهو بنجاح
يمر بها ليستمتع بالأصداء. كل مكسور خاطر يلجأ إليها طلباً
للمواساة . كل واقع فى مصيبة فى مشكلة أتى يلتمس من
يشاركه فى حمل عبئها ولو بكلمات التشجيع والموازنة
الشفاهية. حتى سيارات الأجرة بالنفر من المركز إلى البلد
تتوقف عندها كمحطة ملائمة لا يتجاوزها السائق إلا باتفاق
إضافى مبالغ فيه. على كل مسافر أن يمشى من داره إليها
ضامناً وصول سيارة ترجع به إلى البندر...

فى مواجهتها، وسط مساحة زراعية مترامية الأطراف يقف
مبنى الوحدة الصحية المتناثرة وحداتها على أربع أقدنة ؛ يحوطها
سور مبنى ومطلى مثلها باللون الأبيض الكريمى. فى وسطها
ممرات أشبه بحدائق مزروعة بالأزهار والورود على جانبي
ممرات مفروشة بالحصى. تتصاعد من وحدات المبنى روائح
الفنيك وصبغة اليود والزرنيخ والأحماض. تمتد أمام الوحدة
الصحية ترعة المشروع ، المتعامدة مع ترعة السلمونية كشكل
مفتاح الحياة عند المصريين القدماء. ذلك أن هذه القنطرة
الكبيرة تحت هذه الطابية العريضة كطبلية خرافية الحجم، هى
الباب الذى يفتح على هذه التربة الفرعية الضيقة؛ عند اللزوم..
الذهاب إلى قنطرة السلمونية ليس محتاجاً لرفيق. إنها هى
نفسها الرفيق. إجلس إليها - لا عليها - وحدك فى العتمة وأنت

ضامن أنها تؤنس وحشتك ؛ ليس فحسب بصوت لطعات المياه
لباب القنطرة ولغط الموج وهو يتمرد على حصاره فى الممر
الصخرى ؛ بل بأصداء مادار فوق هذه الطابية عبر عشرات
السنين، منذ أقامها محمد على باشا إلى اليوم. حتى هذا الباب
الحديدى المشغول بالزخرفة لم يتغير ولم يتبدل.

الهزيع الثانى

تغيرت أشياء كثيرة وتبدلت طبائع أكثر؛ إلا هذه الطابية على
هذه القنطرة بهذا الباب. هذه الطابية العتيقة يتعشقها الناس
جميعا كأنها بيت العائلة..

سرنى جداً أن أكون أول القادمين إليها. فليس سهلاً أن ينتزع
الناس أنفسهم من حنك التليفزيون إلا بعد حلقة ألف ليلة وليلة
على الأقل. ولا اظن أن فيلم السهرة مهما علا شأنه يمكن أن
يشغلهم الليلة عن الفيلم الأكبر الذى سيشاهدونه ويشاركون
فيه ابتداء من الهزيع الثانى من الليل ..

ماكدت أتربع فوق الطابية وأستشعر الوحدة الشاعرية
فأنصت لمعزوفة الموج الخبيس فى الممر الصخرى حتى بدأت
الأشباح تظهر من كل ناحية؛ تتلأأ عند الطابية قليلاً، ثم
تستأنف السير هنا وهناك لى ترجع من جديد فى لحظة من
اللحظات.. فمأب الرحلة هنا لا محالة . وكان أول الجالسين
بجوارى بعد العواف والسلام، هو نجار السواقى (عبده
الجحش).....

أباطيل وأسمار

ثلاثة صبيان صرفت عليهم في مدارس البندر حتى أصبح أحدهم معلما في بلدتنا والثاني تمورجيا ببلدتنا أيضا والثالث صولاً في الجيش؛ فاستقلوا جميعا بأنفسهم..

«تزوجت في الأربعين من العمر. رزقني الله بالأولاد. كبروا في غمضة عين. ظننت أن خلاصى من مسئولية إخوتى سيملاً صدرى بالهواء النقى ، لكنى أصبحت كمن يحمل على صدره جبلا. تعليم ولد واحد يقطع ظهري فماذا سأفعل بالباقيين وهم على عتبات المدارس الآن؟!..

«من سوء بختى تغيرت الدنيا. قلَّ عدد الفلاحين من يوم ما إنفتحت أسواق العمل في ليبيا والعراق والخليج . أصبحوا جميعا مرفهين. ماكينات المياه دخلت البلد فكسد سوق السواقى. ليس سهلا أن أتعلم إصلاح الماكينات على كبر. سنى لم تعد مناسبة للسفر. ماذا تفعل يا عبده يا جحشة فى هذه الوكسة المهبية ؟! هكذا أسأل نفسى كل ساعه ..

« غصبا عنى بدأت أنتبه لحالات الناس؛ أجد أن الخير قد عم الكثيرين وابتعد عنى. ناس كثار فى بلدتنا أصبحوا اغنياء فجأة دون أسباب معلومة أو مفهومة .على أيامنا كان المرء يفتنى بعد عمر طويل من الكفاح والشقاء فى التجارة أو الحرفة؛ أما اليوم فإن المرء يفتنى فى غمضة عين. فجأة ترى الشخص قد ظهرت عليه النعمة بشكل يغيظ. والمضروب على عينه أنور السادات

١ - مسأله

« طول عمرى أحب الخير للناس أجمعين ؛ عمرى ماحقت على أحد يعلم الله أنى دائما أطلب منه أن يسهل لعبيده. وحين أرى أحدا لا يستحق الغنى لكنه اغتنى لا أجرؤ على قولة اشمعنى، فهذه مشيئه الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب. وقد شاء الله لى أن أكون نجارا يصلح السواقى فى مقابل ميسانيه؛ فى كل محصول يعطينى الزبون مااتفقنا عليه من كيلات قمح أو شعير أو ذرة ، لأكون رهن إشارته حينما يدعونى فى أى وقت لإصلاح تلف أو عطل فى ساقيته. هى مهنة وورثتها عن أبى وورثت معها زبائنه. بشطارتى أضفت كثيرا من الزبائن

«إستغنيت عن المدرسة لما حصلت على الشهادة الابتدائية لأن أبى ساعة موته أوصانى بالورشة والزبائن وإخوتى. بفضل الله أصبحت أعيش وإخوتى عيشة مستورة؛ زوجت بنتين؛ علمت

يقول لنا لا تحقدوا ! فكيف لا نحقد يا ابن الله...؟! الحمد لله أن
الولد الإسلامبولى نشأ وأراحنا منه لكن جرثومته بقيت عملت
لنا مزرعة حرامية ..

«لما أفتح الناس فى هذا الأمر مندهشا يبين لى أننى الوحيد
المندهش كالأمبل فى الرقة. الناس فرحون بكثرة اللصوص.
الدنيا انقلب حالها يا جلعان : البلد واقفة على رأسها وساقاها
مرفوعان فى الهواء مفشوخان لكل من يطلب الحرام ..

«الذين سافروا بالإعارات أو بالمقاولين أمرهم مفهوم : كل
واحد منهم جاء يقرشين فابتنى له دارا خارج البلدة وتزوج وأودع
فى البنك مدخرا يدر عليه دخلا يتعيش منه إلى جانب وظيفته أو
حرفته..

«ولكن ما القول فى الذين اغتنوا من غير أن يسافروا؟! خذوا
مثلا الواد فتح الله خطاب : مند أربع سنوات فقط كان يتسول
الشغل كمساعد لأحد البنائين. ما الذى فعله الآن حتى يتزوج
بدلا من الواحدة أربعا، ويبتنى لهن بدلا من الدار أربعا بالطوب
الأحمر والأسمنت. لم يكن يجد حمارة يركبها؛ فإذا هو الآن
يقتنى سيارة خطيرة الشأن اسمها المرسيديس، يتقنزع بها طول
النهار فى البلاد، يتجرا على أسياده القدامى فيخطب بناتهم
فيرحبون به فى الحال !!..

« خذوا واحداً آخر : الولد سنوسى العبد، ابن بائعة الطماطم

المعفنة؛ يظل طول النهار يشتغل فى صنع الطواقي بعشرة
قروش للطاقيّة. يوم موت السادات كانت بداية متاجرته فى
الحبوب : فهل تجارة الحبوب تفرقه بكل هذه الأموال فيقتنى
عشرة أقدنه من الأرض الزراعية وعشرات الرؤوس من الأبقار
وسيارة ملاكى، وفى آخر المتمة يرشح نفسه لمجلس الشعب
وينجح بأصوات الفلوس فيصبح بنى آدم عليه القيمة؟!..

«دعنا من هذا وذاك ، وتعال نتفرج على دكان محمود المتولى.
فى العام قبل الماضى فتح هذا كان بلبشة قصب وياكو شاي،
يوم يضربه الدم لا يكسب أكثر من جنيهين فى اليوم. اليوم أقام
عمارة ضخمة من خمسة أدوار ، تحتها دكان بطولها وعرضها
للعرض والتخزين. بضائع أمريكا كلها عنده : تليفزيونات
راديوهات ثلاثيات عسالات بوتاجازات سخانات شفاطات
مروحات دفايات فيديوهات مسجلات؛ أفندية وكتبه وقبضات
من أين كل هذا ؟ من لبشة القصب وإبر الوابور والدخان
المعسل؟! والله ماظنى .

« و.. هل نسيت صبيحه ؟ أه منها ، كله كوم وصبيحه
وحدها كوم آخر. يراها من لا يعرفون أصلها فيظنونها بنت
باشوات ورثت العز أبا عن جد : تركب هى الأخرى هذه المسماة
بالمرسيدس؛ لديها سائق خصوصى منظره منظر البكوات. من

كان يتصور أن محيي نصير بالذات يشتغل سواقا عند صبيحه ؟! منذ عشر سنوات كانت لا تجرؤ أن تكلمه؛ لأنه كان موظفا في الحكومة في كفر الشيخ في مبنى المديرية نفسها وكان أهل البلدة يقفون حين يكلمونه فلا يقولون له إلا يامحيى بك. شف كيف انقلب الزمن الأهوج من حاله فينعوج عوجه ثانية لها العجب ؛ لدرجة أن محيي بك نصير يقبل الشغل سواقا لسيارة صبيحه بائعة الخضار. لكن لله في خلقه شئون ؛ فكم تعطى الوظيفة لمحيى بك نصير ؟ مائة جنيه في الشهر ؟ طظ ! صبيحه تعطيه مايقرب من الألف غير الكسوات والمأكولات والمكسرات والوظاويظ الفاتنات !!.

«أنتم تعرفون أنني السبب في انكشاف سر البغلة ؛ فأنا قد صرت مسحوبا من لسانى من كثرة الغيظ ؛ من صلاة الجمعة منذ أعوام طويلة مضت، والمسجد جامع لخلق الله أجمعين ؛ كان الشيخ جمعه الفقيه يخطب على المنبر. الناس تنصت إليه في خشوع رغم أنهم سمعوا هذا الكلام بنصه الوف المرات، وتنهّدوا نفس التنهيد ومصمصوا نفس المصمصات ورددوا نفس العبارات. وفي ركن بعيد من المسجد كان عيال آخر زمن يتجمعون وحدهم وقد أطلقوا لحاهم وجعلوا ينصتون لواحد منهم وقف يخطب فيهم هو الآخر بكلام غريب غير مفهوم لكنه

أميرهم وله عليهم الأمر والنهى. في رأيهم أن فقهاءنا كلهم جهلاء كفار وأننا جميعا مثلهم في الكفر..

«الناس في شغل من أمر عيالهم هؤلاء ولكنهم في حقيقة الأمر مزهوين بهم؛ لسان حالهم يقول هاقد أصبح لنا عيال كبار مشاكسون ؛ وكان الأولى بهم أن ينظروا في أمر الخراب المستعجل الذى لن يعطى الواحد منهم بيتا يسكنه أو لقمة يأكلها..

«أما أنا فكنت في شغل من أمر الجميع . الشيخ جمعه كان يقول إن عودتنا المباركة إلى الله قد نفعت واکرمنا الله غاية الكرم ؛ فلما اتجه الجنود إلى الله وقالوا : الله أكبر ، نزلت ملائكة بثياب بيضاء حاربت معهم فجاءنا النصر في أكتوبر. ولما بدأنا نعرف الله حق المعرفة بدأ يسهل لنا، ظهر الخير الكثير، جرى القرش في أيدي جميع الناس باسم الله ماشاء الله. ولولا خروج بعض عيالنا عن طوعنا لكان لنا الحق أن نقول إنها الجنة ..

«فورّ الشيخ دمی : قطعت الخطبة قائلا :

- ياشيخ جمعه لا عقل الجنة ! فالثراء يهبط على ناس - ناس ! فجأة ويشكل غير مفهوم ! ولا يحط إلا على ناس والعياذ بالله ! حاشا لله أن أكون معترضا على مشيئة الله ولكن ماهو السر في نظرك ياشيخ جمعه !؟

« فإذا بالشيخ جمعه يتنجنح ويقول :

- أنت أحببت على نفسك ياعبد ياجحشه ! هذه مشيئة الله !
سبحانه يريد أن يفتنى هؤلاء دون غيرهم فما شأنك أنت ياعبد
! أنت لا تستطيع القول إن إيمانك خير من إيمانهم فلا يعلم
حقيقة الإيمان إلا هو ! خذ العبرة مني ! فانا شيخ كما ترى
أحفظ القرآن والسنة ولا أترك فرضا ومع ذلك لا أجروء على
القول بأنى أكثر إيمانا من أحد ...!!

« وكرر هذه الغمزة ليسمعها أولئك الشباب المنزويون فى ركن
وحدهم ، ثم واصل :

- حينما اختار الله ناسا غيرى ليصيبهم بالغنى لم أعترض !
فربما كان إيمانهم أقوى من إيمانى مع أن بعضهم لا يصلى ولا
يصوم !! لو أننا ياعبد ياجحشه فهمنا كل شئ وكل سبب
لانعدم الفرق بيننا !! ولا تنسى ياعبد ياجحشه أن الله سبحانه
قال : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ! يعنى إنت تجار وأنا
فقيه وهذا غفير وذاك وزير وهكذا ..

« قلت له مغتظا :

- ولكننا يامولانا لا نعرف كيف يفتنى هؤلاء الناس بدون
سبب !! عرفنا طول عمرنا أن الإنسان يصل إلى الغنى بسبوبة
معينة ! اليوم ينزل الغنى على الناس بالبراشوت !!

« قال الشيخ جمعه :

- لماذا لا تقول إن بغلة العرش جاءتهم !؟

- بغلة العرش !؟ بغلة العرش !؟ بغلة العرش !؟

« هكذا راح المصلون كلهم يرددون . قال الشيخ جمعه :

- ألم تسمعوا عن بغلة العرش !؟

« قال بعضهم إنه سمع . وقال معظمهم إنه لم يسمع . فقال

الشيخ جمعه :

- بغلة العرش هذه يأليها الناس ترسلها السماء للموعود فى

ليلة القدر من كل عام ! تحمل خرجا ملآنا بالذهب الخالص !

وفوقه رأس قتيل يثن طول الطريق حتى يخاف منها غير الموعود

فيتركها تمضى إلى حال سبيلها ! إلى أن تصل إلى بيت الموعود

فتطرق بابه وتقول له : هذا حلال زلال عليك أرسلته لك السماء

فخذ بالصلاة على النبى ! خذ الخرج برأس القتيل هذا شرط

السماء !! فإن هو ترك رأس القتيل لم يأخذه فإن الله يعانده

ويكشف أمره بأن يضع رأس القتيل على بابه فيراه كل مار !

ويقع هو فى تهمة لا يبرأ منها حتى تضيع كل ثروته وتصبح

نقمة عليه !! أما إن أخذ رأس القتيل وداراه تحت تراب داره فإنه

ينجو ! وعليه أيضا ألا يرد الخرج فارغا ! يجب أن يملأه من

خيرات داره !! قولوا جميعا : يارب اوعدنا ...!!

« ظهر البشر على بعض الوجوه وهم يرددون : إوعدنا يارب. وظهر الإمتعاض على وجوه أخرى. وكان الشبان فى ركنهم البعيد قد أقاموا الصلاة؛ مما جعل الشيخ جمعه يمت فى كلامه إلى أن ينتهوا من صلاتهم حتى لا يتداخل صوت المبلغ وصوت الإمام فتحدث ريكة أو لخفنة فى السجود والركوع..

« فى صلاة عصر ذلك اليوم البعيد كان جميع المصلين يتكلمون فى موضوع بغلة العرش هذه ، كأنها حقيقة فعلية. الشيخ عبد المقصود ابو غلاب- وهو رجل يحمل شهادة العلمية من الأزهر الشريف ومخه نير وعقله يزن بلاد الدنيا كلها - تعود أن يعطى درسا قبل صلاة العصر. ولأن البلدة كلها تحبه وتحترمه وتثق فى كلامه فإن مسجد العصاروة يزدهم فى صلاة العصر أكثر من صلاة الجمعة. فالشيخ عبد المقصود ابو غلاب يقول فى درسه كلاما يشرح القلب حقاً، أجدد من كلام الشيخ جمعه، وفيه حياتنا، فيه الناف والمحراث والطائفة والصاروخ وحرب إيران مع العراق واحتلال إسرائيل لجنوب لبنان لأنها تحتل فى الأصل عقولنا من الجنوب والشمال ومن كل الجهات ..

«لأول مرة لم يستمع الناس بانتباه لحديث الشيخ عبد المقصود فى ذلك اليوم. كانوا فى انتظار أن يفتح باب الأسئلة.

فما أن فتحتها حتى خبطه الجميع بسؤال واحد يجيئه من كل ناحية : ماحقيقة بغلة العرش هذه ؟ هل ترسلها السماء حقاً؟ هل الذين اغتنوا بسرعة فى هذه الأيام جاءتهم بغلة العرش فعلاً؟ وهل دفنوا رموس القتلى فى زرائبهم؟ هل هذه البغلة موجودة من قديم الأزل أم أنها حديثة عهد بهذه الأيام فحسب؟ هل ..وهل..وهل..

«نزل الجميع لهلة فى الرجل. طار صوابه . إتسعت البسمة الهفتانة على حكنه الواسع. صار يهرش فى لحيته الطويلة : يرفع العمامة يهرش فى صلته. إنه رجل مؤدب على الآخو، لا تطلع العيبة من فمه ، لا يطبق أى تخريف من أحد، وأكبر شتمة عنده قوله : أنت مخرف..

« لما كف الناس عن الأسئلة بقى صامتا لوقت طويل. إحمر وجهه كوجه بزاق الأرز . ظهر عليه الغم والكدر.. أخيراً نطق : - شوفوا يارجال ! هذا تخريف لم أسمع به من قبل ! وظنى إنه خيال فى خيال ! لكنكم نبهتمونى إلى شئ مهم : ذلك الثراء الفاحش الذى أصبح يحط على كل من هب ودب !! هذه بالفعل ظاهرة لا أستطيع إنكارها ! أنا مثلاً أزرع فى خمسة أفدنة من أجود الأرض وعندى من الأولاد رجلين اثنين غير البنات ! مع ذلك لم نعد قادرين على سد الرمق إلا بطلوع الروح !! ولقد ظللت سنين طويلة أتاخر بشرف فى الحبوب والأقطان فما أستطعت توفير ثمن البيت الذى بنيته على قناة القطان فرهنت

فيه فدانين !! فى حين أرى من كان بلا رسمال ولا شهادة ولا مواهب قد أصبح يركب سيارة يقتنى الثلاجة والغسالة الكهربائية والفيديو مع أنه لم يسافر إلى بلاد النفط !! عقلى ليس مقتنعا ببغلة العرش هذه ! ولم أقرأها فى كتاب ! ولم تكن لتخطر لى على بال ! لكننى مستعد لتصديقها ! فلو أنها صحيحة من حيث الإمكانية لكانت هى المبرر الوحيد لهذه الظاهرة المستفحلة ظاهرة الثراء الفاحش الذى يهبط على ناس بعينهم !! وعلى كل حال فليس بشئ بعيد على الله سبحانه وتعالى ! إن ليلة القدر بالطبع ليلة مباركة مافى ذلك شك ! لكن أبواب السماء مفتوحة فى كل وقت !! ومن يدري ؟ ربما كان الشيخ جمعه محقا فى كلامه لكن يبقى حينئذ أن تنتظر فى أمر الذين اغتنوا فى السنين الأخيرة بدون وجه حق كما تتصور : هل هم فعلا من الذين يستحقون هذه الهبة السماوية الكبيرة ؟ أه !! هذا مالا أستطيع أن أقرره ! فلا بد أن فى كل منهم صفة غالية يحبها الله ويكافأهم عليها !! بهذا الشكل يحق لنا أن نفرح لأن عدد الطبيبين المخلصين لله يكون كبيرا جداً !! ولكن رياه ! إن هذا سيضعنا فى إشكال أكبر ! إذ أين يتعبد هؤلاء الأثرياء ؟ ! إننا لا نرى أحداً منهم هنا إلا نادرا !! ولم نسمع عن أى مشاريع خيرية أقاموها أو تبرعوا لها !! ولكن من يدري ؟ لعلنا جميعا مخطئون والله وحده يعرف الحقيقة !! على كل حال يا عباد الله عليكم بالصبر والتقوى ! واعلموا أن الله يحاسب الإنسان على ضميره قبل كل

شئ ! فمن كان منكم قد عمل عملا طيبا فى حياته فالأمل فى أن يكافئه الله كبير وموصول ! وكل شئ فى هذه الدنيا بأوان ! فاقم الصلاة ..!!

«قامت الصلاة : وقامت البغلة فى حياتنا من يومها أصبحت حقيقة أصبح عدد الأغنياء فى ازدياد مستمر. أصبحت ليلة القدر عيدا تسهر البلدة كلها فى مسائه تنتظر قدوم بغلة العرش. تسهر البلدة حتى الصباح، ولا أحد يرى لها منظرا. فى الصباح يبرر الجميع عدم رؤيتهم للبغلة أثناء قدومها : فلا بد أن الساهرين فوق الأسطح نعست عيونهم ولو. لدقيقة واحدة. والمتربصون على مداخل الطرقات لابد قد انشغلوا فى أى شئ فتسريت البغلة دون أن يشعروا. ولماذا لا تكون جاءت من طريق سرى هى وحدها التى تعرفه ؟. فى عيد الفطر وعيد الضحية تبدأ بشائر الثراء على بعض من كانوا فقراء : ثياب جديدة ثمينة لم يعتدها أبناؤهم فى الأعياد السابقة : خرفان تذبج فى دور تعودت أن تتلقى الإحسان فى أعياد ماضية، ينتشر الخبر فجأة بأن فلان الفلانى - الذى هو أجير فقير - إشتري ثلاثة أفدنة؛ إبتنى عمارة، إفتتح مزرعة للدواجن، إشتري سيارة نقل بمقطورة ، ألحق أولاده بمدرسة أجنبية فى البندر تتكلف الشئ الفلانى..

«سنين طويلة وأنا أهزأ بهذه العملية من أساسها، وأستهيف الذين ينتظرون البغلة، أسهر مع الساهرين ليلة القدر لمجرد الفرجة والونس. أما اليوم فلا أعرف كيف جاءنى الإقتناع بأن

العملية جد فى جد . فى كل عام يتولى الناس تذكيرى بأن الليلة
هى ليلة القدر. اليوم تذكرتها وحدى؛ أشعر بأنى مستعد
للسهر، أننى يجب أن أنتظر؛ فهل يكون هذا فالأ طيبا ؟ لماذا لا ؟
أظن أنى أستحقها عن جدارة : لقد جنث على نفسى فربيت
إخوتى علمتهم حتى توظفوا ؛ ترفقت بأمى أويتها ورعيتها حتى
آخر لحظة فى عمرها فمأنت وهى تدعو لى ؛ لم أقفل مكروها
فى حياتى، لم أسرق ، لم أزن، لم أكذب، لم أفتن، لم أغش، راعيت
شعور جيرانى تسترت على فضائهم ، لم يقصدنى مزنوق إلا
حاولت فك زنفته بكل ماأستطيع. زد على ذلك أننى أرى أولادا
كثار على الحلال ؛ هدفى أن يكونوا صالحين لخدمة الله والوطن؛
فلا بد أن الله يعرف كل ذلك جيدا ويقدر موقفى ..

«مالسر فى أننى أتذكر كل هذا الآن ؟ اليس من الفال الحسن ؟

اليس ذلك هاتفا من الله سبحانه وتعالى لكى ينبهنى فأمتنع
عن الخروج من دارى الليلة حتى إذا جاءت البغلة. تجدى فى
انتظارها ؟ وهكذا أردت البقاء فى حوش الدار لكننى تذكرت
شيئا مهما : قلبت فى أوراقى فوجدتنى أستاها للنجاح عند الله
بنمر كبيرة؛ وهنا جامنى الهاتف يقول : طالما أنت سليم هكذا
فلن تجى لك البغلة أبدا ؛ لأنها عمرها ما جاءت إلا للساقطين فى
الإمتحانات . لكننى تحيرت وقلت لن أستطيع التفكير فى هذا
الأمر على رواقه إلا فوق هذه الطابية ؛ والحمد لله أن بدأ الحباب
يهلّون...

٢- زلزله

« جازاك الله يا شيخ جمعه - هذا ما جعلت أقوله لنفسى قبل
لحظات من مجيئى إلى هنا ضائقا كريانا - خلقت لنا أسطورة
لم يعد من الميسور مناهضتها. يالهيذا الرجل المخرف متى تكف
أذاك عن القوم ؟ الحق علينا إذ تركناك تصعد المنبر لتبث هذه
الجهالات فى أفتدة الأبرياء . شرع القانون عندنا لعقاب كل
جريمة إلا جريمة صعود المنبر بغير أحقية - مالنا نفرط فى هذا
الأمر الجوهري إلى هذا الحد ؟ إذا كان المتصافقون دور الوجوه
الكالحة المكشوفة لأحياء يعطلهم عن اقتحام المتابر فلا بد أن يكون
ثمة قوة توقفهم عند حدهم ولكن فيمن تكون هذه القوة ياترى ؟
فى أفراد الشعب ؟ فينا نحن المتعلمين ؟ فى الحكومة ؟ أما
الناس فقد عودناهم على احترام وتقديس كل من صعد إلى المنبر
ليخطب فيهم باسم الدين بكلمة الله ؛ فلم يعد من اللائق بل ولا
من العقل أن نعود فنوعز إليهم بتحقيق أى أحد مهما بلغت
جهالته، لأن هذا سيكون بمثابة سلوك مشروع يجرى تطبيقه

فيما بعد بشكل عشوائي يشمل من يستحق ومن لا يستحق فتكون الفوضى .. فالأوفر والحالة هذه أن نستفيد من هذه الميزة الشعبية للتأصلة، ميزة احترام صاحب الكلمة ؛ لأن هذه الميزة هي المعبر الوحيد إلى قلوبهم وعقولهم. وأما نحن المتعلمين أصحاب الأحقية في الصعود إلى المنبر فلا يحق لنا، بل لا يصح أصلاً، أن نطعن في كفاءة زميل اعتاد أن يتصدى لخطبة أجمعة كما اعتاد الناس أن يصدق ويأخذوا كلمته على أنها كلمة الحق والعين.

لو فعلنا هذا، فمادام نترك لهؤلاء الصبية الصغار الذين طلبوا علينا هذه الأيام بجماعات وإمارات يطعن بعضها في بعض ويحارب بعضها بعضاً دون هوادة؟! كأن عدونا الحقيقي قد بات ممثلاً مثلاً فينا نحن أنفسنا. إن هو إلا موقف صعب بالغ الحرج. وأما الحكومة فليس من المصلحة أن تتدخل في مسائل الوعظ والخطب المنبرية. إننا جميعاً نعاني منها الأمرين ، فكيف بأنفسنا ندعوها للتدخل أو للفصل فيما هو صحيح وما هو خاطئ من شئون الفكر والعقيدة ؟ هذه ليست شغلها ولن تكون أبداً. وإننى لأكون أول المدافعين عن الشيخ جمعة فيما لو تدخلت الحكومة وحاولت إبعاده أو الحيلولة بينه وبين المنبر لأى سبب من الأسباب؛ فواعظ جاهل في نظري خير من سجان؛ وخطيب ساذج أفضل في النهاية من جلاله. هذا مع يقينى من أن

الواعظ الجاهل والخطيب الساذج خطرهما يفوق أعظم الأخطار قاطبة لأنهما يخربان العقل. إلا أننى - وهذا رأى شخصى خاص بى أنا الشيخ عبد المقصود أبو غلاب - أعتقد أن السجان والجلاد كلاهما أداة لتدمير الكرامة الإنسانية وهذه فى نظرى جريمة لا تغتفر . والإنسان ذو العقل المخرب يكون هناك بصيص من أمل فى تعمير عقله ؛ أما الإنسان المدمر الكرامة فهو الشر بعينه ولا رجاء فى إصلاحه ..

«إن فمادام يكون الحل ياعبد المقصود يا ابن أبى غلاب ؟ الحل كما قلت وأقول دائماً يكمن فى الإرتفاع بمستوى الناس وتكبير عقولهم بحيث يصبحوا قادرين على صد الجهلاء واستبعاد الأدعياء بأنفسهم. إن دعياً من الأدعياء يكفيه انصراف الجمهور عنه مرة واحدة يكف بعدها عن صعود المنبر. العقبة الكأداة هي كيف يتم تكبير عقول الناس وتوعيتهم ؟ بحديث العصر الذى أقدمه ؟ إن ما أتعجب فى نشره فى دروس كثيرة يحطمه الشيخ جمعه فى خطبة واحدة. لقد عدت من تعليمى الأزهرى منذ سنوات فوجدته يعتلى المنبر منذ سنوات؛ فمنعنى الحياء من محاولة تنحيته والحلول مكانه، إكتفيت بدرس العصر. وحتى لو تنحى هو من تلقاء نفسه عن المنبر. ولو طبع من نفسى آلاف النسخ ووزعتها على جميع منابر المساجد فى أنحاء مصر؛ ولو تضافر شيوخى وأساتذتى الأفاضل وخولوا للتأثير إلى ساحات

درس؛ فإن المذيع والتلفاز يقضيان على كل بذرونا فى مهدها. هذا إذا افترضنا جدلاً أن جميع المتأبر قد تحررت من سيطرة الحكومة وأذئابها من لابسى العمائم وحاملى الشهادات والأوسمة والألقاب والنياشين !..

«قل الحق يا عبد المقصود وأمرك إلى الله. قل إنك متشائم من مستقبل المسلمين الذين يقتتلون الآن بسبب الثروة لا بأى سبب آخر مهما أعلنت الأسباب. العدو الأزلئ لم يرحمهم وهم كذلك لم يرحموا أنفسهم. كم نرفنا من دماء وأموال فى حرب العراق مع إيران ؟ كم تقطعت منا القلوب والأوصال فى حرب الخليج ؟ أصبحنا نضرب أنفسنا ونستغيت بالعدو الأجنبي ليحمينا من أنفسنا فيالها من نكسة وياله من عار..

«لم يعد خافيا سر هذا الإقتال. بات واضحاً أنه لن يتوقف بسبب الثروة. فلمن تكون الثروة هذا هو السؤال. جازاك الله يا شيخ جمعه؛ فرغما عنى أرانى أفكر على طريقتك فى هذه البلوى التى نغرق فيها جميعاً. إنها الموضوع الأساس والقضية الأولى والأخيرة قبل أن تقوم للمسلمين قائمة تعيدهم إلى سابق عزهم : لمن تكون هذه الثروة التى طفحت بها أرض البلاد ؟ اتكون للأغنياء حتى يزدادوا غنى ويزداد الفقراء فقراً وعددا ؟ تكون لمن يملك القوة ؟ أم لمن يملك الحق فيها ؟ أهو حق إلهى ؟ لو سألنا الشيخ جمعه رأيه لقال إن من يهيمنون على الثروة

جاءتهم بغلة العرش بل بغال عرش تحمل أخراجاً ملانة بالذهب الخالص وفوقها مالا يحصى عدده من رءوس القتلى تم دفنها تحت الأبار أو تحت الخيم أو فى حدائق القصور، فهم إذن يملكون الثروة بحق إلهى ؟ ولكن أتراهم يملكونها حقاً ؟ إن حرب الخليج قد أثبتت لى أنهم مجرد حراس عليها، وإن مالكةا الحقيقى هو من جاء على عجل لتدمير الفقراء المتذمرين المعترضين، ليكسر شوكتهم يقلّم أظافرهم يهد حيلهم يعلمهم درساً فى الأدب يردعهم إلى الأبد؛ فيا لنكبة الحراس قبلوا رءوس القتلى وآلت الأخراج إلى الجلاذ؛ فحينما يقتتل الإخوة يكون النصر للجلاذ، يكون هو الفائز الأعظم ..

ولكن ما بالى أهرف بكل هذا الآن فى هداة هذا الليل المخنث الشرموط ؟ أقول هداة ؟ من قال إنه هادئ ؟ ما الهدوء إلا قشرة سطحية تمور تحتها مراحل مضطربة بين الغضب والحدق والتوقع والإنتظار . الكل ساهر ينتظر قدوم بغلة العرش. الكل يتوهم أنه الأحق بها من غيره . كل واحد يمسك الآن بملف خدمته يستعرض أوراقه، حتى أنا لم أسلم من البهتان. وإنى لأسأل نفسى : ماذا لو ظهر أن البغلة حقيقة ؟ ماذا لو ظهرت البغلة بالفعل ورأها الناس متوجهة إلى دار الموعود ؟ هل يتركها الناس فى حالها ؟ ياإلهى إنه ليكون مشهداً فى غاية العظمة والخطورة.. فكم أن مشوق لرؤية مشهد كهذا ..

« ما هذا ؟ أأكون قد اقتنعت أنا الآخر بأن ثمة بغلة اسمها بغلة العرش تبعثها السماء بالفعل للموعود قائلة له هذا حلال زلال عليك ؟ إننى إذن لأشد بلاهة من هؤلاء القوم ؛ ولتذهب كتب الفقه والشريعة والقانون والعلوم التى أفنيت بصرى فى درسها إلى أم القرى تنعى من أقامها. فمالى إذن أسهر هذه الليلة على غير العادة وأعصابى مشدودة إلى عقارب الساعة وإلى الخلاء ؟ لماذا صغر عقلى فصعدت إلى السطح مثل الدهماء وبعثرت عينى فى كل مداخل البلدة قبل أن أجيء إلى هنا ؟ لا يحق لى إذن أن أسخر من زوجى وأولادى والذين يترصدون الطرقات الآن بعيون صقرية وعن يقين راسخ بأنها قادمة. تقول إنك صعدت إليهم لكى تحملهم على النزول ؛ فلماذا إذن لم تعنفهم ؟ بل لماذا جلست وسطهم ؟ يجب أن تعترف بأنك أنت أيضا قد صدقت الحكاية. عيني فى عينك أيها الشيخ المتعلم العاقل. إنك لم تصدقها فحسب، بل يداخلك الأمل فى أن تكون محظوظا. أنسييت أنك اليوم اندسجت فى مراجعة لبعض حساباتك وأوراقك فى سنيك الماضية ؟ لماذا رحمت تتساءل عن ذنوب ربما تكون قد افترفتها دون أن تدري ؟ لماذا اقشعر بدنك لحظتها وأخذت تدعو الله أن يغفرها لك ؟ يارجل العلم لقد اقشعر بدنك الآن ثانية وأنت تسخر من فكرة الشيخ جمعه؛ إعتبرت أن مجرد السخرية تعريض بقدرة الله على فعل المعجزات !!!..

« نعم ! نعم ! أنت معذور إذا أصابك اليقين بأن ثمة بغلة قادمة. فحينما يصبح الجميع على هذا اليقين الراسخ وهذه العقيدة الصلبة، لا يملك الفرد - أيا كان وضعه - إلا أن يكون على دين الجميع. إن العدوى لا بد أن تصيبه وتقضى على فرديته. ماذا أفادنى علمى الآن ؟ كيف أطمح فى أن أفيده المجتمع ؟ إذا كنت عجزت أن أفيده بنفسى وأسرته - هاأنذا قد تساويت بالدهماء ؛ الدهماء فرضوا على قانون الخرافة فامتثلت له دون أن أدري ، حتى لو دريت فماذا بوسعى أن أفعل ؟!..

« يبدو لى أنه لا مفر من الإعراف بأنى أنا الآخر أنتظر بغلة العرش . لقد دخلت الكهرياء البلدة، أصبحت الزواشب تضاء بالكهرياء؛ أصبح معظم الذين كانوا يطبخون على الكوانين بوقود الحطب وقش الأرز والجلّة يطبخون على البوتاجاز ؛ إنقرضت الأزيار من الدور، القلل القناوى العظيمة لم تعد تظهر فى الشبابيك لأن الثلاجات الكهربائية انتشرت فى القرية فلم يعد باعة الفخار يحوبون القرى؛ بل انقرضت الدور المبنية بالطوب اللبن ذى الكفاءة العالية فى ترطيب الجو؛ حلت محلها بيوت مبنية بالأسمنت المسلح يضاعف من قيظ الشمس ومن صقيع البرد. الأدهى من كل ذلك، ذلك المسمى بالفيديو لدرجة أن تنتشر فى البلدة محلات تسمى بالنواى تبيع الشرائط الحاملة لبذرة الخطيئة فأصبح متاحا للأولاد رؤية العرى والتهتك عيانا

بيانا. محلات أخرى للسفارات والأدوات المسماة بالصحية. فكيف أعيش أنا وأولادى محرومين من هذه النعم؟! ولكن كيف سمحت لنفسى أن أصير من أهل الدنيا فأفكر فى مثل هذه المتع المؤقتة الرخيصة؟! هل أقدر على منع نفسى من التفكير فيها؟ طب وأولادى؟ إذا نجحت أنا فى إتقان الزهد فماذا عن أولادى؟ رجلين وأربع عرائس، لا أستطيع أن أمنعهم من الحسرة وهم يرون أضرابهم وأندادهم يستمتعون بكل هذه الأجهزة التى تؤنس دورهم؟ يافرحتى أن بنيت لهم البيت بالدين والرهنية وأدخلت فيه الكهرباء والمياه المكررة شأن فقراء الناس فى البلدة. ظننت أنى قد أنهيت مهمتى واسترحت. كيف بحق الله نسيت أنى لابد أن أزوج هذين الرجلين فيتعين على أن أبتنى لكل منهما مطرعا يستقر فيه، وأن أدفع مهر عروسين، وأجهز عفاشا وأقيم حفل زفاف؟! كيف فاتنى أن عندى أربع عرائس يلزمهن أربع عرسان وكل واحدة يلزمها عون ووجع دماغ؟! غدا أو بعد غد يتقدم لهن أولاد الحلال فماذا يكون موقفى؟! عندك ياشيخ عبد المقصود قف، أنت أساسا بجب أن تفكر أولا وقبل كل شئ فى فك الرهنية؛ هل ستترك أرضك مرهونة إلى مالا نهاية؟ فكيف إذن يعيش هذان الرجلان اللذان لم يفلحا فى التعليم فاشتغلا فى الفلاحة؟ مابقى من الأرض لا يكفيننا لسد الرمق فى الحال فما الحال فى قابل الأيام والأسعار فى ارتفاع جنونى؟! لقد

اعتمدت على الله يوم رهننت الأرض، ومازلت أعتمد عليه فى فك الرهنية ولكن من أى مصدر يجئ مبلغ كبير كهذا الذى أفك به الرهنية؟ صحيح أن الإعتماد على الله واجب ولكن السماء لا تمطر ذهبا ولافضة. أعرف هذا جيدا وأقوله للناس فى كل درس. الآن تذكرت، لقد كان عشمى أن يسافر أحد الولدين أو كلاهما إلى العراق أو ليبيا أو الخليج مثلما فعل كل أبناء البلدة بغير استثناء؛ ولكن هاهو ذا النحس يتعقبنا؛ ماكاد الولدان يستعدان للسفر حتى قامت حرب الخليج من ناحية، واشتدت حاجة الأرض إليهما من ناحية أخرى بعد أن انعدم الأنفار الأجراء الذين كان من الممكن أن أعتمد عليهم فى زراعة المساحة المتبقية فى حوزتى من الأرض...

« يالله! إن قلبى ليقع الآن بين مفاصلى. لعنة الله على هذا الشيخ المضلل وبغلة العرش فقد أيقظتنى فجأة على كل هذه الهموم التى كانت مختبأة تحت عباءتى. الستر يارب. أنت سبحانه عالم بكل شئ. أما أنا فلست فى حاجة لتقديم مسوغاتى فهى واضحة جلية اللهم إنى لست طامعا فى بغلة أو فرس؛ لكنى أطلب - فحسب - أن تجنبني أى فضيحة؛ أن ترزقنى برزق هؤلاء الأولاد الذين رببتهم على الإخلاص لك ولدينك الحنيف. اللهم إنهم ليسوا كأبناء هذه الأيام، لا شوكة لهم ولا قدرة على الإنتهاز، ماخيبيهم فى مسائل الكسب

والتهليل، وما طيب قلوبهم وما أنقى سرائرهم فهل تراهم بعد
ذلك أهلاً للبهدة والبرهان ؟ لا أظن فأنت سبحانه أرحم
الراحمين ..

« أفقت فجأة على نفسى وأنا فى منحدر الطريق إلى الكفر
بالله دون أن أدري أنا الذى لم أجرؤ يوماً على مناقشة الله
الحساب. وجدت أن جلوسى وحدى فى الدار هو الخطر بعينه؛
فسحبت الصرمة لأضرب بها الشيطان على أم رأسه ؛ فما دريت
إلا وأنا أفسد قدمى فيها وأطفش من الدار، كالطفشان من نفسه .
خشيت أن يسكننى إبليس فقادتني قدماي إلى هذا .. »

٣- مَشْغَلَهُ

« .. وصرت أبرم سيجاره وأقول : أتصدق هذا الكلام يا عبد
السلام ؟ عيب عليك يا رجل. أنت رجل لاف وداير؛ قطعت
السمة وذيلها ؛ عقلك يزن بلداً بحالها ثم تصدق هذا الكلام
الفارغ ؟ بغلة ماذا يا رجل وعرش ماذا ؟! هذا سرخ فى سرخ
ويظهر أن الشيخ جمعه أكل ثلاثة أنلجر من الفتة كبست على
نافوخه فخطرف بهذا الكلام. وأنت لا يصح أن تأكل من هذا
الكلام . إياك أن تقع فى الفخ وتظهر فى طرقات البلدة أو السكك
المعروفة. لا تنسى أنك قاطع طريق مشهور، ومطلوب ضبطك
وإحضارك منذ مايزيد على عشرين سنة ولم تستطع الحكومة
أن تعرف لك طريق جره ، كما أن واحداً من أهل البلدة لا يجزئ
على أن يبلغ عنك؛ فالناس فى بلدنا لا يمكن أن تخدم الحكومة
أبداً؛ إلا إذا كان لهم عدو يريدون التخلص منه وأنت لم تصل بعد
إلى أن تكون هذا العدو ؛ بالعكس فأنت تخدم أهل بلدتك تنتقم
لهم من صياح البلدان الأخرى ولا يستطيع أى صايح أن يهوّب

نحو البلدة خوفا منك ..

« معنى الكلام أنك تستطيع أن تتدحرج نحو البلدة الآن لترى. فانت في كل عام تخاف وتختبئ لظنك أن الحكومة تنتهز الفرصة وتحفر للبحث عنك. فماذا لو فعلتها هذا العام؟ افعلها يارجل. إتكل على الله وأفعلها فإنها لابد أن تكون فرجة مابعدھا فرجة. ففي كل عام تقول لنفسك هذا الكلام فتضيع عليك الفرجة؛ والشائعة تزداد يقيناً عاماً بعد عام كأن الجميع قد رأوها رأى العين مع أنهم لم يروها إلا في صورة أراض تشتري وعمائر ترتفع ومحلات تنتعش . وكلما ازداد الغنى بغير سبب إزداد اقتناع الناس بفكرة البغلة. الكل ينتظرھا. عشم إبليس في الجنة. الدجاجة تحلم بأنها في جرن ملئ بالغلal. قيل للأعمى : إيش تتمنى ؟ قال : قفة عيون. قاطع طريق أنا كما يصفوننى ؟ والله إننى لطفل يلعب أمام اللصوص الذين انتشروا بيننا هذه الأيام يمصون دمنّا يقطعون رقابنا. إنزل يارجل وشف حكاية البغلة هذه فربما يصادفك خير فى الطريق؛ وهأنا ذا أصادف وجوه الناس الحلوة على هذه الطابية ؛ هم وهى عندى أحسن من كل البغال حتى ولو كانت تحمل أخراجا من الذهب..

« الأمر وما فيه يارجال أن الشيخ جمعه يدافع عن أهله. هو عدم المؤاخذه يعرف أكثر من غيره أن أولاد أخته الأربعة من أكبر أغنياء البلد، وغناهم من النوع الكافر : أكبرهم مريس-، يتاجر

فى الحشيش والأفيون والبودرة والبرشام والبانجو لكنه لا يحمل شيئا، فكل مايفعله أن يبيع ويشترى فى الهواء، وناس آخرون يقبضون ويسلمون . أما أخوه مرسال فإنه يتاجر فى شرائط الفيديو الممنوعة، وكلفة البضائع المهربة، منذ عشرين عاما، وأنتم تعرفون سرايته التى هى أنقح من سراية أخيه مريس. أما الأخ الثالث ششتاوي فعينى عليه باردة؛ يملك ست عربات نقل تريلات اقتناها بالرشوة والكوسة والفهلوة؛ حكايته تنكتب فى جرايد : كان طباحا عند مدير جمارك الإسكندرية؛ مدير الجمارك هذا حرامى عتل ، نادى عليه ذات يوم وقال له ياششتاوى تعال غدا وادخل فى المزاد الذى سينعقد فى الجمرک؛ فذهب ، ففهم أن المزاد مقام لبيع السيارات المحجوزة منذ شهور طويلة وعجز أصحابها عن تسديد جماركها أو تخليص أوراقها أو ماشابه ذلك من حفر ونقر يبتدعها الموظفون أصحاب الحل والربط للإيقاع بعباد الله لمص دمهم؛ الولد ذكى، فهم حقيقة الملعوب فدخل مشترى لسيارتين من التريلات؛ المدير هو الذى دفع، لكن الولد جاء إلى البلد وباع نصف فدان هو كل نصيبه فى الميراث، وخلص مع المدير وأخذ السيارتين؛ كانتا قديمقين فى الأوراق لكنهما جديدتان على الزيرو كما يقول السواقون ؛ أطلقهما على الطرقات ؛ النقلة بالشئ الفلانى؛ العجل قواد يس تصب الفلوس بغير توقف؛ شهر والثانى جمع الولد ثمنهما

واكثر ، طغى وتجبر؛ مخه الشيطانى دبر له خطة ونفذها فى سيارة منهما كانت أنهكت وعمرتها حراقه، فركبها ذات ليل ودخل بها فى صخرة من صخور جبل المقطم فعجنها ثم تركها وانصرف إذ إنه قد أمن عليها ؛ وبواسطة محامية طويلة اليد تعمل فى شركة التأمين كسب القضية بالولس طبعا واشترت له الشركة واحدة مثلها جديدة؛ وبواسطة نفس المحامية اشترى القديمة كخرده، فأصلحها؛ فى ظرف عام واحد أصبح يملك أسطولاً للنقل الثقيل. الدور الباقى على أصغرهم باهى، إنه لعنة من لعنات الزمن وآفة من آفاته؛ شغلته صنع الطوب وتحميره وبيعه بالآلاف لأهل البلاد الذين ركبتهم عفاريت الرغبة فى البناء برا البلد فوق الأرض الزراعية؛ كل من سافر إلى العراق وعاد أول شئ يطلع فى دماغه بناء دار جديدة برا البلد، فلوس صدام حسين شوهدت بلدتنا، إرتفعت جدراننا وأسقفنا من الأسمنت؛ الولد باهى أذكى من جميع إخوته ؛ يركب دماغ العائد خاصة إذا كان يملك قطعة أرض زراعية، يقنعه أن العيش فى داخل البلد لم يعد يليق بمثله ، وأنه يجب أن يطلع على وش الدنيا، يقدم له قصراً مرسوماً على الورق ببلكونات وترسينات - عقدة أهل بلدتنا كلهم - يشتري منه طين قطعة الأرض بمبلغ معقول ؛ يذهب رجاله فيخرطوا من قلبها مترين أو ثلاثة من الطين يحولوها إلى بركة لا تصلح للزراعة ؛ لا بأس طالما أن صاحبها

سببنى فوقها؛ المصيبة أنه عمل عملته السوداء هذه فى أرض لا ينوى أصحابها البناء لكنهم أرادوا فك عذرهم بمبلغ فانهذ جبل الأرض وباضت؛ الولد الملعون لديه خبرة بأمور البناء والبنائين؛ وأنت مدرس أو موظف لا خبرة لك بشئ عدم المؤاخذة؛ هو يريحك من كل شئ سببنى لك هذه الدار مقابل مبلغ كذا؛ يسلمها لك على النجارة فحسب؛ وإلى أن يسلمها لك يكون قد سحب منك أضعاف مااتفق عليه، فالأسعار فى ازدياد كل يوم؛ يسلمك الدار بعد طلوع الروح لتقوم أنت بصرف دم قلبك على الغفق والبياض والترميم؛ هو مع ذلك لا يتركك فى حالك مكثفيا بما سرق ونهب، لكنه يعرف متى يظهر ومتى يختفى ؛ يظهر فى عز مآنت مزنوق تحاول تخليص نفسك من ورطة استكمال البناء الجديد؛ يحدثك عن هذه الدار القديمة وقلة جدواها، وأنها يمكن أن تنقذك من هذه الورطة بدلاً من مد اليد للذى يسوى والذى لا يسوى ؛ هو فى النهاية لابد أن يشتري دارك القديمة أنقاضا وبتراب الفلوس؛ يطلع منها بأخشاب تعتبر ثروة ؛ أبواب وشبابيك وعروق وقضبان يبييعها وحدها بمبلغ كبير، غير الطوب الذى يجمعه ليعجنه من جديد ويحرقه؛ هو الآن لا يستعنى - عدم المؤاخذة - أكبر شخصية فى البلد، مع أنه لم يدخل مدرسة ولم يحمل شهادة ..

كلنا نعرف هذا، وأخيراً يجئ خالهم الضلالى ويقول إنهم

وأمثالهم من اللصوص جاءتهم بغلة العرش بأخراج الذهب مبعوثة من الله، ياسلام !! المصيبة السوداء أن الناس يصدقونه مع أنهم يشاهدون ويعرفون البير وغطاه . أه يابلد تولد البغلة !!

«ولكن ماذا تقول يا عبد السلام إن رأيت البغلة قادمة بالفعل متوجهة إلى دار من دور البلدة ؟ جسمى يقشعر ، قلبى يرقى كأننى أراها. هذه والله تكون أكبر نكته فى الدنيا، ولو صحت تكون حياتنا كلها غلط فى غلط. أستغفر الله ، هى بالفعل غلط فى غلط ولا يفهم هذا سوى العيال المخلصين الصياع فيفوزون بكل شئ . أعطونى رجلا طيبا واحدا فاز بأى شئ فى هذه الدنيا الدنية...»

«إن كانوا يسموننى قاطع طريق فالحاج على داود قاطع رقاب . هذا مايعرفه كل فرد فى البلد. الحاج على داود ؟ ياخلق الله !! اللهم لا اعتراض . سبحانك وتعالى نهيت عن الربا، والحاج على داود يعطى بالفايض، يسلف المحتاج بكمبيالات يحجز على المحاصيل يأخذ بثمن الأرب الواحد ثلاث أرباب. مخازنه ليس لها حدود : المحاصيل المخزونة لا تظهر إلا وقت الشدة لتباع بأضعاف أضعاف ثمنها وبتقبيل اليد. اليوم ظهرت له حيل جديدة؛ هذا الملعون المرضى عنه من السماء ضحك ويضحك دائما على عقول الناس؛ فالناس فى بلدتنا

العجيبة هذه على استعداد للإنضحاك على ذقونهم من الأغنياء؛ فكلما كنت غنيا - وإن تكن لصا - يثق فىك الناس ويصدقون كل ماتقول حتى وأنت تنصب عليهم ؛ فى يقينهم وهم أزلى بأن النصب والإحتيال صفة الفقراء المعدمين وحدهم أما الغنى فليس محتاجا للنصب والإحتيال ..

«من أول مابدأت الفلوس الكبيرة تجرى فى يد بعض الناس كان هو قد دبر لسرقتها - من أيام حرب اليمن، لما أولاد الفلاحين المجندين فى الجيش سافروا مع الجيش إلى اليمن بماهيات كبيرة جداً جعلت الأموال تهطل على البلد. بعد ذلك جاءت هوجة السفر إلى ليبيا والخليج والعراق.. تعال ياولد يا فلان - هكذا يتدحلب الحاج بلحيته الشقراء المدببة المخططة بالأبيض الجبرى ، وبصوته الناعم - يأخذ الولد المسكين على جنب فى ركن من المسجد أو على المصطبة المواجهة لدكان السمندر : الدنيا لا أمان لها ياولدى ، والفلوس عصفير مأن توضع على الكف حتى تطير خاصة إذا وضعت على كف محتاج لم يرها من مدة طويلة ؛ القرش الأبيض ياولدى ينفع فى اليوم الأسود والقرش فى اليد لا بد أن تظهر له كلاب الحاجة فتنهشه، القرش إن وجد يخترع لنفسه خرما يضيع فيه؛ فبدلا من ترك القرش يمشى على مزاجه فيذهب إلى غير عودة ؛ نمشيه نحن على مزاجنا فإن ذهب يعود بخلفة ذرية كثيرة تنفعنا؛ وأضمن

خزنة تضع فيها قرشك وأنت مطمئن البال هي خزنة التجارة؛ فإن كنت غشيميا فيها فهناك من هو أئور منك وأحرف؛ إعط العيش لخبازه ولو أكل نصفه؛ شف لك تاجراً أميناً يتقى الله وأعطه القرشين يضعهما في عشه فيبيعان ، بشرط أن تتخير تاجراً شاطرًا وغنيا وعينه ملآته حتى لا يطمع فيك؛ هذه نصيحة غالية لا تسمعها إلا ممن كنت عزيزا عليه؛ إن كنت تشعر أنى محل ثقتك فإنى على استعداد لخدمتك بشرط أن يصبح هذا سرا بيننا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان ؛ واللقمة التى تفتش لا تؤكل ؛ والمكسب يحب السر؛ والرزق ينفر من الفضيحة والفشخرة الكذابة؛ أنا أعطيك فى السنة نسبة قدرها كذا ؛ لك أن تصرفها كل حول أو تتركها مضافة إلى الرسمال الأصلى فيزيد المكسب بزيادة الرسمال ؛ هذا نظام ؛ فإن لم يعجبك فعندى نظام ثانى ؛ أشركك فى بقرة فى جاموسة فى أغنام فى جنائى فاكهة ؛ يكون معروفا أن لك النصف، مكسب النصف تصرفه أولاً بأول أو تتركه لتشارك به فى شئ أكبر..

«مجرد قول هذا الكلام من الحاج على داوود فيه سحر للمستمع، خاصة إذا كان من الفقراء الأصلاء الذين لم يمسكوا فى حياتهم ورقة خضراء فتعودوا على الفلس؛ إنه يصير فى غاية الإستمتاع وهو يستمع إلى هذه النصيحة التى تضعها فجأة فى

موقع الرجال للمهمين نوى الأموال لدرجة أن الحاج على يحدث نداءً لند؛ يالها من لذة ؛ إن الفلوس الكبيرة إذا نزلت فجأة على الفقير المعدم فإنه لا يصرفها بسرعة نظراً لاحتياجاته المزممة كما يتوهم المغفلون ؛ الواقع أنه ربما لا يصرفها ، وربما دفنها ليستمتع بوجودها ، ولا يقدر على انتزاعها منه إلا ثعلب كالحاج على ...

« رزق الهبل على المجانين بإخواتنا والمثل لا يكذب، فطالما أن هناك مجانين تصرف تبغدد تعيش حياتها بالطول وبالعرض فلا بد أن يكون هناك هبل حرموا أنفسهم من أرزاقهم لينتبه إليها المجانين الأذكياء فيستولون عليها بصنعة لطافة. الحاج داوود هو أعقل هؤلاء المجانين ؛ يستولى ولا يصرف ، داؤه جمع الفلوس بأى شكل ، زاهد مع ذلك لا يحب المظهر ؛ يستطيع أن يركب الطائرة والصاروخ فى تنقلاته الخاصة؛ لكنه نبذ كل أنواع المواتير واعتبرها رجسا من عمل الشيطان؛ إشتري لنفسه بغلة عفية ، يركبها فى جميع مشاويره وتنقلاته ، فوقها سرج منجد نصف تنجيد ؛ فى إحدى يديه لجام وفى الأخرى شمسية تتحول إلى عصا فى معظم الأحيان؛ فيبدو لمن يشوفه من بعيد كأنه عطار سريح ينتقل بين الأسواق . الأكادة أنه الوحيد الذى يحرص الجميع على حياته ؛ لأن مصارينهم فى بطنه من جهة ، ولأنه لحلاب ناعم من جهة ثانية؛ وكل الناس يحبونه حتى الذين

يشتمونه فى غيابهم هم أول من يمدحه فى حضوره. ولو تجرأ أى مخلوق ورفع صوته عليه بالزعيق يطلع فيه ألف كلب ينهشونه . كما إن له قبيلة من العيال؛ قسما بالله لا يعرف أسماءهم إلا إذا اكتشف دم أمه على وجهه وهنا يسهل عليه مئادته بقوله إزيك ياواد يالبن فلانة ؟ ولو قلت لواحد من الناس إن الحاج نمته واسعة ، يهب فى وجهك مائة واحد : ياراجل حرام عليك ! إنه يستخسر فى نفسه كوب الشاى والسيجاره ! فلوسك فى الحفظ والصون لا تخف !!! فما يغيظ فعلا أن كل واحد يتوقع أن كل واحد له فلوس عند الحاج ؛ حتى كدت أقتنع أننى الآخر لى فلوس عند الحاج المديوب هو الآخر يتقنها بالورع والتقوى. أمينتى الآن أن أعرف : مالذئ سيفعله بكل هذه الأموال ؟ هل سيبنى بها دولة جديدة ؟..

« الحاج على داوود ؟! إستعنت عليه بالله .. ولكن على مهلك يا عبد السلام . شف كيف دحرجك إبليس حتى صرت فى مدخل البلدة علنا دون أن تخاف ؟.. طب.. تصدقوا بالله ؟ والله ومالكم علي يمين، إننى أشعر أن البغلة ستجئ لى ، باعتبارى قاطع طريق ابن ليل. وإذا لم تجئ لى هذا العام، فمن عاش يرانى أشد وساخة من كل الذين جاءتهم ..»

٢- خَلْجَه

«... والله إننى ليمنعنى الحياء من قوله إننى أستحقها . لست من البجاجة والصفافة حتى أستدرك على الله سبحانه ؛ فسبحانه يعرف إن كنت أستحقها أم لا ...

«صحيح أننى أشعر بينى وبين نفسى أننى استأهلها عن جدارة واستحقاق، وبمسوغات كثيرة. لكن الله له تصرف آخر، ورأى آخر؛ فلربما كنت فى نظره أستحقها ولكن الأوان لم يثن بعد. إننا فى وزارة التربية والتعليم ننتظر حقوقنا فى الترقية سنوات وسنوات، ومع ذلك لا نشكو؛ أو بمعنى أصح لا نلحف فى الشكوى مع أننا نشكو العبد للعبد؛ فمن باب أولى يتعين على العبد منا أن ينتظر دوره فى الترقية الإلهية بكل أريحية وسرور، فلا نستعجل ؛ لأن فى استعجالنا سوء أدب على الله سبحانه وتعالى ، فهو يعرف متى يبعث الفرج ومتى يسحب تبعاً لتصاريفه التى لا تفهمها نحن العبيد ..

«ثم علينا أن نتذكر شيئا ربما غاب عن فطنة هؤلاء المجانين

من أهل بلدتنا : هل البغلة قاصرة على بلدتنا فقط ؟ أم أنها مجهولة لكل الموعودين فى كل البلاد ؟ وهل هى بغلة واحدة ؟ أم أن لكل بلدة بغلة خاصة بها ؟ فى ظنى - وبعض الظن إثم - أنها أكثر من بغلة ؛ تتوجه جميعا فى ليلة واحدة فى اتجاهات متعددة، لأنها لو كانت بغلة واحدة لما جاءت بلدتنا إلا كل قرن من الزمان ؛ وهذا ما ينقضه الواقع، فالواضح أنها فى كل عام تجئ لواحد من أهل هذه البلدة ؛ وإلا فمن أين يثرى كل هؤلاء الذى كانوا كجبانين لا يملكون اللضى ؟ ما بين فقرهم المدقع وراثتهم الفاحش غمضة عين، لا تتسع لتجارة تقيم الأود به أن تجمع ثروة. فهى إذن - ولابد أن تكون كذلك إذ لا تفسير لها غير ذلك - ثروة هابطة عليهم من السماء وليست تابعة من الأرض ..

« سأفكر معك .. سأفترض أنهم لصوص سرقوا هذه الثروات فمن أى تبع ياترى يسرق كل هؤلاء كل هذه الثروات ؟! حتى لو اقتنعنا بأنهم سرقوها ؛ فإن السرقة نفسها لابد أن تكون قد تمت على مدى زمن طويل. وإلا فمن غير المقبول منطقيا أن هناك تبع لا ينضب يسمح للسارق أن يغترف منه بسهولة وبساطة ما يشاء فى أى وقت يشاء بالقدر الذى يشاء. لابد من مغارة كمغارة على بابا الشهيرة فى برنامج الراديو الذى لا يكف عن إناعتها باستمرار كأنها القرآن الكريم. ولابد أن هذه

المغارة قد اكتشفها الوف الكحيانيين من أمثال على بابا، الذى بات - بعد الضنى - لا بسا حريرا فى حرير. والكنز طالما قد أصبح معروفا لكل هذا العدد من المحظوظين ؛ فإنه لابد أن ينكشف أمره لعامة الناس؛ ولو كان هذا صحيحا لكان زمانهم اكتشفوه من وقت مبكر...

« قناعتى أن للسماء دخل بالفعل فى إثراء هؤلاء الناس، لأنه لفحشه ثراء لا يتحقق إلا بتأييد إلهى، تحميه السماء وتحفظه من الضياع تنفخ فى صورته باستمرار، تحوطه برصد سحرى يمنع عنه عيون مصلحة الضرائب ومنافذ الخسران؛ وتلك لعمري معضلة لا يملك غير الله تفسيرها؛ إذ كيف لا يدفع الضرائب فى بلدنا سوى الفقراء والمعوزون ؟! إن أراد واحد منا تدخين سيجاره دفع ثلاثة أضعاف ثمنها للضرائب؛ وإن جاع لقطة لحم دفع عقابا شديدا للضرائب ، حتى لو اشتاق من نفسه لدخول السينما فى البندر دفع فوق التذكرة غرامة باهظة للضرائب؛ الضرائب تلاحق الواحد منا حتى فى فراشه؛ والذى غطى ووطى هو ما استجد علينا ولم نكن نسمع به من قبل واسمه ضريبة المبيعات؛ يعنى أنت تدفع ثمن الشئ الواحد عشرين مرة ؛ فإن حصلت عليه وجدته تالفا مغشوشا ؛ فى حين يتمتع هؤلاء الأثرياء بكل شئ بالمجان بل ويأخذوا أجرا على استمتاعهم...

«ليست هذه - بالعقل يعنى - مشيئة إلهية ؟ وإلا فهل يعقل - بمنطقنا الدنيوى القاصر- أن رجلاً مثلى أنفق عليه أهله دم فلوبهم ليتعلم فى المدارس حتى أصبح معلماً له ملف فى الدولة مكتوب عليه بالخط الكبير : راضى افندى العسلى ؛ ثم ناظر مدرسة ابتدائية تتخرج على يديه الأجيال ؛ ثم يصبح بكل علمه مجرد برطوشة فى قدم زبال لا يفك الخط ولا ينفع المجتمع بأى شئ ؟ ..»

«نعم ! فإذا كان الزبال يدفع مرتب راضى افندى العسلى كله فى غدوة ، ويأتينى ليلحق ابنه البليد القذر بالمدرسة فيشتري التخت والمدرسين ويأخذ ابنه فرصة ولد نجيب لبيب ابن ناس طبيين محترمين أهل علم طول حياتهم .. إذا كان الزبال هذا وضعه فلست أنا ومفتشى ووزيرى نفسه إلا برطوشة قديمة فى قدميه ..»

«ولكن منذ متى كانت بلدتنا تعرف نظام الزبال ؟ طول عمرنا نرمى بالقمامة على الأكوام وفى الغيطان فكانت تخصب الأرض؛ لكننا أردنا أن نقلد أولاد البنادر ؛ أول ماشطحننا نطحننا ؛ جاءت المدنية على دماغنا ؛ فبدلاً من أن يشكرنا الزبال على القمامة التى سنعطىها له ليستخرج منها أشياء يبيعها بالذهب ؛ أصبحنا مطالبين بأن ندفع له فوق القمامة أجراً شهرياً ثابتاً يحق له أن يزيده حسب مزاجه وقتما يشاء . لو كنت أعلم أن الزمان

سينقلب على دماغنا هكذا بمجئ وجه الشؤم أنور السادات لامتنعت عن شقاء الدراسة واشتغلت زبالاً ، ولأصبحت الآن مليونيراً مثله ..»

«دعك من الزبال فهو ليس أسوأ من غيره. المصيبة أننا انفسنا قد صرنا قمامة ؛ وغدا ناكلنا ديدان الأرض ممتعضة من طعم لحمنا المزز الفج. مصيبة بلادنا الآن جاءت من تسهيل العلم؛ بغير نظام، وبغير حدود، وبغير فلسفة معينة تحكمه. لست طبعاً ضد انتشار التعليم وأنا معلم كنت فى الأصل ابن صياد يصطاد السمك بشبكة يحملها مع العليوة على كتفه ليجول بها بين شطآن المصارف والأبحر البعيدة؛ ليؤوب فى هدأة الأصيل قبل مجئ الشفق؛ فتخرج أمى بعد قليل حاملة على رأسها بعض أطباق غطيان حلل ومصاف وزعت عليها الأسماك بحسب أحجامها وأنواعها وقد غطيت جميعها بأوراق الخروع الخضراء. ماعليها - أمى - سوى أن تسير فى شارع داير الناحية ؛ فلسوف يصادفها من يستوقفها ليتفرج على هذه الشروات الطازجة . من شروة قراميط إلى شروة بلطى إلى شروة شرّ صغير تقفل أمى عائدة بثلاثين أربعين قرشاً، ندخر منها ثمن الطحين وثمر الكسوة وثمر الأسبرين وثمر مصروفاتى المدرسية.. فلا يعقل إذن أن أكون ضد انتشار التعليم، إنما أنا ضد عدم تنظيمه وعدم تخصيصه. الحاصل أننا

فتحتنا أبواب الجامعات والمعاهد العليا على مصاريعها، حولناها إلى مدارس كمدارس القرى تدلق كل عام الوف الخريجين باسم الحقوق والطب والهندسة والآداب والعلوم والزراعة ؛ والمجتمع أسمى مع ذلك ليس فيه مؤسسات تستوعب كل هؤلاء ؛ فضلا عن أنهم أكثر أمية من الذين لم يدخلوا الجامعة. حولنا الشباب إلى طلاب ؛ حرمتنا هم من الأعمال الميدانية والحرفية تحت أرض من العلم الملائم . لدينا الملايين من حملة الشهادات والألقاب والأوسمة لا تأثير لهم ولا وجود إلا فى حدود وظيفية صرفة. فكيف نستغرب حين نظل طول عمرنا - نحن الذين تعلمنا- مجرد كائنات هامشية من الدرجة السفلى؛ أما الريال وأمثاله من السباكين والعربية والبلطجية وتجار المخدرات والسوقه والسمايرة فهم الذين يقوبون المجتمع كيفما يشاءون ؛ لأنهم قوام الحياة الفعلية كما أنهم نتاجها ووقودها ومحركها. أما نحن وأمثالنا ، فلنا أن نشتغل بالسياسة فنقيم الأحزاب لتتطاحن بعضها البعض مختلفة أعداء وهميين إذ إنها لا تجرؤ على معاداة الحكومة وفى نفس الوقت لا تحب فقدان المركز والمظهر والمأوى. لنا أن نكتب فى صحف وفى كتب ونؤلف ونغنى ونمثل ونفعل كل مايحلو لنا ؛ ولكن أن يكون لنا أسنى تأثير فى تغيير المجتمع أو عدل موازينه فلا .. إبقى قابلى ..

«تعرف ماالسر فى انحطاط الرجال الآن ياراضى افندى ؟

هكذا أسأل نفسى دائما وأجيب : السر فى منتهى الوضوح يارجل : إنفتاح الجامعات بالمجان جلب كافة أبناء الدرك المنحط من المجتمع فأعطاهم شهادات عليا أعطتهم جوازات المرور إلى مراكز كان يشغلها من قبل أمثال طه حسين وعلى عبد الرازق وسعد زغلول وعرابى ومكرم عبيد وطلعت حرب وغيرهم من الرجالات الأفذاذ. المركز لا يعطى لشاغله الكرامة يافندى ؛ إنما شاغله هو الذى يضى على المركز مركزه كرامته احترامه لنفسه. مافائدة أن تكون فى مركز لا يصح أن يشغله إلا المحترمون وأنت عدم المؤاخذه أصلا غير محترم لا تعرف معنى الكرامة لم تجرب طعمها يوما واحدا لم تذق حلاوة العزة حلاوة الحرية المرتبطة بالرجولة بالثبات على المبدأ ...»

«إنهارت كل المراكز ياناس، منذ شغلها المنهارون أولئك الملعب فى أساسهم . فرطوا فى كل شئ دونما شعور بالخرج بله الشعور بالمسئولية . لا بأس - ولا جناح فى نفس الوقت - أن يرتشى القاصى ليسكن فى شقة يركب سيارة توصله إلى شغله كأي زبال. فلأول مرة فى تاريخ مصر ياجدعان، وربما فى تاريخ العالم، يعجز المرتب الشهرى عن توصيل المواطن إلى مقر عمله. قديما كنا نسخر من ضعف الأجور بقولنا إن الواحد منا يعمل بأكله فحسب؛ اليوم حق علينا القول إن الواحد منا يعمل بأقل من أجره مواسلاته إلى مقر العمل !!!

«ياناس ، من ذا الذى يحاكم المفسدين فى الأرض غير الأكثر فسادا وإفسادا ؟ اللص الكبير هو الذى يحاكم اللص الصغير وأحيانا العكس ؛ فما أسهل أن يكون زيتنا فى دقيقتنا . كم عدد الذين نهبوا الملايين وهربوها ثم هربوا أنفسهم وراءها إلى الخارج ؟ إنهم بعدد أوراق الصحف منذ قيام حكومة الإنفتاح إلى اليوم ؛ منذ رحيل الذى كان يضى على المركز احترامه ، وقيام الذى يستمد من المركز احترامه . منذ ذلك التاريخ ، لا للصوص والمختلسون كفوا عن السرقة والإختلاس ، ولا المسروقون تذرهم !! أصبح الفساد باباً ثابتاً فى الصحف ، أصبحت أخباره ضمن أخبار المجتمع ؛ فخير اختلاس فرد لمؤسسة كاملة أو لوطن بأكمله يتساوى مع خبر فوزه فى انتخابات النادى الأهلى أو مجلس الشعب كلاهما مجرد خبر؛ وانكشاف المستور عن السارق لا يعطله عن السرقة، ولا يغلُق فى وجهه أبواب المناصب بل ربما يرقيه إلى منصب أعلى !!»

«كيف بحق الله أرى كل هذا وأدركه ثم أحاول فرض الضبط والربط على المدرسين الغلابة الذين يعملون تحت نظارتى ؟! بأى عين أقول للمدرس لا تعطى دروسا خصوصية ، لا تمارس نظام المجموعات ، لا تقبل أى تبرعات . منذ وقت طويل كنت أؤنب نفسى دائما لأنى لا أفعل هذا ، وياكلنى ضميرى على تسامحى فى مصلحة التلاميذ النجباء الغلابة ينصرف عنهم اهتمام

المدرسين إلى أبناء الأثرياء رغم بلادتهم. هل ترانى الآن أستحق أن أضرب نفسى بالحذاء لعلمى أن هناك مدرسون يمارسون الفحشاء مع تلميذاتهم الصغيرات فى دورات مياه المدرسة ، ومع أمهاتهن فى البيوت أثناء الدروس الخصوصية ؟ وأن هناك تلاميذ أطفال من أبناء تجار المخدرات والزبالين يشربون السجائر الملقوفة على الحشيش والبانجو ، ثم يلطون بزملائهم من الضعفاء المحتاجين ؟ وأننى قد كتبت التقارير وشكوت وفصلت حتى انقلب الميزان ضدى وكاد الأشرار ينجحون فى إقصائى. إن البنت المفعوصة التى صرخت تستنجدنى لإنقاذها من هجمة الغول فوقها قالت فى محضر التحقيق إن هذا لم يحدث !!

أليست هذه من علامات الساعة ؟! ولولا أن الفراشين وبعض التلاميذ سمعوها وشهدوا بصدق الواقعة لكنت الآن فى حيص بيص..

«المصيبة أن السكوت السلبي فى مثل هذه المواقف يشجع الفاسدين على التصافق عليك ومحاولة إغوائك ليطول الدنس ثياب الجميع فلا أحد أحسن من أحد. الحمد لله أنى لا أزال قادرا على شكهم وردهم خائبين بفضل قوة إيمانى وصدق ونقاء سريرتى وحسن تربيتى . إنى لم أعد أنتظر المكافأة إلا من الله إنه عليم خبير ...

«كثيرا ماراودتنى نفسى فى أمر السفر إلى بلاد النفط، فلى

دور رسمى مثل زملائى فى الإعارات . لكن المناظر التى أراها فى غيبة الرجال تمنعنى تلقى فى قلبى الرعب : نساء يتلقين عرق أزواجهن المغترين لكى ينفقنه على عشاقهن فى وضح النهار.. أطفال يتشربون بغياب الرادع.. صبيان تفسدهم كثرة الفلوس فى أيديهم بعد حرمان .. شبان يعودون من السفر شيوخا تغضنت وجوههم وهزلت قواهم ولم يفوزوا بأكثر من مطرح للسكنى . فهل كنت أتبل ترك أولادى وهم فى سن حرجة من أجل أن أعود لهم بحفنة من الدنانير ؟ إن أى مال مهما عظم حجمه لا يعرض الإبن فقدان الأب شهرا واحدا ، ولا يداوى جراح امرأة محروقة ، ولا يبث الحياة فى فتاة أنفقت زهرة شبابها فى انتظار مسكن تبدأ فيه العد التنازلى لشبابها. وعلام السفر وقد توفرت فى البلاد فرص الكسب بغير حدود ؟.. صحيح أن الكسب الكبير داخل البلاد ربما جاء من طرق غير سليمة غير مشروعة فإن الكثيرين من الناس قد أصبحوا يؤمنون بحقيقة أنك إذا عشت فى مجتمع لا يعرف الله فلا يكون هناك تهمة بالكفر. وسواء جاء المال بالغبية أو بالذهب فإن النتيجة واحدة : فى كليهما يخسر الإنسان نفسه وأهله وبلده ، يتحول إلى شخص آخر..

«شوفوا يا جماعة : ليس أشنع ولا أخطر على الإنسان من الثروة المفاجئة التى لم يثاقلها فى الكفة المقابلة جهد وصدق

وعرق وتقوى..

« شوفوا : هى كلمة : لا توجد فى الدنيا كلها ثروة بريئة . الثروة المنزهة عن الإثم لم توجد بعدولن توجد. وهذا المعنى الذى أؤمن به هو فى الواقع مايجعلنى أميل إلى تصديق حكاية بغلة العرش هذه صحيح أكاد أعرف الأسباب الحقيقية وراء ثراء كل ثرى فى بلدتنا وأكاد أحدد مصادر كل ثروة غير طبيعية ظهرت فى بلدتنا : إلا أن الحكمة فى بغلة العرش واضحة ورمزها جلى؛ فالبغلة تحمل الخرج الملآن بالذهب ؛ وتحمل فوق الخرج رأس قتيل حتى يثن طوال الطريق. وفى يقينى أن الشيخ جمعة قد أخطأ فى تفسير هذا الرمز ؛ لقد تبينى التفسير الشعبى الذى روته لى جدتى قطيفة وأنا طفل صغير حينما روت لى قصة هذه البغلة حينما شاع ثراء الحاج على داوود المفاجئ ، حينما وجدوه فجأة يشتري الفدادين ويبنى المخازن والدكاكين والدور؛ وهو الذى كان منذ قليل يجلس أمام داره بلبشة قصب يبيعها بالعود مقابل حفنة من القمح أو كوزين من الذرة. وإذا كان قد تحول إلى تجارة الحبوب فإن أحدا لم يكن يتوقع له هذه القفزة الشنيعة . وعندما سألت جدتى عن الحكمة من وجود رأس قتيل حتى يثن طوال الطريق فوق خرج الذهب قالت : لكى يخيف من يرى البغلة فيتركها فى حالها ويتوارى بعيدا عنها درءا للمتهم.. «كنت قد نسيت هذه الحكاية لكننى لم أنسها تماما : بقى

منها فى ذهنى رأس القتل الحى الذى يئن. الآن انتبهت إلى هذا الشرط الذى برّوزته جدتى بقولها على لسان البغلة : الشرط قبل الحرّ ! تأخذ الجمل بما حمل ! يعنى الخرج ! ورأس القتل ...! طب وإذا أخذ الموعد الخرج وترك رأس القتل ...؟ تقول جدتى : ها ...!...!...ه ! تظنها سايبه ؟ إذا ترك رأس القتل فإن البغلة تظل واقفة به حتى الصباح وهو يئن ويفضخ فتتحول الهدية إلى جريمة فى عتبة الدار ..

« الآن فقط أفهم حقيقة مايعنيه رأس القتل الحى من رمز . كدت أشرحه للشيخ جمعه فى خطبة الجمعة، أن أقول لكافة المصلين : إن السماء بعدالتها تضع الثروة مقرونة برأس القتل أى بالجريمة : والسماء إن تخير الموعد بين أن يقبل الجمل بما حمل يعنى الثروة والجريمة ، أو يرفض الصفقة من أساسها ، معناه أن الثروة ملوثة بالدم؛ ومن يقبلها مدان ؛ يكفى أنه يدفن فى عقر داره رأس قتل سيظل منظره ماثلاً فى عينيه إلى يوم يقابل ربه ، فيسبب له الكدر والقلق يجلب له الأمراض، يكون نذيراً بأنه أصبح على استعداد لأن يقبل الكثير من رعوس القتلى : فمن يدفن رأس القتل فى عقر داره مرة يظل طول عمره يدفن رعوس قتلى مع كل قرش يكسبه أو ينفقه ..

« كان لابد من شرح هذا للناس ، لكى يعلموا أن مجئ الثروة على هذا النحو ليس يعتبر هدية سماوية يتعين على الموعد قبولها شاكرًا حامدًا ؛ إنما هى اختبار إلهى واضح تمام الوضوح

هل تقبل الذهب ومعه رأس القتل ؟ فإن هو قبل الصفقة المندسة فهى ليست حلالا عليه كما يتصورون . من يقبل البغلة فإنما يكون قد قبل الجريمة وحمل مسئوليتها النهائية إلى الأبد. وإذا كان أثرياء بلدتنا فى هذا العصر المنفك الأواصر قد قبلوا رأس القتل من أجل خاطر عيون الذهب فإنهم بالضرورة مجرمون. ولابد أن الأنين الصائر عن رعوس القتلى تتردد أصدائه خلف كل مظاهر الثراء الفاحش التى أغرقت بلدتنا؛ غير أننا لا نسمعها من شدة الضجيج والصخب ؛ حيث يمتلئ الأثير بأصوات لا حصر لها وكلها زاعقة مدوية ..

« أه لو تمكنت من تنبيه كل هؤلاء المجانين إلى أنهم جميعا مستعدون لقبول رأس القتل ظنا منهم أن السماء تشرعه وترضاه . كيف يعرفوا أنهم إن كانوا مؤمنين حقا وعلى شئ من التقوى فإن السعادة تغمر السماء لو أنهم اعتذروا عن قبول الثراء المشروط برأس القتل ..

« منذ متى كان الله يحب عباده الأثرياء ثراء فاحشا ؟ إنه سبحانه يحب الزاهدين الأتقياء ؛ عز من قنع وذلل من طمع. كان لابد لشيخ يقف على المنبر أن ينبه إلى هذا. تلك هى مصيبة الخطباء الجاهلين . اليوم فقط عرفت السر فى أن البغلة لا تجئ للشرفاء أبداً، ولا للأتقياء المؤمنين الذاكرين؛ لأن السماء واثقة من صدق إيمانهم ؛ ولعلها جاءتهم ورفضوها ؛ إنما هى تجئ

دائما لأولئك الضعفاء ، لكى تضاعف من ذنوبهم ؛ تعطيهم سلاح الفسق والعصيان. لقد وجدتني أقول لنفسي بعد اقتناعي بهذه الحقيقة : الأفضل ياراضى افندى أن يراك عدد كبير من الناس تسير الآن فى الشوارع ليعرفوا أنك لا تنظر شيئا؛ وأنتك من الزاهدين العقلاء ؛ فلعلهم بك يقتدون . أجمل من هذا أننى كنت واثقا بأنى سأجد نظائر لى تسهر الآن على هذه الطابية ...

٥- زَغَلَّةٌ

«مالكم تبخلقون فى هكذا ؟! نعم أنا الدكتور عبد العال الشريف طبيب هذه الوحدة الصحية. دخلت سريرى بعد الفطور لكنى أرقى أرقا سخيلا سمجا. جلست فى الشرفة ؛ رايتكم تتجمعون على الطابية ؛ أعجبتنى الفكرة ؛ إشتقت لهذه القعدة؛ جئتم . أنتم إذن لا تنتظرون بغلة العرش ؟!..»
«أنا ؟! لا شك طبعا أننى أتمناها ؛ لكنى لست فى انتظارها ، ولن أكون . أنا على فكرة سمعت حكاية هذه البغلة منذ مدة ؛ أظن أن أمى حكته لى؛ وأبى أيضا، مساه الله بالخير، حكاهالى فى شبه اقتناع بوجودها. هو عمدة لكنه شيخ طريقة كما تعرفون لا أدرى كيف يجمع بين الحاكم والمتصوف !.. الجمع بين هذين النقيضين مستحيل إلا فى أبى فإنه أعجوبة الأعاجيب لأنه استطاع أن يحول كل أهل البلدة من مواطنين خاضعين لحكمه إلى مريدين منجذبين إلى طريق الله على يديه ..»
« المناسبة كانت ابن بلدكم الحاج على داوود. أظن أنه يومها

كان فى بلدتنا ؛ أقصد فى دوارنا ، مع أبى، يكتبان عقد بيع قطعة أرض يشتريها من ابن عم لى. وكان أهل بلدتى كلهم مندهشين من دفعه للثمن كله نقداً؛ لأن الجنيه أيامها فى حنك سبع ؛ والحاج على داود كان معروفًا لنا من قبل كرجل كحيان لا وراءه ولا قدامه. الآن كل فلوس اهلكم فى عبه، يتاجر بها ، يدخل فى مشروعات يكسب منها الملايين، يعطيكم فى النهاية لقمة من الفائض. أصبح الآن يتاجر فى كل شئ؛ يصدر البصل والثوم والأرز والقمح والفاكهة إلى بلاد الكفرة ويحرمكم منها.. المهم أن أبى حكى لى أن بغلة العرش جاءت أكثر من مرة، وأن داره القديمة تحت أرضها كنز وعدد من رؤوس القتلى ..

« الله يسهل لعبيده لكن مايدهشنى أن الناس ينتظرون هذه البغلة على الدوام . أعرف بين مرضاى ناسا طبيبين ينتظرونها منذ عشرين سنة، بل يعتمدون على الله وعليها فى تسديد ديونهم وتزويج أبنائهم ؛ واثقون هم من قدومها..

« والله لا أعرف لماذا الإنتظار مع أنها تقابلهم فى الحياة كل يوم وكل ساعة ؛ فى إمكان الواحد منهم أن يأخذها متى أراد ؛ كل ماعليه أن ينتبه لوجودها.. انا شخصيا قابلتها فى حياتى العملية كثيرا لكننى هربت منها وجئت إلى بلدتكم هذه !!..

« سأقول لكم كيف. ولكن، عفوا؛ أحب أن أقول ، وفيكم من هو أكبر منى سنا وتجربة ؛ إن كل واحد منكم يلتقى بغلة العرش

هذه فى شغله ولكن بصورة أخرى. هل تفهموننى ؟ بغلة العرش منتشرة فى بلادنا من زمن طويل؛ وبأشكال متعددة.. « أرجوكم لا تندهشوا هكذا، فأنا لا اتفلسف فلسفة كداب. هذا ليس كلام أفندية مثقفين ؛ فأنا كما تعلمون مازلت فلاحا ابن فلاح ..

« الحكاية وماقياها أننى صدمت فى المدنية وأقذيتها؛ انا ابن شيخ الطريقة أعدنى أبى لأكون خليفته ولسوف أكون فى يوم من الأيام إن أعطانى الله عمرا حتى لو صرت أشهر الأطباء. الطب فى نظرى مهنة الملائكة والقديسين..

« لم أخرج عن الموضوع ولكن هذه مقدمة لابد منها قبل أن أقول ماسأقول..

«تعرفون أننى جراح ؛ تدربت على الجراحة طويلا؛ ساعدت أشهر الجراحين ؛ الطريق لا يزال مفتوحا أمامى لأصبح جراحاً شهيراً لكننى نفرت من الشهرة والمكاسب الطائلة لأن ضميرى نقح على بشدة فكرهت القاهرة كلها ؛ فلقد أصبحت الآن مستعمرة لكل الموبقات والمحرمات ..

«إستمعوا لى من فضلكم . أول مستشفى خصوصى كبير اشتغلت فيه كان كل شئ يسير على مايرام فى الظاهر ؛ الزبائن كثيرون ، فالمستشفى أشبه بالفندق الفاخر كنموذج مصغر للجنة إلا أنه غير مخلد مثلها . فيه عيادات لأمراض

النساء والباطنة والأسنان والعيون والنفس، وصاحبها ثرى مشهور، من عائلة كبيرة معروفة بالعز قبل ثورة يوليو، ومتزوج من ابنة وزير داخلية سابق، إستطاع الحصول على الأرض المقامة فوقها المستشفى بثمن بخس فى أهم منطقة فى العاصمة ؛ كما أنه أستاذ فى الجامعة ويرشح نفسه كثيرا فى انتخابات النقابة ويكتب فى الصحف والدوريات الطبية.. لاحظت أن تسعين فى المائة من زبائن المستشفى - بعد السياح العرب المتمارضين بلذة كبيرة - فتيات صغيرات ، مابين السادسة عشرة والعشرين من العمر؛ بعضهن يبدو عليهن الثراء الفاحش. وبعضهن غلبانات رغم الملابس الثمينة التى يرتدينها؛ معظمهن يصطحبن الأثرياء من رجال الأعمال؛ بكوات أجلاف يركبون المرسيدس ..

« راقبت الأمر ؛ لاحظت أن هؤلاء الفتيات فى عيونهن عهر أصيل، والفحش واضح فى حركاتهن وملابسهن الشفافة وأجسادهن المتهتكة - وعشرات المرات حضرت لحظة دفعهن للفوزيتة ؛ فإذا بالواحدة منهن تدفع من ثلاثة آلاف جنيه إلى خمسة آلاف ؛ مع أن العملية التى يختفين لإجرائها فى غرفة مستحكمة لا تزيد عن دقائق معدودة تخرج بعدها البنت موردة الخدين تذب فى عينيها رصاصة.

«المهم ظللت أدقق فى البحث حتى عرفت الحقيقة. ظننت فى

الأول ما يظنه بعضكم الآن : أن يكنّ يجرين عملية إجهاض . لكن عملية الإجهاض يعقبها هزال وتعب ورقاد ؛ كما أن الصبيات ليس يبدو عليهن الحمل..

«هل تعرفون ما الذى اكتشفته ؟!.. حضرة الطبيب المحترم ، الذى من المفروض أنه أب يعلم الأجيال فى الجامعة مبادئ الأخلاق والمثل العليا قبل تدريس الطب ؛ كان يجرى لهن عمليات ترقيع..

«ترقيع ماذا ؟ أقول لكم : هؤلاء الفتيات فقدن غشاء البكارة نتيجة ممارستهن الجنس فى الحرام؛ فجئن إلى الطبيب النطاس ليخيط لهن غشاء البكارة بوضع رقعه تسده من جديد الطبيب المحترم، وهو يعرف أن هذا ليس تخصصى؛ لما رأى مهتما بمنظر فتياتاه فهمنى خطأ ؛ ظن أنى من بتوع النسوان. فلما تأكد أنى لا أؤجل فرض الصلاة دقيقة واحدة ظننى من هواة عمله، فإذا به يعرض على أن يقوم بتدريبي ؛ حاول إقناعى بأننى يمكن أن أدرس أمراض النساء والولادة فأحصل فيها على دبلومة إضافية فأحاول بذلك مجرى حياتى إلى كنز من الأموال لا ينفد..

«الحق أنه أغرانى. قلت : فلأجرب ؛ خاصة أنه أغرانى بعمولة كبيرة لقاء مساعدته. حذرنى بعض الزملاء الطبيين ولكن بطريقة مرحة ساخرة ، وغامضة ، ومرببة أيضا. قالوا لى : لقد ظنك تتجسس عليه فأراد شراءك من ناحية وتلويثك بنفس

الفعل من ناحية أخرى : فكانهم أثاروا اشتياقي لمعرفة مايفعل من أفعال غير مشروعة ..

«دخلت معه غرفة العمليات مرة واحدة . رأيت مالا يمكن لمثلئ أن يتقبله : الفتاة الجميلة كالقمر كالغزال تبدو بنت ناس؛ تتعري تماما، تتمدد على طاولة العمليات رافعة ساقيها كما لا ترفعها إلا زوجة لزوجها فى الفراش فى الظلام. الأضواء المبهرة تسلط على فرجها الذى انفتح عن آخره بعد أن ربطت كل ساق فى ذراع حديدى. وبعد بنج موضعى ثقيل ؛ يمتد المشرط ليكشط من كل شفرة من الشفرتين - اللتين من الواضح أنهما اندعكتا حتى تورمتا - يكشط شريحة رقيقة جدا فى رقة ورقة البافرة ؛ يضم الشريحتين إلى بعضهما على هيئة كوبرى؛ يخيطنهما ، فيصنع بذلك غشاء بكارة يزداد تماسكا بعد أيام قليلة؛ وسرعان مايلتئم الجرح ببعض عقاقير بسيطة. فى ظرف شهر يصبح من حق هذه الفتاة أن تتزوج باعتبارها عذراء بختم ربها لم تمس !!!

«صدقونى انى نادى على رؤية هذا المنظر حتى الآن.. والله كدت أضرب نفسى بالنار ذات لحظة. أنا الذى استغفر الله إذا رأيت فحذا عاريا لفتاة عفوا، كيف رضيت برؤية العورة كلها هكذا ؟! يومها كاد يغمى على ؛ ولولا أننى شاب أعزب مكبوت الغريزة لفتحت الباب وخرجت، أو على الأقل داريت عينى. لكنه

الشیطان . بعد العملية ضحك - أقصد الطبيب - من اضطرابى ودهشتى ، وقال ماأذهلنى : فمن بين هؤلاء الفتيات من قامت بهذه العملية ثلاث أو أربع مرات على مدى بضع سنوات ..

«هأنتم تشمئزون ؛ كان الله فى عونى على ماأرأيت . ماأثار فزعى أن الزملاء الذين نصحونى بعدم مطاوعة الطبيب إياه هم أنفسهم يتكالبون عليه ويتمننون مساعدته واختطاف الشهرة منه. إنهم تلاميذه لكنه لا يتق فيهم لأنه يرى فى غيرهم وحوش المستقبل الذين سيأكلونه فى أول طقة حينما تكبر أنيابهم ولهذا فهو لا يعطيهم سره ولا يوزع عليهم إلا عمليات بسيطة ، ولكن هذه العمليات البسيطة تدر عليهم الألف كل يوم ..

«أه لو تعرفون كيف يعيش هؤلاء الجزارون على حساب النساء الغلبانات الحلمات بالحمل والولادة. إنهن لقمة سائغة. الطبيب من هؤلاء يعرف أن الواحدة منهن فيها عيب لا يمكن إصلاحه طبيا على الإطلاق إذ أنه عيب خلقى. مع ذلك يظل يوهمها بإمكانية العلاج حتى يستنزف كل دماائها ودماء زوجها الحالم بالولد ..

«أحكى لكم حادثة رأيته بعينى، طبيب من هؤلاء يعمل فى جهات متعددة. فى الصبح أستاذ وبعد الظهر جزار، بمعنى الكلمة من مستشفى إلى عيادة إلى مستوصف إلى خزينة البنك يكس فيها الأموال . جاءت حالة ولادة متعسرة؛ قيل إن الحامل

ينتابها ألم المخاض منذ عشرة أيام بلياليها دون جدوى، وأن الداية
يئست ، وأن زوجها الثرى شاء أن يلحقها بمستشفى استثمارى
فى العاصمة نفسها متخطيا مستشفيات المركز والمحافظة، يعنى
عنده أموال رخيصة عليه فنحن إذن - يقول الجزار - أولى بها ؛
فمادمنا نستطيع أخذ الفلوس بسهولة فلما نتركها ؟!.. المهم جاء
الزوج بزوجة فحولها الطبيب الكبير - لكثرة انشغاله - إلى
الطبيب نصف الكبير الذى أحدثكم عنه. حتى ذلك الحين كنت لا
أزال صديقه. وكان له مساعد من عينتى . صاحبنا فحص حالة
الزوجة فى الإستقبال وقال إنها محتاجة لعملية جراحية لا مفر
منها، وأن هذه العملية تتكلف عشرين ألف جنيه، خلاف إيجار
السرير فى المستشفى وبقية الخدمات. وافق الزوج فى الحال،
فأحيلت الزوجة إلى غرفة العمليات، جهزت ، جئ بطبيب
التخدير ليمارس عمله. ثم تركها فى رعاية مساعده المتدين؛
واستقل سيارته البوك إلى عيادة أخرى لينهى عملية أخرى تم
تجهيزها له. قال إنه سيعود بعد ثلاثين دقيقة بالضبط، هى المدة
التي تستغرقها عملية سريان المخدر. ماكاد صاحبنا يخرج حتى
شعر مساعده أن حالة المريضة أخذت فى التحسن، وأن آلامها
الظاهرة هذه هى آلام الوضع الفعلى؛ فتفاعل خيرا؛ إستمهل
طبيب التخدير بعض الوقت لعل وعسى. طبيب التخدير هو
الآخر خنزير ، كادت نظرتة القلقة تقول : أنا جئت فلا بد من

تقاضى الأجر على أى وضع. الزوج كان متعلما وذكيا وجميلا ،
إنتحى به جانبا وأعطاه أكثر من أجره. إن هى إلا دقائق معدودة
حتى حزقت المريضة حزمة أعقبها ألم ثم صراخ ساذج جميل
الوقع؛ لقد تمت الولادة بسلام ..

«حينما دخل صاحبنا مشمرا عن ساعديه استعدادا لإجراء
العملية وقبض الألفوف الخمسة التى هى عمولته، فوجئ
بالمريضة ممسكة بالمولود تحميه بالماء الدافئ. لا أستطيع وصف
حالة القهر التى حطت على وجهه ؛ إختفى قناع الطبيب الرقيق
الإنسانى، وظهر وجه الجزار المتوحش؛ لم يقل : حمداً لله على
سلامتها ؛ بل اتجه إلى مساعده فقبض على ذراعه وانتحى به
جانبا يجرز على أنيابه قائلا فى غضب مكتوم :

- بدين أمك مش قادر تفتح بطنها وتسيبها لحد ما أرجع ؟!..
« قال لى المساعد وهو يوصلنى بعربته السيات إلى مسكنى :
- تصور أن هذا الجزار المتوحش يحترف هذه العملية ؟!
يفتح بطن المريضة ثم يغلقها فى الحال دون أن يفعل أى شئ لأن
المريضة أصلا ليس بها أى مرض وليست محتاجة لأى عملية !!
لكن مجرد فتح البطن وتخبيطها يعطيه خمسة آلاف جنيه !!
عشر سنوات فقط عمره فى الطب ومع ذلك يملك عددا من
العمائر فى مدينة المهندسين ولديه توكيل من إحدى الشركات
العالمية لتوريد الآلات الطبية ! وله فى كل أسبوع عزومة كبيرة

فى فندق من الفنادق يعزم عليها محرري الصحف والفنانين حتى يظل اسمه مشهورا محاطاً بالبريق .. المجرم يسعى دائما لما يرفع ثمن جريمته !!..

« المصيبة ياإخوان أن الآفة تنتشر الآن بين أطباء من جيلى . ياإخوانى لا تلوّموا الجماعات الإسلامية على ماتبيديه من رغبة فى الحرب مع المجتمع . لو سألتهمونى رأيى أقول لكم بصراحة : إذا كانت هذه الجماعات متحررة من الإنفاق الأجنبى ؛ إذا لم يكونوا أدوات فى أيدي قوى أجنبية تهدف إلى تدمير مصر؛ فإنهم يكرنوا ظاهرة صحية فى عرفى ومذهبى . وعلى فرض أن هناك قوى أجنبية تصرّكهم فإن هذه القوى وجدت منهم استجابة سريعة . لماذا ؟ هل من أجل الفلوس ؟ لا ، لأن ما يروونه يثير غضبهم ، يقتل الأمل فى نفوسهم . فأى شاب لن يكتب له الحب والزواج وتكوين أسرة فى مصر إلا إذا كان لصا ومحتالاً وسفاحا وغشاشا وخائنا لبلاده . فأمثال هؤلاء هم الذين يعيشون الآن فى مصر ..

«أسمعتكم أن نقابة الأطباء سيطرت عليها الجماعات الإسلامية بمجلس إدارة منتخب هذا فى عرفى ومذهبى سببه ما يراه الأطباء الشبان من ظواهر الفسق والفجور والإجرام بين الأطباء . فليقل البعض فى الصحف إن الإخوان المسلمين تغذى هذه الجماعات بواسطة بنك التقوى الثرى الموجود فى بلاد الفرنجة

والمعمول خصيصا لهذا الغرض . ليكن ، فهذا لا ينفى أن الجو الفاسد لابد أن يجد من يتصدى له ويقاومه؛ وإلا فعلى الدنيا السلام . من حسن الطالع والله ياإخوان أن نقابة المحامين هى الأخرى سيطرت عليها الجماعات الإسلامية بمجلس إدارة منتخب أيضا ، بانتخابات نزيهة لأول مرة بشهادة أحمد الخواجه نفسه والقضاة الذين ترأسوا اللجان . آخر ماسمعت أن الحكومة تفكر الآن فى سحب الأرض من تحتهم بتغيير قانون النقابات ، للإطاحة بهذه المجالس ومنح الفرصة لعملائهم ..

« أنتم تعرفون لا شك أنني لست من أى جماعة ، جماعتى هم أبناء الطريقة الشرنوبية التى يتشيخها أبى وهى فرع من الشاذلية لكننى لست متشائما مثل كتّاب الحكومة وصحافتها من طغيان هذه الجماعات الإسلامية كخطر يهدد البلد . رأيى أن الله يسلط أبدانا على أبدان . يقولون : الإرهاب؛ وهل ماتفعله الحكومة فى الشعب ليس إرهاباً ؟! من منكم نخل نقطة البوليس شاكيا ولم يخرج منها مهانا مضروبا بالصرمة القديمة ؟!.. ويقولون : التطرف ، ويريدون أن نساعدهم فى القضاء عليه؛ فهل نقضى على التطرف لمصلحة الإرهاب الحكومى والفسق والفساد واللصوصية والإنتهازية ؟! هذه ولا مؤاخذه حكومة هبلاء تظن الشعب أطفالا يسهل الضحك على ذقونهم بقطعة شيكولاته . إنهم - بالضبط بالضبط يخوفونا بأبى رجل

مسلوخة ..

« رينا يولى من يصلح . وعلى كل حال؛ فكل واحد منا عليه أن يصلح نفسه ويخلص لله ولتضميره وللتقوى ..
«أعوذ بالله من قولة أنا ، طهقت من القاهرة : فجئت أعالج أهلى الفلاحين الفقراء ؛ وبدون أجر. رفضت الطريق إلى الثراء الفاخش السريع وهو مفتوح لكل من يحلم بالثراء. لست ضد الثراء بالطبع ياإخوان ؛ ولست زاهداً فى بهجة الحياة. أهلا وسهلا بالثراء الطاهر، أما الثراء المشروط برأس القتل فلا. إن كل واحد منا يجب أن يطهر نفسه من الدناءة والشر فيرفض قبول رأس القتل ؛ يرفض بغلة العرش هذه. إننا لا يصح أن ننكفى على وجوهنا هكذا فى انتظار بغلة العرش؛ إنما يجب - إن كنا مؤمنين حقا وجديرين بالحياة الكريمة - أن نبحث عن رموس القتلى وراء كل ثراء فاحش يظهر لنا . إن رموس القتلى ضوعفت وتتضاعف كل يوم ؛ والدنيا من حولنا أصبحت مليئة بالوجع لكننا لا نسمع الأنين؛ فالهواء كله محشود بالصخب. والترانزستور على ظهور الحمير، والميكرفونات تزعق ليل نهار فى كل ناحية؛ المسجلات، الفيديو؛ كل ذلك يشوش علينا. خصلتنا أن كل واحد منا يشوش على الآخر وعلى نفسه فلا يسمع الأنين الذى فى جوفه هو ..
« أركم تبتسمون فى خبث. كلامى لا يعجبكم طبعاً. أنتم

أحرار ؛ لكن صدقونى أننى لست طبيبا فاشلا كما يتهامس بعضكم فى مجالسكم. القاهرة لم تطردنى لأنى لم أنفع فى الطب، فأنتم تعرفون أننى طوال دراستى من الأوائى. كل مافى الأمر أننى نجوت بنفسى ؛ وليس يعلم بخافية النفوس وسلامة القلوب إلا الله سبحانه وتعالى »

واحد، وأبوها رغم فقره بناء ماهر ورجل ينفع فى الزنقة وعنده ذمة وضمير ، وابنه عمك هى الوحيدة التى تحمى ثروتك وتستتر عليك..

« ايها الأغبياء اليس فى عيونكم نظر ؟! ألا ترون الجلباب الذى لم يفارق جسدى منذ الشتاء الفائت ؟! أصيع واحد فى البلد ، الشحاذ ، عنده بدلاً من الجلباب ثلاث وأربع ؛ أما أنا ؛ يا ابن الحاج على داود، الذى جاءته بغلة العرش مرات عديدة، ليس عنده سوى جلباب واحد للشتاء وآخر للصيف ؛ ومداس عبارة عن صرمة قديمة ليست هذه مصيبة ؟!.. هل تصدقون إذا قلت لكم أننى وأمى وإخوتى البنات العانسات لم تذوق طعم اللحم من عيد الضحية الماضى ؟ قرابة عام؛ ولولا شطارة أمى فى تربية الدجاج والبط والأوز ماوجد هذا الرجل الظالم جسدا يساعده فى الشغل كجسدى..

«هم لا يصدقون بالطبع. يلمحون من طرف خفى وأحيانا بصريح العبارة أننى بخيل كأبى ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون أبى عائماً فى كل هذا الثراء كبنك متنقل ، ثم لا أجد أنا وأمى وإخوتى قطعة لحم نأكلها. معهم حق وحق كتاب الله . وأنا فى الحقيقة صبرت بما فيه الكفاية. أخيراً طهقت؛ خرجت أشم الهواء على قنطرة السلمونية فى هذا الجو البديع..

«هل تتصورون كيف تركت أمى الآن ؟ تركتها موقنة من أن

٦- بَهْدَكَة

«.. ديك بغلة العرش وديك الذين خلفوها .. ياماجاءنا من وراء بغلة العرش. ياماكسبنا . فليجئ هؤلاء الذين يحسدوننا لينظروا كيف نعيش وكيف نهنا بالنعيم الذى أصابتنا به بغلة الزفت هذه. وعلام ينظرون ؟ إنهم يعرفون كل شئ ويرون كل شئ؛ فما نهاية هذا القر الذى يهرى أبداننا ؟!..

«كل من التقانى من أقاربي يقول لى :

- ياعبد المجيد متى نفرح بك ؟ متى تكمل نصف دينك ببنت الحلال ؟!..

« طيب، إن شاء الله ، كله على الله ، أقفل مهما أقفل ولا فائدة فى وقف الكلام. بل يتطوع بعضهم ويرشح لى بنت الحلال التى فيها دوائى الناجع. بنت فلان الفلانى حورية من الجنة لا يغررك فقرها؛ خذوهم فقراء يغنيكم الله.. بنت فلانة أجمل بكثير وأما وارتة لعشرة أفدنة فهى الوحيدة التى تليق بك .. ولماذا لا تكون بنت عمك هى الأولى ؟ أفى البلد أجمل منها ؟ يكفى أن الدم

بغلة العرش التى جاءت لأبى كثيرا سوف تعرف طريقها الصحيح هذه المرة وتجنّ إليها فى دارها. لقد رأت بالأمس فيما يرى النائم أمها المليئة منذ ثلاثين عاما، كانت شابة كحورية، محملة بالذهب فى يديها وأذنيها ورقبتها؛ إحتضنت أمى وقبلتها؛ ولاحظت أن أمى تنظر بإعجاب شديد إلى فرع ذهبى فى رقبتها يحتل صدرها كله بعدة أدوار كل دور يتكون من حوالى عشرين حبة ذهبية كحبات الفول السودانى ؛ فخلعته من رقبتها وأعطته لها قائلة : مايغلاش عليكى يااختى . عطية الميت فى المنام خير، ولا بد أنها نذير إلهى بقدوم البغلة إليها كى تظل هى ساهرة فى انتظارها..

« مسكينة أمى؛ عندها من الأسباب مايعطيها الحق فى مجئ البغلة إليها . يكفى أنها احتملت أبى ؛ هى التى كونته ؛ هى أول زوجة فى حياته. كانت تدبر قوته بملاليم؛ توفر له ؛ كان إذا اشترى شيئا أو استرد حبوبه التى أعطى ثمنها قبل الحصاد، تذهب هى نفسها إلى الأجران فتنقلها بالقفة على رأسها نقلة بعد نقلة. وعندما يطلع سوق البلد أو أى سوق ليبيع هذه الحبوب أو يشتري غيرها كانت أمى هى التى تبكر فى الفجر فتسبقه إلى السوق لتفرش وترش المكان بالمياه وبالبخور والكلمات الطيبة وهى التى تلاطف الزبائن حينما يعاملهم أبى بغلظة كالعادة. لولاها ماتاجر ولا أقبح . لقد تزوجته وهو نفر تملى

يسرح الغيطان التى تم حصدها فيجمع ماتبقى فيها من سبلات أو لوزات قطن نسيها الحاصدون أو سقطت منهم؛ يعود آخر النهار بصرة صغيرة مليئة بالسبلات أو الكيزان أو حفنة قطن أو حزمة برسيم؛ أو إذا لم يجد شيئا من هذا يقوم بتقطيع الحشائش الخضراء من على شواطئ القنيان والزراريق؛ يبيعها لمن يريون الأرناب أو المعيز بقرشين ثلاثة أربعة بالكثير. فلما تزوج أمى نجّرت له كرامته. إختترعت له وسيلة كريمة للرزق؛ بأن يخرجان معا صباح كل يوم قاصدان الكريم، هو يمشى أمامها بأجولة فارغة مطبقة تحت إبطه؛ وهى من ورائه تحمل فوق رأسها قدرة مليئة بالعرقسوس المخمر تبرع فى تخميره لدرجة أن من يذوقه لا ينسأه مدى الحياة. ينزلان الغيط على الأنفار الذين يحصدون القمح أو يضمنون الأرز أو يجمعون القطن. هم فى هذه اللحظة ميتون من العطش؛ فما يكاد منظر أمى يهل عليهم حتى يحمّدوا الله ويشكروا فضله؛ فبدلا من شرب مياه القنيان العكرة الساخنة المليئة بالواغش ساق الله إليهم العرقسوس الشافى المزيل للعطش طول النهار. السلام عليكم، هكذا يفعل أبى. فيتوقف الأنفار فى الحال مرتصّين فى خطوطهم حتى بدون إذن من صاحب الغيط لأنه هو نفسه أول المرحبين .. الكوز النحاسى المجلو بالرماد حتى لمع، المخروط الخصر بمقعدة بارزة وأذن تشبه علامة الإستفهام شكله شكل

امراة تضع يدها فى خصرها؛ منظره وحده مثير للعطش. ترفع
أمى ذراعها به، تميل بالقدر فى حكمة وتؤدة، يفرغ البزبوز فى
الكوز شخلوبا فى لون الشاى يزغرد صوته فى الكوز صانعا
رغوة عالية. لابد من الصب هكذا بصنعة حتى ترتفع الرغاوى
عاليا فلا يأخذ الكوز أكثر من نصفه والباقى رغاوى تصل إلى
حافته. يمدده أبى لصاحب الغيط، فيكرعه مغمضا عينيه مائلا
براسه إلى الوراء فى لذة. يلف الكوز على الجميع. فى النهاية
يمد صاحب الغيط يده بالمقسوم : حزمة سنابل تملأ الحزن،
حقنة قطن تملأ الحجر. وهكذا من غيط إلى جنبنة إلى عشة
قيلولة، يعودان آخر النهار محسلين بكل مافى الغيطان والجنائن
من خير، وبعض قروش. هى قدرة واحدة فى اليوم لكن
الحصيلة باسم الله ماشاء الله لا تخلو من طماطم وبامية وكرمب
وملوخية وجرجير وبطيخ وشمام وخيار، يعنى حتى الطبيع
ندبره أمى بالبلاش وماعليه هو سوى أن ياكل حتى يمتلى ..

« من محصلة العرقسوس أصبح لأبى مخزن كالنجار
كأصحاب الحصاد؛ أصبح يبيع. تعلم كيف يخفى الصنف ليوم
شدة، كيف يبيع قدح برسيم التقاوى بالشئ الفلانى. بعد الكيسة
الدبلان التى كان يطويها على القروش فى جيب الصديرى أصبح
يحمل محفظة كالبرطوشة تنطوى هى الأخرى وتغلق
بكبسولات تطرق فتصيبه بلذة، ولها جيب بطولها وجيوب

أخرى كثيرة. فلما امتلأ بالفلوس أصبح يفكر فى الخلفة، أصبح
ينتبه إلى أن خلفه أمى كلها بنات. ظلت الولية المسكينة تصبره
حتى جئت أنا بعد نذر نذرته لسيدى إبراهيم الدسوقى. نذر أبى
أن يعلمنى فى الأزهر الشريف حتى أحصل على شهادة العالمية.
بالفعل دخلت كتاب الشيخ جمعه فحفظت القرآن الكريم، بعده
دخلت المعهد الدينى فى دسوق وكنت من الناجحين فى كل عام
حتى حصلت على ثانوية المعهد وتجهزت للسفر إلى مصر
لاستكمال التعليم فى الأزهر الشريف. لكن أبى عمره مانذر
نذراً ووفى به : وجد أننى أصبحت ذاكرته التى لا يستغنى عنها،
يصحبنى من عز النوم ليسألنى : هل فى المخزن ألف كيلة أم
ألف كيلة ونصف ؟ فأنكره بأن هذا النصف ينقص ملء كوز
اختلسته أمى للفراخ ..

« علمته أن كل شئ بدفتر؛ وكل الدفاتر تصب فى النهاية فى
دفتر واحد. علمته الجمع والطرح والضرب والقسمة على الورق؛
فاتسعت دائرة شغله؛ واتسعت ذمته أيضا؛ وهذا هو سر نغمته
على أمى وطرده لها . كانت دائمة الزن على أذنه : يارجل إتق الله
! لا تسقى أجولة القطن بقطرات الندى والمياه ليثقل وزنه بضعة
أرطال هذا حرام! لا تستعمل هذه الكيلة فى التكيل بها عندما
تبيع الحبوب للناس الغلابة ! إستعمل التى تشتري بها ! عيب
عليك الصلاة فجرا وأنت تعلم أن الكيلة التى تباع بها مخصص

من قعرها ما يساوى شبرا كاملا ! النجار الذى قطبها لك هكذا
بوضع قعر لها فوق القعر الأصلي تاركا بينهما فراغ سوف لن
يرد على جنة ! وأنت قبله ! عيب على هذه الزبيبة فى جبهتك !
عيب على لحيتك ! تذكر شباك النبى الذى زرته وملست عليه
بهذه اليد التى تأكل حق الغلابة !.. فما كان منه إلا أن بات ينهال
عليها ضربا. وكان فى حقيقة الأمر قد نوى على الزواج من
عزبة نصيف من امرأة من عائلة تلبس الأفرنكة وتسرح
شعرها وتدهن وجهها بالبوية الملونة ؛ ولعائلتها إسم كالطبل
سوف يحتمى به ليفتح لنفسه أسواقاً جديدة ..

« طرد أمى إلى دار أمها وأنا معها طبعاً ؛ ولكن بشرط أن أجيئ
إليه صباح كل يوم لأشتغل فى الدكان وفى آخر النهار أعود
لأمى. خصص لأمى نفقة لا تكفى كلبا؛ وعيّننى نفراً عنده
باليومية ، مثل أى نفر غريب ؛ ونصحنى بأن أدبر حالى بهذه
اليومية فأدخر منها كسوتى وزواجى وعلاجى وكل شئ أطلبه؛
وكلما طلبت منه ولو قرشا واحدا زيادة ، يمشط لحيته يقول :

- منين ؟! بتاع الناس وأنا حارس عليه إياك فأكره ملكى !!
إياك تكون طمعان ! أنت لابد أن تعتمد على نفسك ! مثلما
اعتمدت أنا على نفسى ! لا تركز على ثروتى وتقول ياولد سوف
ترث ! لا يا حبيب امك ! أنت يجب أن تكون خشنا من الآن !
تواجه مصيرك من الآن كى تنفع نفسك وتنجح فى حياتك !

إنس أنك إبنى وأنت تنجح بعون الله !!!..

« و.. فى الحقيقة لهم أقدر على هذا النسيان أبداً ؛ رغم أننى
صرت أكرهه كره العمى؛ ولو لم أكن واثقا من شرف أمى لقلت
إنى بذرة غريبة عنه، خاصة أن ملامحى كلها ملامح خالى عبد
الجواد يرحمه الله ..

« زهقت والله يا جدهان . ما بى قحطى الذى أعيش فيه ؛ وما بى
قر الناس على حصل فاضى. د برونى يا جدهان؛ ياعم الشيخ
عبد المقصود؛ ياناس يامتعليمين يا حافظين كتاب الله ؛ هل فى
الدنيا رجل يعامل ابنه من صلبه هذه المعاملة ؟! أما أن بغلة
العرش قد جاءت فهذا ماتؤكدده أمى؛ رغم أنها لم تر البغلة نفسها؛
إنما كانت تفحت ذات يوم تحت شجره الجميز الواقفة فى دارنا
القديمة فعثرت على جمجمة قتيل كانت مدفونة تحت جذر
الشجرة؛ يومها صرخت وكادت تقع من طولها، لكنه سد فمها ؛
وقال لها: هذه هى رأس القتيل التى جاءتنى مع بغلة العرش منذ
مدة! فهل تتصورين أن هذه النعمة كلها كانت تجيئنا من طلوع
الأسواق الكحيانة ؟! إنه الكنز الإلهى يا امرأة !!!..

« على قولك ياعم الشيخ عبد المقصود : بحثت عن شغل عند
غيره بماهى تكفينى أنا وأمى ؛ لكن مع الأسف لم أجد ؛ على رأى
المثل : ياسايب بلدك حزينه حتلاقى الفرخ عند مين ؟! هزؤ
الناس بى وتريقتهم من ناحية ؛ وذن أمى من ناحية ثانية ؛ تطلب

منى أبقى مع أبى ولو بالعيش الحاف؛ لماذا ياشملوله ؟ لكى تبقى دائما على علم بحقيقة ثروته حتى لا ينهبنا أولاده من زوجاته الأخريات . طيب ياشملوله ياغلبنه ؛ ها أنذا بقيت لكنه لم يطلعنى على شئ؛ خصصنى لمخزن التبى فحسب ؛ وكل ماأعرفه الآن من ثروة أبى الكبيرة الضخمة للتشعبة هو حجم ثروته من التبى، الذى يكفى لعلف ماشية القطر المصرى. يافرحتى، أما للمشاريع الكبيرة والمحلات والفابريكات ومصانع الكبريت ومناشر الأخشاب ومزارع الحيوانات والدواجن وأراضى البناء ومعارض الذهب المشغول والجزارة ، فى طنطا وكفر الشيخ ودسوق وكفر الزيات والمحلة الكبرى ودمنهو والإسكندرية ؛ فكلها يديرها موظفون بشهادات عالية لا أصلح أنا خادما عندهم، يشرف على كل هذا أولاده الذين خلفهم من زيجة عزبة نصيف وزيجة طنطا وزيجة المنصورة.. حتى الأولاد الذين طلقت أمهاتهم كزيجة عزبة نصيف وزيجة طنطا وزيجة دسوق ضمهم إلى شغله وصرف عليهم فى الجامعات واستأجر - أقصد بنى - لهم الشقق والفيلات وزوجهم على صغر ليكسبهم فى صفه. أمى هى الأخرى مطلقة كما تعلمون. ولم يبق فى عصمته سوى زوجة المنصورة لأنها محامية كبيرة تعرف كيف تريحه وتمشى على هواه ، ثم إنها تنوب عنه فى مقابلة كل الرموس الكبيرة والتفاهم معهم فى كل الشئون ،

وهى نافذة على كل الهيئات الحكومية خبيرة بتخليص كل أنواع الأوراق الصعبة؛ إلا أنها عجوز. ولهذا فقد تزوج أخيرا من نهانى بنت عبد الجليل منصور؛ بنت كفلة القمر، عمرها لم يصل إلى العشرين بعد، وخريجة كلية التربية ؛ وعبد الجليل منصور كما تعلمون ليس عبيطا؛ إنه كتاجر أخشاب وسمسار كبير له أسهم كثيرة فى إحدى شركات أبى، وقد أراد أن يضمن أبى فى عيه، فرضى بتزويجه من ابنته ؛ وهى الآن تعيش فى قصر لم يحلم به أبوها، ويخدمها فيلق من الخدم؛ وأما هى فلا تخدم إلا سريريه فحسب؛ قطعة الشيكولاته هذه تقدم نفسها له عارية فرقانة فى العطور؛ إلا هى يطفحها ؛ فلولها ماراينا وجهه ؛ إنها المسمار الذى يربطه ببلدتنا الآن ومن أجلها يجعل من بلدتنا مركزاً رئيسياً لشغله بعيداً عن أنظار الحكومة فى بلاد النور..

« فى مرة قابلت واحد من ابنائه الأفندية المتعلمين تعليما عاليا؛ أظنه من زوجة عزبة نصيف؛ وكان من المفروض أن أقابله فى العزبة لأتسلم منه عشرين رأسا من الماشية لنذبحها فى عيد الأضحى ليشتري منها الناس ذوا الجيوب الثقيلة تصوروا أن مدحت بك - أختى - لم يكن يعرف أنه أختى ؛ ومن يدري ؟ ربما كان يعرف ولكنه عاملنى كأنى مجرد نفر، كان يشخط فى . ولما نهيتة إلى أننى أخوه لم يتغير وجهه ولم يسلم على ، لكنه خفف

من شدته قليلا؛ كل مافى الأمر من ترحيب أنه أشار لى على كرسى وطلب منى الجلوس حتى يفرغ الرجال من تحميل الماشية على عربة النقل الكاميون. عزم على بسيجارة مكن؛ فاخذتها، ولما أشعلها لى بولاعته الذهبية أردت أن أمسك بحبل الود فأستبقيه- شكوت له ظلم أبيه لى ولأمى، فرسم علامات الإشمئزاز على وجهه - لا أعرف إن كان منى أم من أبى - ثم راح يشكو هو الآخر، يحكى أشياء يقشعر منها البدن؛ إعترف لى - والله يعلم صدقه من كذبه - أن كل شئ فى يد أحدهم إنما حققه بنفسه من عرق جبينه؛ فقد علمهم الشطارة فحسب وتركهم يعتمدون على أنفسهم؛ لكنه اعترف بأن أبى كان يعطى كل واحد منهم مبلغا بسيطا يبدأ به مشاريعه..

« إسمعنى أنا؟ أليس من حقى أن يعطينى أنا الآخر مبلغا أبداً به حياتى فى التجارة؟ هل جزائى أننى أخلصت له بكل أمانه؟ فلأترك الزواج الآن مادمت قاربت سن الأربعين بغيره؛ ولكن على الأقل دعنى أعيش اليومين الباقيين لى فى هذه الدنيا بكرامة. ولكن تقول لمن؟ من يقرأ ومن يسمع؟ لقد أتقنها ونفع؛ رسم الورع والتقوى ونفع؛ بخله الشديد خدمه خدمة كبيرة؛ وكل الناس يعتقدون أنه يربى لهم أموالهم بكل أمانة؛ لكن إذا ذهب واحد منهم يطلب حسابا، أدار رأسه بالكلام الذى أعطاه الله موهبة فيه لم يعطها لأحد مثله. إن أى كلام يقوله يصدقه الناس

فى الحال مع أنه كلام تافه؛ وظنى أن الطريقة التى يتكلم بها هى المهمة، فشر أكبر ممثل فى السينما :

- ثروتك عندى ضوعفت إلى كذا! أصبحت ياعكروت مساهما فى كذا وكذا! دعه يكبر ولا تتعجل! أما إن كنت فى احتياج شديد فخذ لك سلفة تردها حين ميسرة! بعمولة بسيطة لا تذكر! أما إن كنت على الحديدية فهذا أمر آخر! شف لك واحداً يشتري نصيبك فى المشروع الفلانى وهو الآن يساوى كذا يعنى أضعاف أضعاف مادفعت فى زمن مضى!! ..

« شخص غبرى كان جديراً بركوب المرسيدس مثل صبيحه . لكن؛ إذا كان هو نفسه لم يركبها فكيف أحلم أنا بركوب ولو عربيه كارو؟.. يوهم الناس أنه زاهد ولهذا يفضل ركوب بغلته العفية ليعرفوا أنه لم يتغير ولم يتبدل . وحقيقة الأمر أنه يخاف من جميع أنواع المواتير ويعتبرها حراماً؛ وطول عمره يخشى ركوب القطار والسيارة ولا يسافر إلا بالركوبة لأنها فى نظره أعقل من الآلة المجنونة . لكن أظن أنها عقدة الناظر خفاجه ، نانثر زراعة الوسية التى فى الغشيم إذ ينجعص على حصانه ويضرب الأنفجار بالكراج ومن ضمنهم أبى. وأظن أيضا أنه لا يستعمل الركوبة إلا فى بلدتنا ونواحيها فحسب؛ ويحدثنى عقلى أنه يتركها فى مكان من أماكنه العديدة ويركب أى سيارة من عشرات السيارات التى يملكها فى محلات تبيعها وتشتريها

فى طنطا..

« أنتم بصراحة تخنتم أذنه بقولكم إنه زاهد ولم يقبل حياة الرفاهية فى المدن. إسألونى أنا ؛ إنه يدمن عشق الفتيات الصغيرات يسرح وراءهن فى كل مكان. وأنا بصراحة ؛ لا تؤاخذونى فى ذى الكلمة ؛ أصبحت أشك فى حقيقة أصلنا؛ أقصد أصله هو. أقطع ذراعى إن ماكان من أصل يهودى قبل أن يسلم أبوه أو جده البعيد. طباعه طباع اليهود الخالق الناطق. ومن حسن حظى أن طباعى هو طباع خالى عبد الجواد. إغذرونى يا جدها. لا تلومونى ؛ فلقد أصبحت أشعر أنى يجب أن اتبرا منه ؛ يعد أن لست. وتأكدت أنه يستعبدنى ويستبيح عرقى مثلما يفعل مع أى نفر لا يعرفه. وظننى أن البغلة هى التى أفسدت قلبه. وهذه هى مصيبة بغلة العرش يامن تحلمون بمجيئها إليكم ؛ إن الإمساك برأس القتل ودفنه عملية تميت القلب؛ والخروج الملائن بالذهب لا يساوى موت القلب أبداً ؛ فمال قارون كله لا يقدر على إحياء القلب ثانية؛ بل بالعكس كلما ازداد المال انقلب صاحبه إلى وحش مفترس يأكل أولاده !! ديك البغلة وديك شوررتها السوداء !!! ..

٧- شَعْلَه

«.. هيج القمر دماغى وأنا متمطرق على ظهري فى حوش الدار. كانت نفسى فى الولية من صبيحة ربنا. جهزت نفسى على سنجة عشرة ؛ ضربت النفسين الحلوين ؛ طحنت بلحة جوز الطيب فى حفنة من السكر سفتها عند أذان العصر ؛ صرت أشغلها بالشاى لكن، فرحة ماتمت؛ تصدر الذكر فى الموضوع ماأدرى كيف؛ فبدلاً من مجئ الفرح والإنبساط يزحف كالبراغيث تفرصنى فى أجنابى . ! إشتغل القرص فى قلبى وصدرى فما قدرت على الإمساك ببرغوث واحد؛ فالغم كالبرغوث الخبيث يلدعك ويختفى ، ولو كنت جدما تمسكه. خلعت دماغى رحت أفليه فى نور القمر؛ فصارت براغيث الغم تتطاير فى كل ناحية أمام عينى ؛ وكلما ظننت أنى قبضت على واحد لأدعه وأميته ظهر أنى قبضت على الهواء ..

« طهقت من نفسى. الولية المنجوسة هى الأخرى لم يكن منظرها مشجعاً؛ فكانت هى أكبر برغوث من براغيث الغم

الأزلى. جنس الكلب لم تعمل بالوصية التى اتفقنا عليها فى العصارى وهى بنفسها تطحن لى البلحة فى الهاون. لم تسرح شعرها المجلد؛ بقيت بنفس الجلباب الزفر الملطخ بالعجين الناشف وبقع الزيت، ما صدقت أن شالت الأكل حتى دخلت القاعة فرمت جثتها على المصطبة وقال شخيرها : اللى يعرف يصحبنى يبقى جدع. هى دائماً تفعلها ؛ وأنا دائماً أكون جدعا فأصحبها من عز النوم أحكم عليها بتسريح شعرها وتغيير جلبابها ؛ لكننى الليلة حلفت ألا أهتم بها حتى أشوف آخرتها مع هذه المرأة القحباء بنت الرفضى..

« زردة شأى وراءها زردة شأى مع كرسى الدخان مع سيجارة نسيبتها ؛ وشلت عبد القادر على دماغى، فاشتغل القرص الموجه يكاد يصيبنى والعياذ بالله بلطف. الكلمة الوحيدة التى زغدتنى بها قبلما تروح فى النوم كانت : - العيد دخل ياابن جبرية وأنت ماافتكرتنى بجلباب جديد يسترنى فمك لله !

« الهزار الذى طيب خاطرى فى عبارتها قولها ياابن جبرية بدلاً من قولها : ياوهدان ياعقل ؛ على أساس أنها لا تلقبنى بابن جبرية إلا ساعة الإنبساط . جبرية هى أمى، وعقل هو أبى، ماقلنا فى ذلك شيئاً؛ لكن الكلمة أوجعتنى فى ليلة مفترجة كهذه ؛ مع أننى وحق هذه الليلة ومساها كنت حاسباً حساب

جلبابها قبل كل شئ ؛ غير أننى شلت الخبر لوقته المعلوم يجى مع الإنبساط ؛ فلما زغدتنى كلمتها فى أجنابى وأنا أستعد للإنبساط عملت بالعند من غيظى ولم أرحها برد؛ لا من فوق ولا من تحت ، وصممت أن أسوق فى العند فأعطيها ظهري إذا جاءتنى ؛ لكن المنجوسة بنت المنجوس لم تجى وتركتنى ساهرا فى حوش الدار وحدى، منى للقمر ..

« بركة ياجامع . أنا الآخر شعرت بدوخة. حل على التعب الذى تعبته طول النهار فى العزى بالفأس لكى أضع اليومية التى سأقبضها فوق الفلوس التى حوشتها لأقطع لها الجلباب فى الصباح فى حالة انبساط . القمر هو الآخر منجوس خبيث مكار، ليس سهلاً؛ قال لى : ياوهدان ياابن جبرية أنت تأخرت فى مجيئك بالجلباب ، فالعيد لم يبق عليه غير يومين والخياطون مزحومون على الآخر يعنى سوف تعيد روحية بجلبابها القديم ولن يكون للجديد فرحة .. ياقر ياابن ديك الكلب هل أنت معى أم معها ؟ هل أنت تائه عن البير وغطاه ؟.. فغمز القمر بعينه غمزه خبيثة ودارى نفسه فى بطاطين السحاب، وصار يساهينى ويطل برأسه من السحاب بغمزة خبيثة ويختفى قبل أن أنف فى وجهه . صار يرمينى بالحصى.. هو من ناحية والبراغيث من ناحية ثانية. فلما ارتفع غضبى إلى عنان السماء ملامسا أطراف السحاب ظهر القمر الشقى كأنه يصالحنى : إختفت الغمزة

الخبئية من وجهه فبقى راثقا وبقيت متوجسا من شقاوته؛ لكنه جعل يتنزل يتنزل حتى قعد على حجرى كطفل ملظظ تفوح مه رائحة اللبن؛ فشعرت فى الحال بأنى يجب أن أدلعه أهشكه أرمى به فى الهواء كالكرة لألقفه بسرعة واضمه أطوى عليه صدرى. استكان القمر على صدرى مجددا فى السماء بنظرة بريئة؛ فرأيت الله سبحانه وتعالى كالفانوس يرفع قلبى على قراطيس ضوئه الملون بألوان الزهور؛ فصحت هاتفا : الله اكبر ؛ فجاوبنى هاتف أقوى : الليلة ليلة القدر أقق يا بجم يامن تدعى وهدان ؛ فهذه هى طاقة الضوء التى تسمع طول عمرك أنها تنفتح فى السماء علامة على ليلة القدر، فمن قدر له أن يشهدها فعليه أن يدعو فى الحال بالدعاء الذى يريده يتوجه بالأمنية التى يحلم بها فإذا هى متحققة فى الحال. هى طرفة عين من عمر الزمن انسدت عليها الأجفان قبل أن اتملاها. سرب من طيور الأمنيات والأحلام هب فزعا من أعشاش دماغى ، لا أعرف لأى منها أبدأ بالدعاء لكن الفانوس انطفأ كما انبثق فى لمح البصر؛ فاخفى سرب الأمنيات ولم أعد أرى سوى ظلام الفقر والعوز وشخير روحيه..

«إخفى القمر فلم أجد على صدرى غير هذه التلغية السمراء التى علشرتنى نصف عمرى على الحلوة والمرّة وهامى تشهد على صدق مالحكى. خلعتها ، نفضتها، فرشتها تحت دماغى

جاءتنى لذة فى أن أنام بغير سحور عامدا متعمداً ، لتحس بنت الرفضى فى الصبح كيف أنها نكدت على وعلى نفسها. زن البراغيث يسابق قرصها : أنت مكتوب عليك الشقاء يا وهدان يا ابن جبرية ؛ أنت شقيت كحمار السباح لم تهنا حتى بالتبن الحاف بغير قول. لكن عيبك فاضح جداً يا وهدان وكل الدنيا تعرفه . أنت تشاقيت على شقاء ؛ فعلت كل ما يغضب الله ؛ ياما ارتكبت من ذنوب؛ ياما اندفعت ياما استهترت ؛ ياما فسقت. لكنك تبت يا وهدان وأصلحت غلطتك ؛ كفرت عن ذنوبك فلا بد أن الله يقبل التوبة وإلا ما فتح لك الليلة طاقة القدر. صحيح أنك لم تلحق بها دعاءً إنما الله يعرف ماتريد وتهوى ؛ أن تعيش لك يومين فى راحة وبغدة تعوض شبابك المحروق كله فى الكوانين ..

« وحدى فى حوش الدار، وشخير روحية ؛ لكن طرف التلغية الحاجز بين عيني والقمر لم يحجز عن دماغى صحوة الناس فى الشوارع . الدنيا صامتة أى نعم ؛ إنما فيها نفس صاح ، ودب أقدام على الأرض رائحة جائية، همس وضحك وكلمات طيبة يبين منها أن الدكاكين كلها سهرانة والناس أسهر ؛ كأنهم ذاهبون إلى فرح أو قادمون من عرس فلا بد أنه عرس كبير فلا بد من هو ياترى مع أنه لا طبل ولا زمر ؟ .. هتف الهاتف : شفت يا وهدان يانائم على أنديك ؟ شغلت نفسك بتجهيز الإنبساط هذه الليلة

مع بنت الرفضى فنسيت أن البلدة فى انتظار بغلة العرش. يه ..يه..يه .. قف عندك ياابن جبرية واعرف مركزك أظن أنك أنت، ياابن جبرية ياكحيان ياضلالى ياابو ديل نجس، يمكن أن تجيئك بغلة العرش؟! ياأخى هدهه.. ياشيخ اتلهى. أولى بك أن تدعو الله أن يقبل توبتك. معقول هذا ياابن جبريه ؟ بعد كل مافعلته يقبل الله توبتك ؟ والله ماظنى . مشى النمل فى عروقى كلها ؛ فالأكلان فى ساقى والقرص فى دماغى وأجنابى..

« نفضت نفسى واقفا ، مالىذى يبقينى جنب بنت الرفضى هذه والبلدة كلها ساهرة ؟ والله لأخرجن فلا أعود حتى الصباح. مشيت كالدهل ؛ فى رأسى قنطرة السلمونية ؛ القعدة فوقها تخيف جميع أنواع البراغيث فتهرب. الحمد لله أن وجدت الناس المتعلمين أهل الصلاح؛ ليلتنا فل بإذن الله ؛ هذا أول فال براحة القلب؛ ياما نويت الذهاب إلى الشيخ عبد المقصود ابو غلاب فى داره لأفتح له قلبى ، لينورنى . أنا محظوظ ؛ طلبت الشيخ عبد المقصود وحده فنولنى أهل العلم كلهم . فوحق من جمعنا على غير ميعاد فى هذه الليلة المفترجة انى سأحكى كل شئ بصراحة كاملة لأعرف هل يمكن أن يقبل الله توبة منجوس مثلى بمجرد أن أطلبها ؟ أم أن الأمر يحتاج منى إلى أعمال أعملها وكفارات ؟ طب مانا يكون الأمر لو أنتى عجزت عن هذه؟!..»

جسمى لم يعد خالسا ياعم الشيخ عبد المقصود.. تلقيت من الله رسالة : فتح لى طاقة القدر ولخمنى لخبطنى فى نفس الوقت ليحرمنى فرصة الدعاء فهو سبحانه يكيد لى إذن ؛ لأنى طرمخت على ذنوبى الكثيرة كأنها ماكانت .. ذنوبى كثيرة ياكدعان وثقيلة ، وأنا ابن ناس طيبين ..

- « أبوك يرحمه الله كان درويشا فى مشيختنا ؛ وقد بكى عليه أبى يوم وفاته !! » ..

« .. أكرمك الله ياعم الدكتور ؛ هذا من أصلك. لكن. مانا أقول ؟ النار تخلف رمادا كما يقول المثل. الذنب ذنبى أى نعم لكن المستول هو إبليس ، أقصد صبيحه بنت عمى . كل العائلات فيها الخير والشرير.

وإذا كانت الملعونة إسمها صبيحه جابر عقل ، فإن القدر إذا انقلبت على فمها تطلع البنت لأمها ، وقد طلعت صبيحه لأمها بالفعل ، ودم العقالوة برئ منها ..

- « إخذ الشيطان ياوهدان فأنت الآن تخرم فى سيرة الناس وأعراضهم ؛ فلا تحملنا ذنوبا لا ذنب لنا فيها !! » ..

« .. هذا والله ما حسبت حسابه ياابو نجم قبل أن أتكلم ؛ لكننى لابد أن أتكلم حتى أزيح الحمل عن ظهري وقفاى . كونك من غشاق صبيحه ؛ وكونها تفتح لك دارها ورجليها لكى تحميها ليس له دعوة بما أتكلم فيه، وعموما فعمى الشيخ عبد المقصود

زوجته - ربك والحق - بقيت تنتظره سنين طويلة لا تخلع الجلباب الوردي حتى تخيلنا أنها مجنونة. فى كل ليلة كانت تمسح زجاجة المصباح وترتب فرش السرير وترشه بالعطر وتترزين لاعتقادها أنه عائد؛ سيطرق الباب فى عز الليل كما كان يفعل فى كل عودة، ويدخل ليقضى أربعاً وعشرين ساعة فى حضنها ..

« تعلمون أنها كانت أجمل صبية ، طول بعرض ، الوجه فلقة بدر، الصدر رمان، البطن عجين خمران، عود ولا غصن البان بلطية. شبان البلاد كلها دارت عليها قدمث الفدايين مهرا لكنها تزوجت صفوان ابن عمها عن حب ، منذ كان تلميذا فى كلية الحقوق وهى متعلقة به وهو يكتب فيها الأغانى. أبوها مات مطمئن البال قبل عرسها بسنتين وهو يعلم أن البنت مستورة بإذن الله. وصفوان ابن عمى أجل تجنيده حتى ينتهى من الكلية. فلما تخرج تأجل فرحه حتى ينتهى من خدمة الجيش لكن أمه لم توافق ؛ الله يرحمها شعرت أن تجنيده سيطول، وفرحت ببذلة الضباط التى جاء بها بعد التجنيد لاثقة عليه تزغرد على جسده . أبوه كان مستعدا له بالمطرح المبنى فوق الدار من أجله، وبالعفش من دمياط ؛ وكان رحمه الله هو الآخر يعرف أن البنت مصيرها إلى داره حتى لو لم تتزوج ابنه ؛ ففعل بالزواج ؛ ووافق صفوان لأن الزواج يفيد ويعطيه حق الإجازات الكثيرة،

هو الذى يقول إن كنت أتكلم أو أسكت ...

- « دعوه يفضفض ! فما يقوله ليس أكثر مما يقوله الناس كلهم !! » ..

- « يا عم الشيخ عبد المقصود نحن فى ليلة مفترجة وحرام أن نقول مثل هذا الكلام فنرتكب الذنوب !! » ..

- « الذى يخاف الذنب يمشى من هنا ويتركنى مع الشيخ فأنا بصراحة لابد أن أتكلم ! الجدع فيكم يجب أن يسمعى ليعرف مالىس يعرفه فيستفيد ! ماسأقوله يهمكم جميعا ! وأنا لو سكت فأنتم جميعا تغلطون فى حق أنفسكم ويلدكم ! هيه !! » ..

- « تكلم ياوهدان ! لت واعجن كما يحلوك !! » ..

« .. شف يا عم الشيخ. شوفوا يا جدعان. الحكاية من أساسها حرب. سبعة وستين السوداء . يومها صحونا من النوم على الصوت فى أغانى الراديو ؛ فعرفنا بالفهلوة أن البلد حاربت وانتهزمت . لم يحاربنا ثلاث هذه المرة كما حدث يوم كنت أنا فى التجنيد ؛ إنما الذى حاربنا وكسرنا وكسر عظمنا دولة واحدة اسمها اسرائيل عدد سكانها كعدد أهل بلدتنا وحدها . صفوان ابن عمى زوج صبيحه كان فى الجيش وكان عريسا لم يمض على فرحه أكثر من شهر؛ يعنى أن يده التى أمسكت بالبندقية فى العريش وسيناء كانت مصبوغة بالحناء. كل العساكر عادوا مكسورين مشوهين إلا صفوان ابن عمى لم يعد بتاتا. صبيحه

كما أن شوقه لصبيحه كان قد فاض . المسكين لم يكن يعلم أن شهر العسل بالنسبة له سيكون شهر المر والكوارث : فهو لم يهنا بحضن زوجه غير بضع ليال جاءت الإشارة بعدها ليتوجه إلى كتيبتة ، فسافر وهو مقهور ، لأن المحرمة البيضاء التي كان من المفروض أن تتبقع بدماء البكارة كانت لا تزال بيضاء . ولما سألناه بانزعاج عن الأمر قال إنه من شدة حبه لصبيحه لم يتمكن من القيام بهذه العملية لشدة خوفها منها فتركها حتى يمهّد لها التمهيد الجيد ، فالمرحوم كان مستعداً بإجازة طويلة ولم يكن يعلم أنهم سيستدعونه في الليل على هذه السرعة المفاجئة : فكانت آخر سفرة لم يعد بعدها ..

« بعد سنين اضطرت الحكومة فأبلغتنا بأن إبنا مفقود ومعدود بين الشهداء : وصرفت لصبيحه تعويضا وراتبا شهرياً . الجرح لا تداويه تعويضات ولا مرتبات : سقط أبوه ميتاً من الصدمة والحزن : بعده بقليل لحقت به أمه : أما أخوه الصغير الذي كان سببا في تجنيده فقد مات هو الآخر في العراق . بعدهم جميعا ماتت أم صبيحه . بقيت صبيحه وحدها في الدار كقرد قطع : الجلباب الأسود يزد بياضها بياضا : الحزن يلهب خديها بجمرات حمراء : يظلل عينيها الواسعتين بحرمان وكتمان . لم يكن أثن تخين في رجال العب كله يقدر على النظر في عينيها إلا ويقع من طوله : فيعرض عليها المهور الغالية في سبيل أن

تتزوج : وهي صامدة كأرجل الرجال بصورة أعجبتنا ولا بد أنكم تتذكرونها في تلك الأيام : أيام أن أرادت : إغلاق باب الأمل في وجوه الجميع ، فجعلت من المنردة التي كان المرحوم ينوي أن يحولها إلى مكتب للمحاماة في البلد : دكانا لبيع الخضار والفاكهة تتسوقها من دسوق نفسها . أصبحت معلمة قد الدنيا ، ولم تفكر في الزواج احتراما لذكرى المرحوم . لكن بلدتنا هذه عجيبة : لم تصدق أن صبيحه تصبر كل هذا العمر بغير رجل ، ولا بد أنها ترافق أحد الرجال في الخفاء وإلا كان زمانها انطقت وذبلت : فليس من سر لهذه الرعرة في جسدها وخديها سوى أنها تجامع الرجال في السر . صاروا يتجسسون عليها ، ضايقوها ، ألفوا لها حكايات شنيعة : قالوا إنها ترافق جنياً من أهل تحت الأرض : وقالوا إن شبانا من تجار دسوق يجامعونها . سافروا وراءها وعادوا بغير عقولهم لأنهم وجدوا تجار دسوق يحترمونها ويخشون بأسها . أنا نفسي سافرت وراءها بالخنجر والبندقية فلم لاحظ عليها أي شيء يغضب الله . لكن الدوى في الأذان أقوى من السحر ، لدرجة أنني كذبت عيني وصدقت الإشاعات مثلما صدقها كل الناس فلو حلفنا لهم على المصحف أنها بريئة ماصدقوا ..

« صبيحه رأت نفسها في عيون الناس خاطئة مهما ثبتت براءتها : فدار في عقلها أن تشوف حالها قبل أن يموت شبابها

موتته الأخيرة . فى هذه النقطة كانت براعتها التى أذهلت الجميع وجلبت عليها الحقد والحسد، لأنها كما يقولون : وقعت واقفة . قال بعض الطيبين إن الله عوض عليها طول صبرها . وقال الخبثاء إنها عاهرة محترفة وإلا ما وقعت بهذه الضحية الثمينة . وفى ظنى أنها لم تكن عاهرة ولا محترفة ؛ إنما هو النصيب لا ذنب لها فيه ولا يد. الحاج على داود زارها فى الليل بعد صلاة العشاء . وكانت هى حصيفة؛ فتحت باب الدكان أضاءت الكلوب قعدت أمام الحاج متربعة بجلبابها الأسود. ركن عندها أكثر من ساعتين مندمجا فى كلام وودوده ؛ وهى محمرة الخدين ترد بهزة من رأسها أو بتشويحة من ذراعها . شقّرتُ عليها أكثر من سبع مرات؛ أفوت على الدكان فأقف قليلا؛ أطمئن على أن الوضع بينهما لم يتغير؛ أتقرفص فى الظلام على المصطبة المحاذية لباب الدكان لعلنى أسمع شيئا ، فلا أسمع؛ فأقوم وأمشى فى البلد ثم أعاود المرور ؛ مصلحة ؛ أطرّد الواغش الذين يتلكعون على باب الدكان .. صعب على أن أقاتحها فى الأمر ؛ فهى مهما كان من لحمى ودمى؛ لا أرضى أن أجعلها تشعر أنى أشك فيها مثل بقية الناس؛ أما الحاج داود فهو فى النهاية حاج ، وتاجر ؛ وهى أيضا تاجرة ، والشغل بينهما جائز. لكن زيارات الحاج على الليلية تكررت؛ كل يوم و الثانى أرى بغلته مربوطة فى حديد الشباك وبوزها مدفوس فى مخلّة

العليق . ربك والحق فار دمي؛ لعب الفأر فى عبي؛ قلت لا بد أن الحاج على يعرض عليها الزواج على سنة الله ورسوله؛ وقلت لو أن الموضوع هكذا يادار مادخلك شر. فلماذا لا ؟ وقلت يجب أن أسألها خبط لزق من غير لف ولا دوران :

- ماذا يريد منك الحاج قرء يا صبيحه ؟!

« إحمر وجهها ؛ قالت :

- سأقول لك ولكن ليس الآن !

- يعرض عليك الزواج ؟!

« قالت وهى تعيد لف الطرحة حول رأسها :

- ليس الآن !

- صارحيني يا صبيحه ! لا بد أن يكون معك رجل يسندك فى

موضوع كهذا !

« إعتدلت أمامى على المصطبة :

- شف يا ابن عمى ! هو فعلا يعرض على الزواج !

ولكن ! ولكن ...!

- ولكن ماذا ؟ فسرى !

« وجهها صار كركية النار :

- ليس هو العريس !!

- فمن يكون العريس ياترى ؟ هل يشتغل خاطبة على آخر

الزمن ؟!

« إرتاعت ؛ وضعت يدها على فمى ؛
 - ستفضحنا ياوهدان ! إنه مجرد كلام !
 والكلام ليس عليه جرمك !
 - أحب أن أعرف شخصية العريس !
 « تمهلت قليلا ؛ قامت فأتت ببراد الشاي من فوق المنقذ ؛
 صارت تصب الشاي فى الكوبة. جعلت أرقب وجهها ، فأعرف
 انها مهمومة لكنها فرحانة. قدمت لى الشاي ؛
 - الرجل ياابن عمى مجرد رسول ! واسطة خير !
 كثر الله خيريه
 - أريد أن أعرف شخصية العريس ! لا أحد يمنعك من الزواج
 على سنة الله ورسوله ! لكن بشرط أن نتأكد من شخصية
 العريس ! فمن هو ؟ من بلدتنا ؟ من أولاده ؟ من أقاربه ؟..
 « طفع وجهها بالخجل ؛
 - يقول إنه أمير عربى من السعودية !
 « فكأنها خبطتنى بمنقذ النار فى دماغى. وقفت على حيلى ؛
 - ماذا قلت يا صبيحه ؟!
 « شوحت بذراعها الملفوف وقد ظهر عليها الندم لمصارحتى ؛
 - ستفضحنا ياوهدان !
 - وأين رآك هذا الأمير العربى ؟!
 - رأنى حسب كلام الحاج على فى سوق ! فهو

يعرف التاجر الذى أشتري منه ! فسأله عنى فقال له كلاما
 طيبا ! واتضح أنه يعرف الحاج على أيضا ! التاجر قال له : عليك
 بالحاج على فهو يخدمك ويكلمها ! فجاء الرجل يكلمنى !!
 - وهل وافقت ياترى ؟
 - كل مرة أقول له سأفكر سأشاور ! وهو يقول لى كلاما
 كبيراً يوقف شعر رأسى ! سيبنى لى سراية فى مدخل البلد !
 سيشتري لى سيارة ويعلمنى السواقة ! سيكتب باسمى رصيذا
 فى البنك ! سيقيمنى فى البلد ويجئ لى كل وقت ! سيجعلنى
 أميره ! مستعد لتقديم كل ماقاله قبل أن نكتب الكتاب لكى
 أصدقته ! فما رأيك فى هذا الكلام ياابن عمى ؟ شاورنى !
 « مخى شت ؛ لكنى قلت ؛
 - والله ياابنة عمى هذا كلام ولا فى الحواديت !
 وعلى كل حال خلك وراء الكذاب لحد باب الدار !
 أنت فى النهاية وراءك رجال وكان يجب أن يخطبك منهم لا
 من الحاج قرد ! و...
 - هو يريد أن يعرف رأى فى الأول وبعدها يجئ ليطلبنى
 منكم طبعاً !
 « بصراحة شاورت نفسى فرايت أن أميراً سعودياً من رجال
 المال حين يناسبنا يكون فى ذلك مصلحة كبيرة لنا كلنا ، وقلت
 أيضاً إن الدنيا لم يعد فيها مستحيل ؛ وقلت لها ؛

- وافقى بإصبيحه ! دعيه يجى ليقابلنا !

« ضميرى ساعتها أننى أضعها فى مزلق هى والحاج قرد .
ولم أصدق أننى لما أخبرتنى صبيحه بعد أيام قليلة أن العريس
قادم يوم الجمعة ليقابلنا . طرت هنا وهناك أكلم الأهل
والأقارب . يوم الجمعة امتلأت دار عمى الكبير فى شرقى البلد
بالرجال . حضر الحاج على ومعه رجل عريض ضخم الجثة
كالفيل يتدفق المال من ثيابه ويديه ؛ بجمل هدية للعروس عبارة
عن فرع ذهبى ثمنه عشرين ألف جنيه عربون الموافقة ، إذ أنه
عرف أن صبيحه بنت بنوت . المقصود إبتنى لها السراية بالفعل ،
واشترى لها السيارة ، علمها السواعة ، جعلها أميرة . لم نصدق
أن هذه الحورية الأميرة هى صبيحه التى نعرفها ؛ صار عندها
خدم وطباخون وسفرجية يقبضون ماهيات كبيرة ..

« حكايتها أصبحت حدوتة مثل حواديت الشاطر حسن
وست الحسن والجمال . إتضح أن الرجل لم يكن أميراً ، إنما هو
من كبار التجار الأثرياء؛ أراد أن يجعل لنفسه داراً فى مصر
يقضى فيها أيام عمله فى حضان امرأة صبية لن تكلفه فى الشهر
مايتكلفه الفندق فى ليلتين . ويظهر أنه وجد الأجمل منها فى بلدة
أخرى فانتقل إليها وترك صاحبتنا . إنقطعت زيارته . داخت
وراءه . إستطاعت المنجوسة أن تتوصل إلى عنوانه فى
السعودية ؛ ذهبت إليه ؛ عادت بورقة الطلاق ومبلغ كبير لا

أعرف كيف أنطق رقمه ، فأصبحت هى من أصحاب الأرصدة
الكبيرة فى بنك مصر لكن جوعها للفلوس والعز لا يتوقف ..

« كان لابد أن أبدأ كلامى بما تعرفونه لأصل إلا مالا تعرفونه .
السراية فى مدخل البلد لا شأن لها بالبلد؛ حراسها كلاب
متوحشة لا تعاشر ولا تأمن لأحد غيرى؛ تتركنى أمشى فى
الممر الطويل الكثيف حتى أصل إلى باب السراية فأضغط
بأصبعى على الزرار . تفتح لى إحدى الخادومات؛ أجد الصالون
ملأنا بالخلق من كل الأشكال والألوان تجعلنى أتلذذ من محاولة
ربط كل منهم بإحدى السيارات الراكنة حول السراية : أفندية
وجلابيب ودشداشات ودائما أبدأ يتضح لى أن أصحاب المرسيدس
هم من لابسى الجلابيب المترهلة . العزائم لا تنتهى كل ليلة .
من هؤلاء ياست ؟! هم ضيوفى ياوهدان ولا شأن لك بهم أو بأى
شئ فأنت لست وصيا على لكنك تستطيع أن تأكل الشهد من
ورائهم إذا لينت مخك الناشف هذا . فعلا أنا لست وصيا عليها .
صبيحه أصبحت تعرف الكلام الكبير كما تعرف الناس الكبار
فأقل واحد فى ضيوفها - كما قالت لى - يستطيع أن يتاوينى
تحت الأرض ..

« ربكم والحق سكت . فمن أنا حتى أقف فى وجه واحدة
انفتحت لها طاقة القدر فأصبحت ينام تحت قدميها مأمير وحكام
وأعيان وأمراء وقطاع طرق ؟! أنا فى النهاية مجرد نفر يشتغل

- كيف ياست !؟

- سيدفع العريس عشرة آلاف جنيه مهراً للبننت ! ويجهز كل شئ ! يأخذها بهمة البيت ! وإن طلب أهلها أى مساعدة سيقدّمها ! أما أنت فلك مائة جنيه عندما تجئ بالموافقة ! ومائة أخرى عند كتب الكتاب ! تأخذهما منى !

« ماكذبت خيراً . من صبيحه ربنا -- ركبنا إلى عزبة العرب : فالتقيت عبد السلام كحك حدثته فى الموضوع . المنجوسة عرفت كيف تختار : العروس حورية : والأب فقير لا يجد للضى . ماأن سمع رقم العشرة الالاف حتى وقع مغشياً عليه من الفرح . نفس الشئ حدث لزوجته : أعلنت فى الحال موافقتها ! لكنها كانت أكثر حصافة من زوجها الدغف : طلبت منى - إن كان العريس جادا فى طلبه - أن يرينا كيف أنه اشترانا - كيف ؟ قالت : عندى ولدان أطلب لهما شغلا فى الكويت . نقلت طلبها للست صبيحه : فلم يمر أسبوع إلا واشتغل الولدان بدبلوم التجارة فى محلات فى الكويت بمرتب كبير . ثم جاء العريس فاذا هو رجل فى السبعين من عمره أو يزيد . خيل لى أنه سيخطبها لحفيده : فلما اتضح أنه هو نفسه العريس تململ الكل فى قعدته ! لكن رزم الفلوس حينما القيت على الطبلية خيط الجميع أفواههم . بعد جمعة واحد انتقلت البننت المسكينة إلى الكويت حيث لا أحد يعرف عنوانها بالضبط : من يوم سفرها لا

باليومية عند الناس : ومادام الكبار فى العائلات يسكتون فليس يحق للصغار أن يتكلموا . قلت : ياولد فتح مخك وعش : شف أخرتها مع الست التى طلعت لنا فى آخر الزمن . وأخيراً جاء ذلك اليوم الذى لا أقدر على نسيانه أبداً : تعشيت مع الضيوف على ترابيزة السفرة ديوكاً رومية وحماما محشوا بالمكسرات : شربت مما يشربون من زجاجات تساوى الزجاجاة وهى فارغة ثقّلها ذهباً فما بالك وهى ملآنة . فى عز الليل غمزتنى كالعادة بطرف عينها تذكرنى بواجب الإنصراف . فلما استأذنت ومضيت نحو الباب سحبتنى إلى غرفة جلوس أخرى داخلية . أضاءت نجفاتها كاشجار فى الجنة . دعتنى للجلوس فجلست . جلست أمامى كالحورية قدمت لى سيجارة أجنبية : صارت تشرب السجائر هى الأخرى كبطلات الأفلام . أعطتنى علبة السجائر كلها ومالت نحو رأسى هامسة :

- أنت تعرف عبد السلام كحك طبعاً !

- بتاع عزبة العرب ؟

- هو !

- طبعاً أعرفه !

- فيه عريس لقطة لبننته محاسن !

- محاسن هذه طفلة ! تلميذة فى سنة أولى إعدادى !

- لا يهم ! إذا جعلته يوافق ينفتح له باب السعد ولك أيضاً !!

حس ولا خبر . بعد بضع شهور عادت إليهم بشنطة هدومها رفيعة كالعصا، مصابة والعياذ بالله بأمراض حار الحكماء فى معرفة علاجها؛ فى يدها ورقة الطلاق؛ وفى اليد الأخرى مبلغ من المال خلصه الحكماء فى جمعيتين ..

« لم يعد لنا شأن بهذه ، تمرض أو حتى تندعق ؛ إنما اللعبة اخلوت ؛ زينها لى إبليس ، صارت بثرا من الفلوس أغرف منه بالحفان فالست صبيحه لا تهمد ؛ كل يوم ترسلنى إلى بلدة من البلاد والعزب والكفور المجاورة لبلدتنا . تنشئ على البنية فلا أعرف كيف عرفتها ومتى رأتها وأين . مخى المظلم لم ينبهنى إلى أن المدة التى اشتغلتها صبيحه فى تجارة الخضار والفاكهة عرفتها على كل بلدان الناحية وأهاليها . كل يوم والثانى أقبض المائة الجنية عقب الموافقة وعقب كتب الكتاب غير بقشيشات من العرسان من ملابس وأحذية وسجائر وحلويات لم أكن سمعت بها من قبل لم أعد أنكر عدد البنات المسكينات اللواتى قمت ببيعهن لرجال فوق السبعين والثمانين من العمر بمهور تبدو كبيرة فى نظر أهاليهن الفقراء وهى فى حقيقتها لا تساوى مصاريف ليلة واحدة ينفقها العريس على راقصة . بثمن سهرة واحدة يفيض بكاراة طفلة جميلة بريئة يبهدل جسدها الغض يعلمها العهر؛ وبعد أن يعصرها عصراً طول سنة أو أكثر أو أقل يعيدها إلى أهلها كمصاصة القصب مريضة هفتانة موتها أفضل

من حياتها. مرات كثيرة - ربما بعدد شعرى رأسى - كنت أتصادم فى أحد الأسواق برجل يكاد يطبق فى زمارة رقبتى ؛ فأحاول معرفة السبب، فيتضح لى بعد برهة أنه أب أو أخ أو عم بنت من البنات اللاتى بعتهن للديوك العجوزة. ألجأ إلى الإستعباط والإدعاء بأنى وفقت رأسين فى الحلال فلا ذنب لى . يقول لى من يريد خنقى إن البنت جاءت تشكو من التعذيب الذى وقع على جسدها لسعاً بالكرباج وكيا بالنار وعضاً بالأسنان؛ لأن بعض العرسان كانوا مصابين بالشذوذ يريدون إتيان البنت من الخلف فتمتنع فيمزقها بالكرباج، وبعضهم يجامعها بجنون كالحيوان فيقضم من ثديها قضة أو من خدها؛ وبعضهم كان يريد أن يعرضها على أصدقائه. بعض هؤلاء الفتيات متن قبل وصولهن لأهلهن؛ وبعضهن بعد وصولهن بقليل ؛ وبعضهن لم يصل عنهن أى خبر ولا يعرف لهن أى عنوان. من حسن حظى وحسن تصريف هذه المرأة الجهنمية أنها اتجهت إلى البلدان المجاورة حتى لا تخلق لنا المشاكل فى بلدتنا ؛ لكننى صرت مهددا بقطع الرقبة من كثير من الجيران. شكوت حالى لصبيحه فاخترت لى مهمة ثانية. صارت تبعثنى كل ليلة فى طلب : هل تعرف دار البنت الأرملة فلانة الفلانية؟ نعم؛ إنذهب وقل لها إننى أطلبها لشغل فى السراية . من عبطى وعماء قلبى أفعل. تجئ فلانة وفلانة وفلانة، وكلهن أرامل

مات أزواجهن أو غابوا فى بلاد المال سنوات طويلة. أرى صبيحه
تستقبل الواحدة منهن فتقودها إلى الحمام ، لتخرجها بقميص
النوم الشفتشى ؛ تضع على يديها صينية بأكواب الشرب ؛ تدفع
بها إلى الصالة الكبيرة الجوانية المطلة على الجنيينة. أظن أنا
كالأهبل فى الزفة إلى أن تجيئنى غمزة العين تأمرنى
بالإنصراف . كنت أنتظر هذه الغمزة وأضيق بها فى نفس
الوقت؛ فعندها سأقبض البقشيش ، وبها سأحرم من رؤية بقية
السهرة. تشيعنى الكلاب بالتحية ؛ لأظل بقية الليل أدعك نفسى
فى الفراش حتى أستريح فأنام منهوكا.

« ماجاء بلاش راح بلاش. صدق المثل؛ فكل المكاسب التى
كسبتها من وراء صبيحة راحت فى الفاشوش؛ صرفتها على
سهرات أأكل بها السهرات التى أحرم منها فى عز ابتدائها، على
نسوان كحيانات أتقيا فيهن توترى؛ بل إننى صرت أشتري
الخمير من دسوق لأنى صرت مدمنا. عرفت طريق الخمارات
والبيوت السرية التى قيل إنها انتهت من عهد الثورة وهى فى
الواقع على عينك ياتاجر؛ غير أنها مكلفة. غرقت فى بحر
الذنوب حتى شعر رأسى. بيت النتاش مايعلاش كما يقول المثل،
كل شئ ضاع على دماغى ودماغ إيرى. إنما وحق هذه الليلة
المفترجة أننى بينى وبين نفسى لم أكن مبسوطا من نفسى؛
وكان الله يعذبنى فيضع أمامى فى كل سكة أمشى فيها واحدة

من البنات المساكين؛ أرى الواحدة منهن فيركبنى ألف عفريت،
فكلهن يبدو عليهن الفرع . بكيت مرة بحرقة، لما رأيت بنتا كانت
فى الثانوية العامة يوم بعناها بخمسة آلاف وعادت بعد ثلاثة
أشهر مسلوقة العقل لم تتعرف على أحد من أهلها فصارت
تمشى فى الشوارع مهلهلة الثياب تسيل الريالة على صدرها
العارى، تعرج عرجا خفيفا وتنظر للناس بخوف ثم تبتسم فى
بلاهة ؛ والأطفال يعاكسونها؛ فتصرخ وتمزق وجهها تشد
شعرها تتمرغ فى التراب. ضربت الأطفال صرفتهم عنها،
حتوت عليها مشيت معها حتى السكة الزراعية الموصلة لبلدتها؛
لكنها انطلقت تجرى بسرعة والهواء يرفع هلاهيلها عن أقدامها
البيضاء المبرومة؛ فما كادت تبتعد عنى حتى انحنت تلم الطوب
والحصى تقذفنى به وهى تضحك وتبكي. فرجعت إلى دارى
أيكى. بقيت طول الليل أتمنى لو أنها كانت عاقلة لأعرف منها
ما الذى فعلوه بها لكى تصل إلى هذه الحالة. رقدت جمعيتين لا
أذهب إلى صبيحه ولا أطيق سيرتها. فجاءت هى لتطمئن على،
رشقتنى بالحقن، نفحتنى بريزتين، قالت : سافر ورفه عن
نفسك. رأيت فرقة الدراويش الشرانبة يستعدون للسفر إلى
مولد البدوى للحاق بالليلة الكبيرة . قلت : ناداك أبو عرب
ياوهدان فاركب إليه.

فى خيمة الخدمة عرفونى على الشيخ إبراهيم؛ فملس على

كتفى، وطلب الرحمة لأبى، ثم قال :

- تب يا وهدان ! راحتك فاحت فى كل مكان والمرحوم يتفرز
الآن فى رقدته ! لن أضع يدي فى يدك النجسة إلا بعد أن تتوب
وتتطهر وتعود إلى الله !

« ذلك اليوم لا أنساه . صار أبى يطلع لى فى المنام كل ليلة
أزرق الوجه تفح منه السنة اللهب تلسعنى كلما اقتربت منه،
فأرثد صارخا، فيقترب هو منى يحاول أن يأخذنى بالحضن وأنا
أقر صارخاً فأتكعبل فى خطواتى فأقع والنار تسقط فوقى. العين
بصيرة واليد قصيرة. عدت غصبا عنى إلى صبيحه؛ فهى مصدر
رزقى الوحيد بعد أن نسيت يدي مسكة الفأس ونسى ظهري
الانحناء على الأرض . طلبتنى فى مشوار إلى البندر. الهاتف قال
لى : وافقها هذه المرة ولتكن الأخيرة تتوب بعدها توبة نصوحا :
-تسافر اليوم إلى دسوق وتنتظر فى قهوة بنى حتى الساعة
الرابعة يجيئك الشيخ ابو نواف الذى رأيتة عندي كثيرا سيعطيك
صندوقا كبيرا به زجاجات هاته فى عربة أجرة وتعال !
وهذه اجرة السكة ومصاريفك !

«إتكلت على الله . مررت على الخمارات جسست النبض
واتفقت على الأسعار . تغديت وجلست على قهوة بنى حتى جاء
ابو نواف بسيارته الملاكى الكبيرة؛ ترك لى صندوقا كبيرا
وانطلق إلى حال سبيله . فتحت الصندوق فإذا به يحتوى على

خمسین زجاجة من ذلك المشروب المسمى بالجن. بعربة يد
صغيرة نقلته إلى الخمارة التى اتفقت معها؛ قبضت رزمة تخينة
من الفلوس الخشنة الخضراء ورقا بعشرينات . سكرت لآخر
مرة فى حياتى. أمضيت فى دسوق ليلة كاملة، إنزويت فى مكان
بعيد فمزقت هدومي وخبطت رأسى فى الحائط خبطات قوية
عورتنى. نظرت فى مرآة مرحاض المحطة فبدوت كأننى معتوق
من عصابة شريرة كادت تقتلنى من الضرب. سبكت الفولة بأن
عدت إلى البلد ماشيا، فلما وصلت إلى دارى دفنت الفلوس فى
الأرض، وتوجهت إلى صبيحه . رأتنى فصوتت. حكيت لها باكيا
أننى ركبت بالصندوق سيارة توصلنى إلى هنا فإذا بها تضم
عصابة حودت بى إلى سكة مقطوعة فضربتنى حتى أغمى على
ورمتنى فى الطريق واختفت. المرأة صدقتنى واستننى ببريزتين.
حبست نفسى فى الدار حتى شفيت. وفى صباح أحد الأيام حملت
فأسى وانضمت إلى أنفار العزيق. إمتنعت عن زيارة صبيحه
واسترجعت قوتى فى الشغل. وكنت مرتباً كل شئ فى دماغى.
وفى ذات صباح لبست الكشميرة وتوجهت إلى بلدة العجوزين
قاصدا بيت روحية، المنجوسة بنت الرفضى إمراتى. كانت روحية
من البنات اللائى بعتهن وعادت طفشانة هريانة بورقة الطلاق
مقابل تنازلها عن أى حقوق طرف زوجها. طلبت يدها فوافقت،
فاشتريت سريرا ودولابا وبعض الحل وبخلت على روحية

واعتبرت أنى بذلك كفرت عن بعض ذنوبى. وبدأت أصلى الفرض بفرضه، الفرض فرضين لأسدد ما على من ديون الله . لكنى شعرت الليلة أن الله لا يتقبل منى؛ فدبرنى ياعم الشيخ عبد المقصود وأنتم تعلمتم : ماذا أفعل ليتقبل الله توبتى ؟ أنا فى عرضكم ..

- « ياخلق الله .. كل هذا يطلع منك ياسفروت ؟! » ..

- « إخص عليك راجل نتن !! إتفوه !! » ..

- « تظن الله يتقبل توبتك ؟! » ..

- « عشم إبليس فى الجنة ! » ..

- « إن الله غفور رحيم ياسيادنا إلا تغلقوا باب التوبة فى وجهه ! » ..

- « صدعتنا وملأتنا نكدأ وغماً !! » ..

- « الواحد قرفان من نفسه ! » ..

- « ياما تحت السواهى دواهى ! » ..

- « يعنى ألقى بنفسى فى البحر لتستريحوا ؟! » ..

- « لو كنت مكانك لفعلت ! » ..

- « إتق الله يارجل ! » ..

- « مثله ومثلها عار على المسلمين يافضيلة الشيخ ! » ..

- « من أدرانا ؟ لعله يصبح من خيرة المؤمنين ! » ..

« صدقت يامولانا ! قلبى يحدثنى بهذا ! » ..

- « هذه بداية العبط ! الدروشة هروب ! » ..
- « من غير دروشة سأقضى العمر متعبداً !! » ..
- « خلص ضميرك وبلغ عن هذه العاهرة وعن نفسك !! » ..
- « إتق الله يادكتور ! إن الله حلیم ستار !! » ..
- « الدكتور محق ! الناس تعايرنا بهذه المرأة !! » ..
- « منه لله من كان السبب !! » ..
- « من كان منكم بلا خطيئة قليرمها بحجر !! » ..
- « العصر كله مدنس قذر !! » ..
- « نجومية ولاشرف !! » ..
- « ثروة وقتيل !! » ..
- « الكفتان متعادلان فاختر مايناسبك !! » ..
- « الحرام بين والحلال بين !! » ..
- « كل ميسر لما خلق له !! » ..
- « لا جديد تحت الشمس إلا العهر العلنى !! » ..
- « كل الكلم الطيب أصبح هزاه !! » ..
- « قاموس الشرف كله سئ السمعة !! » ..
- « الطرفان زاحف زاحف لا محالة !! » ..
- « إانه مجرد امتحان ! من يخرج سالماً هو الفائز !! » ..
- « وقيل هو الخاسر !! » ..
- « الدنيا طول عمرها دنيه والزمن غدار !! » ..

٧٣ ! فماذا فعلت أنت ؟!! ..

- « وماذا فعلت له الدولة ! بماذا نفعت بطولته ؟!! ..

- « الدولة كرمته ؟!! ..

- « بعربة العجزة هذه ؟ يحرك عجلتها بيديه فى شوارع

بلدتنا المطينه ؟!! ..

- « هو نفسه سعيد بوضعه ! يكفى أن شاعرا كجعفر العطار

يدفع له العربة طالما هو فى البلد ! وأى واحد فينا يرحب

بخدمته ؟!! ..

- « ماأخذ إلا خازوقاً مشفياً ؟!! ..

- « إسكت يا جده ! نقطنا بسكوتك ؟!! ..

- « السلام عليكم ؟!! ..

- « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؟!! ..

- « هات الباشمهندس هنا يا أستاذ جعفر ؟!! ..

- « تعال مطرحى أنا ؟!! ..

- « ماأجمل القمر وهذا الجمع السعيد ؟!! ..

- « بك وبشاعرك تكتمل سهرتنا ؟!! ..

- « سهرة سعيدة بإذن الله ؟!! ..

- « أهى سعيدة حقاً ؟!! ..

- « كيفما ترى يا شاعر المعلقات ؟!! ..

- « أرى أن يأمر الدكتور خفيره بعمل شأى لنا ؟!! ..

- « نحن كلنا ملوثون ! كلنا جراثيم معدية ؟!! ..

- « الكون كله صائر إلى خراب ! ستدمره التكنولوجيا ؟!! ..

- « لن يدمر الكون إلا صراصير العالم الثالث ؟!! ..

- « سيدمره الذين يشترون التكنولوجيا ولا يقدر

المسئولية ؟!! ..

- « الزعماء الجهلاء يشترون القنابل النووية ؟!! ..

وغدا يتعارك الفتوات بالقنابل يدلا من النبابت ؟!! ..

- « قولوا : اللهم نجنا من المجهول ؟!! ..

- « بل قولوا : اللهم نجنا من أنفسنا ؟!! ..

- « قلت ! هذا صديقك الشاعر جعفر العطار قد أتى ؟!! ..

- « إنه مدرس فى معهد المعلمين بكفر الشيخ ! أهو

شاعر ؟!! ..

- « ومشهور جدا فى القاهرة ! وله تلاميذ مشهورون ؟!! ..

- « مارأيته أبداً إلا وهو يدفع عربة المهندس عدلى ؟!! ..

- « إنهما أصدقاء صبا ! زملاء دراسه ؟!! ..

- « عدلى بقوش مهندس أم ضابط ؟!! ..

- « كان مهندسا ! فلما دخل التجنيد صار ضابطاً ؟!! ..

- « ليته ظل مهندسا فحسب ؟!! ..

- « هذا فى نظر بقف مثلك ! أما فى نظر الذين يفهمون فهو

بطل وطنى . ! شاب مثل الورد أكلت الحرب ساقيه فى أكتوبر

- «نحن كثيرون !!» ..

- «اسقيكم دمي لو أردتم !!» ..

- «كفانا الله شر الدم !!» ..

- «يا .. بعضشى . بعضشى .. هات عدة الشاى هنا !!» ..

٨ - مَنَزَلُهُ

.. «تساء لون عن هذه الندبة التى انحفرت فوق أنفى غيَّرت

شكلى فكانتنى متشرد بلطجى من مدمنى المخدرات ؟!..»

« هذه الندبة فى نظرى كعلامة مقدسة كزبيبة الصلاة تنطبع

على جبهة المصلين الاتقياء هى وسام شرف تطوع الجلاذ بمنحه

لى على غير رغبته ..

« معظم الصحف لا تأتى إليكم وإن أتت فلستم تفتحونها إلا

على مايعنيكم وماأقل مايعنيكم فيها لكن الكثير الكثير مما قد

يعنيكم فيها يضيع عليكم ولو أنكم تمعنتموه لما اضطررتم لمثل

هذه السهرة الحمقاء فى انتظار وهم كمعظم الأوهام التى

تعيشون بها ولها ..

« ماأنتم جميعا سوى رأس البقتيل الذى قيل إنه يحرس الثروة

حتى تصل سالمة إلى مفتصبها !..»

« ماأكثر عدد المفتصبين فى حياتكم وماأكثر ماتساعدونهم

على التضخم والتوالد والتكاثر كأنما يلذكم ألا تعيشوا بغير

مصاص دم ينتشى بدمائكم فتنتشون لنشوته ...!!

«الكثيرون منكم يرحبون بالفوضى لأنها تعطيهم الأمل مفتوحا ومفضوحا فى أن يجئ دورهم فى النهب والتضخم ...!!
« أنتم يا أبناء جلدتى من أسف تحترمون اللصوص وقطاع الطرق تقدرونهم تصنعون لهم التماثيل ...!!

« اللص بينكم دائما ظريف ومحبوب وأحيانا يكون شريفا ...!!

« أجدادكم منحوا بعض اللصوص وقطاع الطرق وسام الشرف لأنهم - اللصوص والقطّاع - ينوبون عنهم فى التصدى للحكام المستبددين للأقوياء الجبابرة يستلبون ثرواتهم يوزعون منها شيئا على الفقراء - ذرأ للرماد فى العيون - ويحتفظون بالباقي لأنفسهم ...!!

« ذلك أن أجدادكم كانوا عاجزين عن رد الظلم واقعين فى براثن القهر خائفين من سطوة سيف الحاكم راكعين لذهبه فباتوا يشجعون قطاع الطرق وعتاة اللصوص والشطار يمنحونهم شرف البطولة يتسترون عليهم لا حبا فى على بل كرها لمعاوية ...!!

« إنعكست الآية عندكم فبات لقب الشاطر - وهو قاطع طريق - مكافأة تمنح للأطفال الأنكياء والشبان النجباء والرجال الذين ينجحون على حساب أى قيمة ...!!

« قسمة غير عادلة . إستجرتم من الرمضاء بالنار ..

« لجأتكم إلى لص صغير ليحميكم من لص كبير فاستعان بكم اللص الصغير على حسابكم يصير لصا أكبر فتعيدون الكرة من جديد بحثا عن لص صغير توجهون نشاطه إلى لص صنعتموه أنفا وهكذا دواليك نعود فى نهاية كل دورة إلى نفس البداية . وآخر ماكنت أتصوره أن المتعلمين منكم أصبحوا أكثر استجابة للخرافات والأوهام من الدهماء والعامة ...!!

« تلك هى بدايات الإنهيا العام حيث لا يصبح ثمة بشر بمعنى الكلمة فوق هذه الأرض الطيبة المسكنة فيجئ من هو أجدر بها أقدر على حمايتها والإنتفاع بثرواتها شأن مصر فى جميع العصور حيث الثروة هى بيت القصيد هى المحور هى أس البلاء مشكلة المشاكل كلها : من هو أحق بامتلاك الثروة ؟ الحاكم أم اللص أم كليهما معا حين يصبح اللص هو الحاكم والحاكم هو اللص ...!!

« الثابت أن هذا هو ماحدث دائما : الحاكم اللص أو اللص الحاكم يستقل بالثروة وحده وبقية الناس لها الفتات أو بقايا فتات الفتات ...!!

« قديما قيل لجحا : ماوطنك يا جحا ؟ قال : هو مؤخرة بقرتى نقصد أن وطنه هو مصدر غذائه ! وحين يرى المواطن أن ثروة بلاده منهوبة مستلبة فإنه - تلقائيا - يصبح مستعدا

« سأقول لكم بالطبع مادمتم لم تقرأوا حكايتي فى الصحف
لقد تم القبض على من دارى هاهنا ذات فجر بغير تهمة حقيقية
!! رموا فى السجن فى طرة إنزالوا على بالضرب والتعذيب
لكى أعترف بجرائم لم أرتكبها !!!

« كل جريمتى أننى عربى حتى النخاع !
« أصبحت الهوية تهمة يعاقب المواطن عليها ...
« قالوا إننى متهم بتكوين فرع من حزب البعث العراقى فى
مصر وأننى مؤيد لصدام حسين فى غزوه للكويت ..

« أما حزب البعث فإنه ليشرسنى ويشرف كل عربى حقيقى
أن يكون عضوا فيه ينتحل أهدافه وطموحاته فما هو الإحلم
واقعى قابل للتحقيق : أن يصير العرب أمة واحدة كما أراد لها
القرآن الكريم خير أمة أخرجت للناس أن يتمتع كل فرد فيها
بحقه المشروع فى ثروتها هوائها شمسها مياهها ..

« أما تأييدى لصدام حسين فلا أستطيع التذكر له وكيف
أنكره وأنتم الآن بسهرتكم هذه فى انتظار بغلة العرش تؤيدونه
بشكل غير مباشر ؟ ..

« أستم جميعا أصحاب حق مشروع فى الخرج الملى
بالذهب ؟ ألا يدور بخلدكم أن رءوس القتلى التى توضع فوق
أخراج الذهب ربما كانت من أهلكم وذويكم ؟ ..

« أجزم لو أن البغلة كانت حقيقة فأنتم الخرج والقتيل معا !..

لموازرة أية قوة أجنبية توهمه أنها ترد إليه ما انتهب منه !!!

« ذلك فى نظرى هو سر دوام احتلال مصر على مدى
الأزمان يتسلمها غاز جديد قوى من غاز قديم ضعيف والشعب
يتفرج على صراع اللصوص حتى إذا ما انتصر أحد اللصين
على الآخر انقلبوا يباركونه يتملقونه طمعا فى دوام الفتات

- نخليكم بعافية !

- خذنى معك !

- بدرى يا أبو نجم !

- عدم العجلة يا عبد المجيد ؟

- ورائى مهمه !

- النوم أفضل !

- بالسلامة يا رجال !

« .. ها أنتم ترون أن قاطع الطريق لم يعجبه كلامى فأنصرف

وأنصرف معه ابن قاطع طريق آخر !!

« لو سألتهمونى الرأى فى كليهما نقلت لكم إنى احترم الأول
لأنه صريح وواضح متسق مع نفسه فى حين أمقت الثانى لأنه
يتسربل بمسوح الرهبان يبرع فى الخداع !!

« لا ذنب للإبن فى سلوك أبيه أى نعم لكننى واثق أن هذا

الجرو من ذاك الكلب وإن واثقه الفرصة كما واتت أباه فسوف

يكون أشنع من أبيه !!

« أنتم طول عمركم تكرسون للشطار الذين ينتقمون نيابة عنكم من العتاة الجبابرة مصاصى الدماء المستم والحالة هذه أحرىء بالتكريس لمن يفكر فى تعديل أوضاعكم أوضاع هذه الثروة التى تم استلا بها منكم على مدى الأزمان ليستمتع بها رهط من السفهاء المترفين المتكئين فيها كأنما بحق إلهى ؟...
« كل ما استطيع الإعتراض عليه هو الأسلوب الذى تم به هذا العمل النبيل رغم أننى التمس له العذر لأنه فى النهاية من صنع خيالكم !!!

« لقد تصرف كواحد من الشطار الكامنين فى وجدانكم !!!
« بعض النظريات السياسية التى قراتها تقول إن الغاية تبرر الوسيلة فلا جناح على الشاطر حسن إن هو استخدم أخس الوسائل فى عرف الأخلاقيين لينقذ ست الحسن والجمال السجينة فى القصر المسحور فكلما كانت القوى السجانة باطشة خرافية فوسائل مناهضتها لابد أن تكون من ثمة شاذة ربما مضحكة إذ هى الأخرى بلا منطق !!!
« أن تملك مجموعة معينة من الناس كل ثروات البلاد بغير منطق أو شرعية فلا ننتظر أى منطق فى التمرد على هذه الأوضاع الذى قد يأخذ أشكالا متعددة !!!

« هل فى انتظاركم هذا الآن لبغلة العرش أى منطق ؟...
« لا تفسير له إلا أنكم جميعا خاضعون للمنطق السائد فى

فى كل المجالات فكلكم تحلمون بالثروة العاجلة بدون جهد بشرط أن تكون مؤيدة بإرادة سماوية حتى ولو كانت مشروطة بقبول رأس القتل إذ أن جميع الثروات الآن قد أصبحت هكذا !!!
« الجلاذ هو الآخر كان يعذبنى بهذا المنطق اللا منطقى ومعى رهط من الشبان المساكين العائدين من العراق بعد أن ضيعوا عمرهم فى الغربة من أجل مسكن ومهر عروس !!
« الجلاذ يسأل الواحد منهم باعتباره خائفا يقبض ثمم الخيانة ! يقول له : كم أعطوك ، العراق ياولد ؟ الولد من شدة الضرب والتعذيب والضعف يصبح مستعدا للإجابة على أى سؤال بالجواب الذى يسعى إليه الجلاذ ! يقول : أعطونى كذا ! فقد يتركه لأنه اعترف !!!
« لما أنا فلم أكن أخذت شيئا على الإطلاق لم أأخذ حتى بعض حقى جزاء عملى كموظف فى إحدى مؤسساتهم الثقافية وكل ماأرده من أراء حول العروبة وحول عظمة الشعب العراقى وجدارته بالنصر فى حربة إنما هى أراء تمثل قناعاتى الخاصة ..
« حماستى لصدام حسين ليست لشخصه بعينه بلحمه ودمه إنما هى حماسة للبطل الذى أحلم به لتوحيد هذه الأمة وتحقيق مجدها اللائق بها وبتاريخها وهو بطل لابد أن تنجبه الأرض العربية فى أية بقعة من بقاعها لهذا فأنا مضطر للتصفيق له كلما توسمته ولو فى سلوك عابر !!!

« على أن الجلال لا يفهم لذلك أكتفى بالرد عليه بأننى لم
اتقاضى أى مليم لأننى لم أؤد أية خدمة لأشخاص أو حكام إنما
أؤدى خدمة لأمتى ! فحينئذ يملكه الغضب الشرس الحيوانى :
كيف لا أتقاضى ثروة كبيرة طالما أن الفرصة متاحة أمامى ؟!
إننى إذن لمجرم أثيم يستحق قطع رقبته !!!

« وهكذا ألبسونى الغمامة الحديدية التى طبعت هذه الندبة بين
عينى كسرت أنفى دون أن تكسر كبريائى فلم يفلح الضرب
والتعذيب فى حملى على الإعتراف بأى جرم حتى ولو بجذع
الأنف !!! ..

٩ - مَعْبِلَه

«.. يعنى لم يسألنى أحد منكم أين كنت أنا وصديق عمري
جعفر العطار. لم يلاحظ أحد منكم أننا قادمان من جهة المحطة ؛
كان الله فى عونكم فأنتم جميعاً فى شغل من أمركم. أقطع بأن
كل واحد منكم الآن فى حاله مع أن الظاهر أنكم جميعاً فى
موقف واحد فى قعدة واحدة يشغلكم موضوع واحد ...

- «أنا أعرف ياباشمههندس ! لايد أنكما كنتما فى مركز
الشرطة فى البندر بسبب السياسة !» ..

- «هل حقا أنكما شيوعيان ياولدى ؟ أنا سئلت هذا السؤال
من كثير من المصلين زعموا أنك وصديقك الشاعر ملحدان !!
فقلت لهم إن القلوب لا يعلمها إلا الله :» ..

- « هما فقط يحبان السياسة ياأبا الشيخ !» ..

« .. سياسة ماذا ياناسر ياطيبين ؟ أى سياسة تتكلمون عنها
؟ هل فى البلد سياسة من الأصل ؟ سر هذه الحركات المتطرفة

العنيفة هو أن البلد ليس فيها سياسة ولا سياسيون. ولو كان هناك سياسة لحدث تفاهم باللسان والعقل. لكن بما أن العنف والإرهاب قائمان في الحكومة فلا بد من عنف وإرهاب يقومان في الشباب بنوع خاص..

« زمان ، قبل الثورة ؛ كان هناك سياسة وسياسيين على قفا من يشيل . طلاب الجامعة بالذات لابد أن يهتموا بالسياسة لأنهم على أبواب الحياة العملية، والمفروض أنهم سيكون منهم الوزير والمدير والرئيس ؛ والمفروض أيضا أن يتدربوا على العمل السياسى حتى يكون وعيهم السياسى كبيرا حينما يجئ دورهم لقيادة البلاد. جاءت الثورة التى كنا نحبها ونتمناها فصدمتنا؛ فحاولت منع طلاب الجامعة وجميع الشباب من الإهتمام بالسياسة. هذا طبعا ضد طبائع الأمور، ومن هنا كان الصدام قائما على الدوام بين الطلاب وحرس الجامعة. من هنا جاء حرس الجامعة فى الأساس ، لمنع الطلاب من السياسة، شيئا فشيئا أصبح الحرس الجامعى هو الحاكم بأمره فى الجامعة؛ كلمته هى العليا وكلمة العميد هى السفلى. العميد لا يفعل شيئا إلا بإذن من الحرس الجامعى. تضخمت سلطات الحرس الجامعى. سقطت هبة العميد والتعلم العالى وكل الهيئات فى البلد. لم يعد للكبير قيمة يحترمها الصغير؛ ولم يعد للصغير حق يعترف به أحد. منذ الثورة حتى الآن عمر طويل ماتت فيه

كل الزهور الطيبة؛ هاجرت كل الكفاءات العالية؛ مات الموهوبون ؛ لم يبق لدست الحكم سوى الإنتهازيون البيروقراطيون المدربون على :حاضر يا أفندم تمام يا أفندم. سيف المعز ونهبه هما السلاحان المسلطان على الجميع؛ فالكل يختار الذهب بطبيعة الحال. شرفاء القوم يموتون جوعا أو يبيعوا ضمائرهم وذممهم بثمن بخس. فإذا كان رؤساء الهيئات والمؤسسات الحكومية، خاصة الإعلامية منها، يملكونها تماما فإن من ليسوا برؤساء عليهم أن يبحثوا عن شئ يملكونه بأى شكل. الخبر الرئيس فى كل الصحف والإذاعات هو تحركات الرئيس ومن بعده رجاله؛ فليحترق العالم كله فإن خبره لن يكون إلا فى الهامش..

« هذه الحكومة الإرهابية الغبية نجحت فى خلق شعب من أكلة العيش المسالمين؛ الكل يقول : يلا نفسى. وحقيقة الأمر أن إسرائيل وسيدتها أمريكا هما وراء نفى الشعب المصرى الحقيقى إلى مكان بعيد لا أحد يعرفه، وإيجاد الشعب الذى يريدون، الشعب الذى لا شأن له بأى شئ، المشغول فى لقمة عيشه ومأواه وملبسه ليل نهار. الدول العربية سلمت البترول لأمريكا؛ وأمريكا سلطت علينا سلاح الإقتصاد وشجعت الحكومات العربية المتعنترة على عزلنا فاستلبت رموس أموالها بعيدا عن ديارنا حتى لا تنتفع بمشاريع يشتغل فيها المال العربى فى بلادنا تجارة وصناعة وزراعة . أمريكا ببئسها الدولى وصندوق

نقده الضلالي سلطات علينا سلاح الديون لتربط رقابنا بمؤخرات دباباتها وطائراتها وصواريخها المتصوبة لنا فى عقر دارنا. الحكومة لم يعد لها أى شأن بحياة الناس أو موتهم؛ يندعج الجميع طالما أن الحكومة فى بلهنية من العيش ؛ لم تعد تدعم شيئا ولا تساند شيئا ؛ رضخت بالكامل لشروط البنك الدولى ومع ذلك تزداد ديوننا ، ولسنا نعرف أين إذن تذهب هذه الديون ؟! المصيبة السوداء أنهم يطلبون من عامة الشعب تسديد هذه الديون . وهذا المدعو مصطفى أمين يكتب فى فكرته اليومية المهيبة بهباب القرن يضحك على ذقون السذج الغلابة يغريهم بالتبرع لسداد الديون ؛ يعنى على الموظف المسكين الذى لا يكفى مرتبه لتوصيله إلى مقر عمله ، أن يقطع من هنا المرتب شيئا يتبرع به لسداد ديون لم ينتفع بها ولا يعرف عنها شيئا. وأخر فكرة كتبها بالأمس كان يحرض فيها الحكومة على التعجيل بإصدار قانون الإسكان الجديد، الذى يعطى للمالك حق طرد الساكن ورفع قيمة الإيجار كما يشاء وقتما يشاء. بكل عين قارحة يقول بالحرف الواحد : صحيح أن السكان هم الأغلبية ولكن هذه مسألة أخرى ، إنما المسألة هى أن الحكومة لا يجب أن تخاف حينما تقنن بقانون واجب الصدور !! هذا تحريض صريح للحكومة ضد الشعب المسكين الذى يشتري هذه الجريدة الأثمة. هو بالطبع يعرف

هذا، ولكن الحياء قد انعدم تماما فى هذا العصر. معذور هو والله إن جئتم للحقيقة : فأولاد القحبة من الشعب المصنوع، شعب الإنفتاح من سارقى أقوات الناس، يتبرعون لليلة القدر بمئات الملايين كل يوم لكى تكتب أسماءهم فى كشوف الصفحة الأولى . أما أولئك الذين يحجبون أسماءهم فإنهم يتاجرون على الله سعيا وراء الحسنات ذات العشرة الأمثال. الواحد يقرأ هذه الكشوف فيغتم بدلا من أن يفرح لكثرة فاعلى الخير؛ فمن يقرأ هذه الكشوف الخاصة بليلة القدر صنيعة جريدة الأخبار يتصور أن مصر كلها من الأثرياء المحسنين، وواقع الأمر أننا جميعا من الفقراء المعدمين - لقد خلقوا بليلة القدر هذه فئات من محترفى الشحاذة يتم اقتضاحهم على صفحات الجرنان فى سبيل قدم صناعية أو دراجة أو ماكينة خياطة أو عملية جراحية . أما الشرفاء المحتاجون فعلا فإن دمهم الحر لا يسمح لهم بأن يعيشوا على البر والإحسان فى آخر الزمن ؛ فى حين أنهم لم يعدموا المواهب ولا العلم ولا الشهادات ولا الوطنية ؛ وكل جريرتهم أنهم قد أحسن تربيتهم فى الزمان المحترم فبارت مواهبهم فى الزمان الهزاة ..

« البلد فيها أثرياء أى نعم ، ولكنهم ليسوا كل البلد ولا حتى ربعها ، إنما بأموالهم يبدون أكثر. العائدون من الإعارات والوكلاء والسماسرة وتجار الشنطة والمخدرات والمناصب والمراكز والذمم

كلهم تجرى الأموال فى أيديهم بغير حساب؛ فهم الذين يشجعون التجار والباعة على رفع الأسعار كيفما يشاءون؛ ومن لم يعجبه يشرب من البحر. حجم الفوضى الآن قد أصبح أوسع من البحر المحيط تربت فيه أسماك متوحشة تعيش على صفار الأسماك..

« حكاية أنى شيوعى هذه - يامولانا - هى محض اتهام يطلقونه على كل من بقيت فيه نقطة دم حر تدفعه إلى التمرد أو الاعتراض أو محاولة الإنعتاق من خناق الفقر وسلطة الإرهاب الحكومى وسطوة التضليل. هل رأيتم حكما فى أى بلد ، لا أحد فيه يعترض على أحد أو على قرار أو قانون جائر أو فعل مشبوه ؟ هل رأيتم ذلك إلا فى سيانينا ؟ ومن يمارس حقه فى المساءلة أو التمرد يسمى متطرفا إرهابيا يحق عليه الضرب بالرصاص جهاراً نهاراً فى سجون أو حتى فى رحابها !! .. يا مولانا عذوبنى فى المعتقلات دون ذلك ولنا الحريح الكسبح لفاقد الساقين فى معركة الكرامة والوطن. عذوبنى ليس لشكهم من أنى شيوعى، بل لإرغامى على أن أكون مرشداً على أصدقاء أمزهم ولا أشك فى وطنيتهم . هم يعتقدون أنى مجرد تأثير مدحت عباس الشيوعى الشهير الذى مائن يخرج من المعتقل حتى يعود إليه ..

« حقيقة الأمر أننى مرغم على حب مدحت عباس على الأقل لأنه ابن خالتى ، وأستاذى ؛ فهو الذى ثقفنى ونورنى وفتح لى مكتبته الغنية بالكتب والدوريات . بين بلدتهم وبلدتنا ثلاثون كيلو مترا فى طرق ملتوية طالما قطعها ماشيا يحمل لى حقائب محشوة بالكتب. هم يقولون إنه كان يجئ ليختبئ عندى من مطاردة البوليس؛ وأنا أقول : فلماذا يطارده البوليس؟ ولماذا رفته من وظيفته كمفتش مالى فى شركة التأمين الأهلية ؟ هو ليس مجرما ولا سفاحا ولا إرهابيا حتى يطارده البوليس؛ فى حين ينعم بالحرية مائة ألف ليون لص وقاتل. اتقتلنى على أفكار خيرة تدور فى رأسى، وتعفو عن سفاحين يملئون البلاد فسقا وفجورا وفسادا ؟ مدحت عباس لم يكن يسعى لقلب نظام الحكم كما يدعون ، فمن هو حتى يحلم بعمل كهذا ؟ ماقوته ؟ ماجبروته ؟ أين الجيش المدرع الذى يقف وراءه ليتمكن من قلب نظام الحكم ؟ إنه لا يفكر إلا فى قلب الغلبة المدهوسين المحرومين من نسمة الدنيا. هكذا كل ما يشغله. ثم إنه لا يفعل شيئا يفضب الله . إنه يستمع إلى مايكتبه الشبان من محاولات أدبية ، فينتقدها ، ويرجهم إلى السكك الصحيحة فى الأدب والفن. يقرأ بعض الكتب فيعلق عليها فى صحيفة - كل همه أن يكتب الكاتبون لمصلحة الناس والمبادئ الطيبة والخير والعدالة..

« مدحت ابن خالتى هو وحده الذى أطمئن إليه وأستطيع

الدفاع عنه. أما هؤلاء الأولاد الصغار الذين تعرفت عليهم فى طريقه فإننى أستريب فيهم ولا أفهمهم. إنهم شيوعيون بالمعنى الذى وضحه لى مدحت عباس، حينما قال لى ذات يوم لما رأى أن هؤلاء الأولاد يلتفون حولى فى كلية الهندسة لكى يجندونى : الشيوعيون قسمان : شيوعيين عاملين؛ وعاملين شيوعيين ؛ عليك أن تحذر هذا النوع الأخير : ظننت أنه يخوفنى لكى أنتبه لدروسى ؛ فاشتقت لمعرفة هذا النوع بالذات حتى أتأكد بنفسى وأحدد موقفى منهم. بصراحة اندمجت فيهم ولكن دون أن أعرف شيئاً عن تنظيمهم ، ولم أحاول أن أعرف؛ لكنهم كانوا يرتعون فى الشقة التى استأجرها لى أبى فى حى بين السرايات؛ يتركون عندي أوراقهم التى هى مسودات للمنشورات، فلا أهتم بقراءة معظمها لأنها صدمتني بكلام حماسى غامض وإنشائى كمنظومة من الشعارات التى لا تعنى أحداً فى بلادنا. كنا نظل طول الليل نتناقش فى فائض القيمة والصراع الطبقي ورأس المال المستغل وأقنان الأرض، وأسمع أسماء ينطقونها بقدسية : تروتسكى، لينين ، الميدان الأحمر .. الخ . بعض كلامهم كان يعجبني فأعيد ترديده بطرب وأحتفظ به فى رأسى ؛ ومعظم كلامهم كان يخاضيقنى ، يستفزنى ضدّهم ؛ فأشمر عن ذراعى وأظل طول الليل أتصدع فى محاولة لإقناعهم بأنهم مشغولون بأفكار لاتهم الشعب المصرى على الإطلاق؛ وأن أى طريق إلى

قلب الشعب المصرى وعقله خارج نطاق الدين ولقمة الخبز إنما هو طريق مسدود ؛ فكانوا يسخرون من جهلى ومن تخلفى. وكنت أوقن أن آدمغتهم قد تم احتلالها وضبطها على أفكار معينة واعتقادات ثابتة كالصخر لا يمكن الرجوع عنها بل ينظرون إلى من لا يوافقهم عليها بشكل عميانى على أنه عدوهم اللدود حتى لو كان يفتح لهم بيته ويترك لهم سريره وجلبابه ولقمة خبزه ومصرف يده . بعضهم كان ذكيا خبيثا لا يكشفنى بهذه العدوانية بل يظهر عكسها من أجل خاطر عيون السرير والسقف واللقمة وكوبة الشاى والسيجارة ؛ إذ أن معظمهم خاوى الوفاض أكثر الوقت؛ فإن سألت النقود بين أيديهم فإنها تجئ دفعة واحدة فلا يظهرون فى شقتى إنما أصادفهم على غير موعده على مقهى زهرة البستان وعلى أرصفة البارات سكارى يتقاذفون بالألفاظ الجارحة السوقية وسط عبارات رنانة وأسماء جليلة ؛ فأعرف أنهم الآن فى حالة تقمص تام للزعامة ، حيث يشعر كل منهم فى تلك اللحظة بأنه وحده المنظر المفكر المثقف المعلم والباقون عيال عليه؛ يعتمد البعض إلى تحطيم كبرياء البعض، والتسفيه من أقدارهم، وتبادل الإتهامات الخطيرة بمنتهى البساطة والأريحية !!!..

» بعض كبرائهم، الذين كنت أشعر أنهم يوجهونهم، كانوا يشاركوننى الأسى والأسف لمثل هذه المناظر ؛ ويظهرون لى

الإحترام يعززون على بكاس أو زجاجة بيرة ؛ تجئ رجلى فاجدنى فى نهاية السهرة مرغما على أن أحاسب على زجاجة بيرة لكل منهم فى مقابل واحدة طلبها لى أحدهم. كثيرا ماكنت أقابجا وأنا فى البلد فى الإجازة الصيفية بواحد أو أكثر من هؤلاء قد طب على فجأة ليزورنى دون سابق علم ؛ فأعرف أنه إما هارب من الشرطة أو من ديون المقاهى والبارات؛ مع ذلك استقبله بكل ترحيب ؛ فيمكث فى ضيافتى ربما أسبوعاً كاملاً. فى إحدى المرات جاء منهم ثلاثة على حين غرة ؛ فوجدوا مدحت عباس فى ضيافتى. هم لا يعرفون أنه ابن خالتى ولا أنا حرصت على إخبارهم بذلك ليقينى أنهم هم الذين ينفروننى من الحركة اليسارية الحافلة بناس فى غاية العظمة والقيمة والإحترام لولا أن مثل هؤلاء الأولاد يشوهون تاريخهم. حدثت ربة شديدة لحظة دخولهم غرفتى؛ إمتعضوا لرؤية مدحت عباس بل ظهرت عليهم الصدمة. أما هو فقد اكتأب فى الحال؛ ولولا أنه كان فى ظرف حرج لغادر البيت لتوه . شعرت بالموقف، فنقلته إلى حجرة ابن أخى فى أعماق الدار بحيث لا يحتك كل من الطرفين بالآخر. المذهل إنهم أول ماشافوه أخذوه بالحضن والقبلات وظلوا ساعات طويلة يمتدحون سيرته الحسنة التى يشهد بها الجميع، ونضاله المشرف ، وجهوده الجبارة ، ومواقفه العظيمة

التي اتخذها فى المعتقل للتضامن مع زفاق متظلمين، وكيف هدد بالإنتحار إذا استمر السجن فى تعذيبهم ، وكيف أنه صار يضرب دماغه فى حائط الزنزانة بكل عنف عشرات الضربات يكاد يفتته احتجاجا على صوت التعذيب القادم إلى زنزانته من زنزانة الإخوان المسلمين. إمتدحوا مقالاته النقدية ومترجماته الأدبية الرائعة ودراساته فى علم الجمال الماركسى التى تعتبر رائدة فى اللغة العربية. وحينما عزلتهم فى غرفة وحدهم آخر الليل طلبوا شايًا، وبعضهم طلب الجوزة لشرب حجرين. جئت لهم بكل المطلوب وإن على مضض. مآن صهلت حجارة الحشيش فى أدمغتهم حتى كان صخبهم قد ارتفع بصورة غوغائية جعلت أبى فى الحجرة المجاورة يكشر من النخلة ؛ وصوت الفت نظره بصنعة لطافة ولكن دون جدوى؛ أنذرتهم بأن العين مصوية على فى البلد بسبب علاقتى بمدحت عباس، وأن العميد سعد الشربيني يسلط على رجاله ؛ ولولا أنه يعمل حساسا لأبى رعى العمدة لأساء معاملتى ؛ فيخفت صوتهم نهضة ، وسرعان ما يرتفع من جديد بالشتائم السوقية البذيئة التى لم تعرفها دارنا أبدا. ثم إذا بهم يتعطفون شيئا فشيئا على الحديث عن مدحت عباس؛ فى صيغة حب وتقدير أول الأمر؛ وكلما ازدادت قشرة الحب سكرية عظم محتواها من السموم؛

أفهموني بأن المسكين مريض مرضاً نفسياً لا يمكن علاجه ؛ فقد خرج من المعتقل آخر مرة منقسم الشخصية واقعا فى أوهام خطيرة ؛ أصبح يتوهم أن وكالة المخابرات المركزية تضطهده شخصياً؛ وأنها قد تمكنت - بفضل تقدمها التكنولوجى المذهل - من طبع نسخ بشرية طبق الأصل منه لكى تودى بعقله وأعصابه ؛ وأنه التقى أكثر من واحد من هذه النسخ على محطات الأتوبيس والمحلات العامة فلم يحفل بها . وقالوا أيضاً أنه قد أصبح مزعجاً إلى حد لا يطاق ، يغرم بتعذيب غيره خاصة أولئك الذين يحبونه ويخدمونه ويسهرون على راحته، مهجة البرلسى مثلاً، إبنة المناضل الكبير، التى اشفقت عليه وانتقلت إلى مسكنه لئتمريضه والترفيه عنه؛ فسقاها المر أشكالا وألوانا ، إتهمها بأنها عميلة لوكالة المخابرات المركزية. وهكذا انقلبت القعدة إلى نائمة بشعة حادة؛ حتى تصورت أن المسكين فى الحجرة العلوية راح يصرخ على جسده المتطاير شظايا تحت أضراس وأنياب هؤلاء الصغار المجوفين المخربين ؛ فامتلات بالغیظ والألم ؛ ولكن ماعسأى أفعل وأنا فلاح تضییع رقبتى قبل أن أفرط فى واجب الضیافة ؟! ربنا ألهمنى الصبر فتجملت به ؛ ذلك الصبر الذى تعلمته من مدحت عباس نفسه ، وهدوء الأعصاب ، ومواجهة كافة الأخطار والأزمات بابتسامة واثقة

ساخرة ؛ كما تعلمت منه فن التحدث بأسنان الدبابيس التى تشكشك خفية فتؤلم وتوجع، وكيف لا أعبأ بخطورة أى حديث مابمت فهمت محتواه وماوراءه ، وكيف أنحنى تحت الموجة العالية لأستعد لملاقاتها عندما ترتد وأنا أشد صموداً واستعداداً لتفتيتها. لم أعلق على كلامهم؛ لم أسمح للغضب أن يظهر على وجهى حتى أعطيتهم الفرصة كاملة لإفراغ ماعلى صدورهم من صدا. وكان ضوء الصبح ساعتها يرسل وفوده من شهابيك المندرة فيظلل وجوههم بلون أمل إلى الزرقة الكابية الكالحة كلون شفاه مرضى القلوب. وفيما أخى عبد الفتاح - يرحمه الله - الفلاح المتنور يدخل علينا بصينية الفطور الحافلة بالفطير الذرة والقشدة والجبن القريش ؛ لاحظت أو وجهه مريب؛ فتشأمت ؛ وفعلأ ؛ مال على أذننى هامسا بأن أبى - وكان رحمه الله شديد الحب لى - يريدنى بسرعة. فتسللت إلى غرفته الجوانية؛ فإذا هو يستقبلنى بنظرة ملؤها العتاب والألم وشئ من القهر. أشار لى أن أجلس بجواره على السرير. كان مرتدياً كامل ثيابه التى عاد بها من صلاة الفجر؛ وبين أصبعيه لفافة رفيعة يسحب منها الأنفاس فى شرود وانشغال عميقين. مال نحوى هامسا فى حرج شديد كأنه يكلم شخصية أعلى منه قدراً بكلام هو مضطر إليه اضطراراً ؛ فكادت الدمعة تطفر من عيني

فيما استمع إليه مدركاً مقدماً ماسوف يقوله :

- يا ولدى لماذا أنت مصر على أن تكتب علينا البهدة في آخر العمر ؟! كنت الآن أمام سعد الشرييني نفسه وهو كما تعلم رئيس مباحث المحافظة ! فى دوار عمك ! بعث خفيـره ليايتى بى من المسجد بعد صلاة الفجر ! خير يا عمده ؟ خير يا سعد بيك ؟ قال : إبنك يتستر على شيوعى مطلوب ضبطه وإحضاره لأنه متهم بمحاولة قلب نظام الحكم ! ويجعل من داركم مقراً لاجتماعه بأتباعه !! كنت يا ولدى متاكداً أنه سيقول لى شيئا كهذا ولهذا...

ثم سكت قليلاً ، كأنه يستشعر الخجل من فعل صغير فعله بله أن يعترف به ، لكنه استدرك ضاغطاً على الحروف ليشعرنى إلى أى حد تسببت أنا فى تصغيره :

- خرجت من صلاة الفجر فتلقفت واحداً من الجيران أرسلته إلى أخيك عبد الفتاح فأيقظه من عز النوم ليأخذ الأستاذ مدحت بسرعه ويهربه إلى أقرب منفذ ! أخوك الله يحرسه ويحميه لشبابه طلع إلى الأستاذ مدحت فالبسه ملابس أمك وغطى رأسه ووجهه بطرحتها السوداء ! وألقى به فوق الركوبة ومضى خلفه كأنه ذاهب بأمه إلى مستشفى البندر ! مشى به من الطريق المحاذى للكنيسة ! أوصله إلى محطة نشرت ! تركه

على المحطة وعاد بثياب أمك يجرى من طريق آخر !! أنا قلت لسعد بك إن الشخص الذى تطلبه ليس موجوداً وليتفضل للتفتيش بنفسه إن أراد التأكد !! وقلت له إن من معك الآن هم زملاؤك فى كلية الهندسة ! لكنه نظر لى - لأول مرة فى حياتى. نظرة احتقار ألتتنى ! قرصنى قرصة أوجعت قلبى ! الأدهى أنه هزأنى تهزئاً مرّاً كالعلقم فلم أجرو لا أنا ولا عمك على الرد لأنه كشفنى وصدق من سماه رئيساً للمباحث ! قال إن الذين معك الآن معروفون له بالإسم واحداً واحداً ! وقال أسماءهم بالكامل ! وقال إن رجاله سمعوا ما يدور فى المندرة من حديث كله سياسة فى سياسة ! وكأنه ضربنى بالحذاء حين فاجأنى بأن رجاله تتبعوا أخاك دون أن يشعر وتركوه حتى نزع ثياب أمك عن الأستاذ مدحت فى مرحاض المحطة فأمسكوا به ! ليته قال هذا إذن لاستطعت أن أqlفص بأى كلام ! إنما المصيبة أن جهازاً كالراديو الترانزستور فى يده نطق قائلاً بالفم المليان : تمام يا أفندم قبضنا على الهارب ! أما الأولاد الذين عندك الآن فلا أهمية لهم لأنه يستطيع الإمساك بهم فى أى وقت يشاء ! فماذا أنت فاعل الآن يا ولدى ؟! إنه مصرّ على القبض عليك إن لم تذهب إليه بنفسك ومعك صحابك ليأخذ أقوالكم !! رأى يا ولدى أن تذهب إليه وتطيب خاطره لعله يتركك ويتركنا فى حالتنا !

عمك لم يعد قادرا على المناهضة مع ضباط الحكومة ! لم نعدكما
كنا زمان يا ولدى ! لا تعاند من إذا قال فعل !! هم الآن أسياد
البلد ومانحن إلا عبيد نقول حاضر يا أفندم !!

« غلى الدم فى عروقى ! غصبا عنى وجدتنى أقول : - من
أجل هذه الكلمة بالذات لن أذهب إليه ! دعه يجي ليقبض علينا
وأنا أعرف كيف أوقفه عند حده ! إنه لم يضبطنا متلبسين بشئ !
وأنا أستطيع أن أعتصم وأضرب عن الطعام حتى الموت وأقلب
عليه المائدة والندى كلها !

« لحظتها وقع أبى فتحشرجت أنفاسه : وكانت هى الذبحة
الصدرية التى أودت بحياته بعدها بأعوام قليلة. ليلتذك بريش
بعينه ناظراً إلى وهو ممدد فوق السرير، وبأصبع واحد أشار لى
أن أذهب لأنفذ ما طلبه منى. الملتزمون حوله كلهم وجهوا لى
نظرات اليوم الحادة، فتوهمت أننى إن طاوعته وذهبت فربما
يشفى، فذهبت بالفعل. إقتربت من الدار. سمعت المشادة بين
عمى وسعد الشريينى على أشدها. كان الشريينى يصيح فى
حدة :

- لا يا شيخ فريج ! أنا أراعى الخراطير من ذوقى ! أنت يظهر
أنك لا تعرفنى ! ما عندى خيار وفقوس ! أنت إذا لم تساعدنى
تكون مقصرا فى عمالك ومن حقى أن أحاسبك !!

« وعمى بكل هدوء وطول بال يقول : - يعنى إيه بقى ياسعد
بك ؟ تريد أن أسلمك ضيوف ابن أخى ؟ أنت قلت إنهم لا أهمية
لهم وتستطيع الإمساك بهم فى أى وقت ! اليس بيننا عشرة
وعيش وملح ؟ أنسيت أن أبى هو الذى توسط لك فى دخول كلية
الشرطة لما كان نائبا فى البرلمان وبلدكم تتبع دأثرته ؟ نسيت
أننى خدمتك خدمات عدد شعر رأسى ياسعد بك ؟ أصبحت
تشخط فى ياسعد بك وأنا فى مقام أبيك ؟ ماذا كنت تفعل فىنا
لو كان بيننا قتال ؟

- المجاملات بيننا شئ وأداء الواجب شئ ثانى

يا عمدة ! كله إلا قضايا أمن الدولة !!

- ياسعد بك أنت تعرف إبننا أكثر منا. تعرف أنه ليس له شئ
نشاط مغل بالأمن ! وعلى كل حال ياسعد بك أنا سأبعثه
لحضرتك فى مكتبك ! أنت طبعاً تثق فى كلمتى ! حضرتك
تفضل مشكورا وسيكون هو فى أعقابك ! « فاقتحمت عليهما
الغرفة : - ها أنذا يا عمى ! تحت أمرك ياسعد بك !

« نهض واقفا :

- إسمع يا إبنى ! أنا عندى أولاد ! ويصعب على أن أضيع
مستقبلك ! ولكن ! إذا أنت أرغمتنى على ذلك فلن أرحمك !
سأعفيك هذه المرة لأنك جئت بنفسك ! وستكون هذه آخر مرة !

وانت الجانى على نفسك !! تحركاتك محسوبة ومعروفة لنا !
عن إذنك يا عمدة ! وانت يا عدلى أنا منتظرك فى مكتبى بعد غد
فى الواحدة ظهرا !!

« ومضى ، فركب سيارة ملاكى كانت فى انتظاره ، فما أن
تحركت حتى ظهرت من الظلام سيارة بوكس فورد تبعت
سيارته . أما أنا فقد تسللت خارجا قبل أن يمسك بى عمى ليهرى
يدنى بالكلام القارض ، ولكى أطمئن على حالة أبى . ورغم أنى
وجدته جالسا ينتظرنى صاحب الوجه متلاحق الأنفاس بقوة
عجيبة فإننى أيقنت بأن نجاته هذه مؤقتة ، وأنه يقاوم بإرادة
الحياة فحسب ، فصممت بينى وبين نفسى على نقله إلى
المستشفى ؛ وحدثت فى ذلك أخى عبد الفتاح فقال إن أباه رفض
الذهاب إلى المستشفى ، وأنه لم يتحمل على نفسه ويجلس
متمالكا أنفاسه إلا حين سمع سيرة المستشفى ، فهو من جيل
يكره المستشفيات كره العمى ويفضل الموت على دخولها !!
فانفقت مع أخى عبد الفتاح أن نستدعى له طبيبا كبيرا من البندر
لينظر فى حالته ؛ فقال لى أخى عبد الفتاح : اذهب أنت إلى
صحابك ودعنى أتصرف . ذهبت إلى صحابى وأنا فى غاية من
الضيق والريبة أتمنى لو أضربهم بالرصاص . وجدتهم يتعاركون
بصوت عال جداً ؛ يتبادلون الشتائم المقذعة والإتهامات المربعة

فصرخت فيهم أن يتأدبوا . وكان من السهل أن أعرف أن أحدهم
أسقط - عفوا - بعض القشدة على سروال الآخر ؛ فأسرع هذا
الآخر إلى طبق القشدة ودلقة فوق وجه صاحبه فأغرقه ولوث
نظارته الطبية وقميصه ؛ فما كان منه إلا أن أمسك طبق المش
والبسبب فى وجهه ؛ فتراجع هذا إلى الوراء وشيع له لكمة فى أنفه
أسالت دمه وكسرت النظارة الطبية ؛ فقام المضروب وبرك فوقه
وصار يعجنه ضربا وعضا ؛ لولا أن أخى عبد الفتاح فصل بينهما
بعنف وشخط فيهما فارتدعا ، وأستبدلا الضرب بالشتائم . لم
أتمالك أعصابى ؛ لكننى قلت كلمة واحدة : هيا ؛ وأعطيتهم إشارة
الخروج ؛ فشرعوا يتهندمون وأنا واقف أتعجلهم . صحبتهم إلى
موقف السيارات عند هذه الطابية ؛ ففوجئت بأخى عبد الفتاح
يتناول مع إحدى السيارات لنقل أبى إلى مستشفى البندر ؛
فعرفت أنه تمكن من إقناعه ؛ ولم أكن أعلم أن أبى قد راح فى
غيبوبة حقيقية هذه المرة . صحيح أنه عاش حتى تم تخرجى
وتجنيدى فور سماعه بقيام حرب أكتوبر ؛ ولحق به أخى عبد
الفتاح بعد رؤيته لإصابتى ؛ وما لبثت أمى حتى لحقت بهما من
شدة الصدمة ؛ إلا أننى أعتبر نفسى مسئولاً عن موتهم جميعا ؛
وأشعر الليلة بالذنب أكثر من أى وقت مضى . أه من هذه الليلة
الليلاء وما تفعله فى الآن . من حسن الحظ أننى رأيتمكم لكى أتكلم

لأنسى ما لنا فيه. ولولا أن عم الشيخ عبد المقصود قد أهاج
نكرياتي وأنا من الذين يقدرونه حق قدره ما حكيت هذه النكريات
المؤلة..

« إننى لا أستطيع إيقاف تدفقها الآن، لأننى فى هذه اللحظة -
لا أدري لم - حريص على أن يعرف الجميع كل شئ عنى حتى
يصححوا فكرتهم المغلوطة التى عبر عنها عم الشيخ عبد
المقصود؛ فله الشكر لأنه صرح بما يُقال أما غيره فلا
يصرحون. فلاكن الآن على كرسى الإعتراف. ولم لا وهذه
الطابية اللعينة أقطع منه ؟ لن أخفى عنكم أى شئ.. »

« فى مرة كنت جالسا فى شقتى فى القاهرة قبل الإمتحان
بأسابيع قليلة؛ ففوجئت بطرق محموم على الباب؛ فشعرت فى
الحال بحاسة القروى أن ثمة من يستغيث بى؛ فترحكت فى
قلبى مشاعر الرغبة فى الإغاثة حتى دون أن أتأكد إن كان
المستغيث يستحقها أم لا. فتحت الباب؛ فاندفع داخلا يهرول إلى
غرفة النوم. كان أحد كبار الصغار ممن أكن لهم بعض الإحترام،
لجدية ظاهرية تغلف سلوكه، ولاستغراقه الدائم فى ترجمة
الكتب الأدبية والسياسية من الأدب الروسى، التى يعترف أنه
يسرقها خلسة من مكتبة الشرق الروسية، ويتفق على نشر
ترجماتها مع دار نشر ماركسية تتفق بدورها مع السفارة

الروسية على نشرها مقابل دعم مادى منها. كان نوبى الأصل
دمت الأخلاق على شئ من النبل البدائى يشوبه إحساس ساذج
بزعامة مبكرة؛ إذا قورنت بحجمة الدقيق بدت مثيرة للضحك.
إلا أننى كنت دائما أكن له الكثير من التقدير؛ لامتلاكه ملكة
نقدية نادرة الفطرية، نيرة، كثيرا ما استخدمها فى كتابة بعض
دراسات نقدية عن بعض شعراء جيلنا الماركسيين، نشر بعضها
فى مجلة الآداب البيروتية وبعض مجلات العراق واليمن
وسوريا. كنت واثقا من أنه عضو فى تنظيم سرى ما، يتدثر
بعنوان خادع هو : جمعية كتّاب الفجر، وأنه يمارس فى هذا
التنظيم نشاطاً مهما؛ غير أننى لم أعنى بمعرفة هذا النوع من
النشاط على وجه التحديد؛ ذلك أنى أعرف الناس وأحبهم
لأشخاصهم لا لأفكارهم أو انتماءاتهم الحزبية..

« مالك يا عبد الجليل ؟... هكذا سألته مرتعبا من منظره
المضطرب المنهار. فقال وهو يقدم لى سيجارة :
- هل تمنع فى أن أختبئ عندك بعض الوقت ؟
- لا بالطبع ! ولكن لماذا ؟ !

- ثلاثة أرباع أصدقائى المهمين قبض عليهم ! لم يبق سوى
وأربعة أنت تعرفهم وربما كانوا من بين أصدقائك ! لن أمكث
عندك سوى ليلة أو ليلتين بالكثير ! وسوف أتصرف ! أنا لست

مطلوباً ولكننى أخشى من اعترافات بعض الضعفاء !!

- تشرب شاي ؟

- ياريت !

« فيما نشرب الشاي قال :

- أخشى أن أطلب منك خدمة لو أديتها لى تكون هى خدمة

العمر لن أنساها لك أبداً !!

- إبتعد عن الفلوس واطلب منى ماتشاء !

- بل سأعطيك فلوساً لو أحببت !!

- لا تطلب منى أيضاً حمل أوراق إلى أية جهة ولا تترك عندى

أية أوراق !

- لا ! لا ! إلا رسائلك برسالة شفوية إلى مكان فى روكسى

مبنى الجديدة ! المواصلات طبعاً على حسابى !

- هذا يتوقف على نوع الرسالة !

« الأمر فى غاية البساطة ! حد هذا العنوان فى رأسك دون أن

تكتب على ورقه ! فى الشقة السادسة فى العمارة مائة و خمسة

رأبوعين فى شارع اسكندرية ! تضغط على حرس انبات !

ستخرج لك امرأة طلبانة عجوز بعض الشيء ! تتولى لها :

مساء الخير يامدام أنا عادل !!

« وسكت كأنه أفضى بكل شئ. فسألته :

- وماذا بعد ؟

- بس ! خلاص ! الرد الذى تقوله لك هاته وتعالى !

« أعجبتنى للمغامرة ! خاصة أننى أحب هذا النوع من

المغامرات التى يلتقى فيها المغامر بسيدات اجنبيات. ولأننى كنت

مشوقاً لمعرفة مايكشف حياة هؤلاء الولدان من أسرار حميمة؛

فإننى جعلت أضرب فى شوارع روكسى حتى وصلت إلى

العمارة فصعدت إلى الطابق الثالث ضغطت على زر جرس

الشقة السادسة بأصبع واجفة ، ضغطتين متتاليتين وبعد برهة

أضغط الثالثة بشئ من الإستطالة كما أوصانى عبد الجليل.

إنفتح الباب عن سيدة إيطالية فى حوالى الخمسين من عمرها

لكنها صبية الوجه والقوام، مرحة الملامح، على وجهها دهاء

خرافى اسطورى يتخفى تحت غلالة من البساطة؛ فى عينيها

ذكاء شيطانى مرح، فيه الكثير من الإستهانة كما خيل لى. قالت

كأنها تعرفنى منذ وقت بعيد :

- نعم ؟

- مساء الخير يامدام ! أنا عادل !

« تهلل وجهها :

- أهلاً يا عادل ! تفضل ادخل !

« سحبتنى من يدى إلى غرفة الصالون بعد ممر حلزونى

طويل. اشارت لى على كرسى فجلست . ظلت هى واقفة ؛
قالت:

- كم أنتم ؟

« إرتبكت قليلا، وانبههم على الأمر لبرهة خاطفة لكن الله
الهمنى فتذكرت أن عبد الجليل ذكر رقم أوبعة ؛ فقلت بسرعة ؛
- خمسة ؛

- وأنت يكون العدد ستة !!

« تركتني فغابت فى الداخل وقتا قصيرا ؛ ثم عادت حاملة
كوبا من البيبسى كولا على صينية صغيرة. وضعتها أمامى.
جلست . تمعنت فى وجهى وملامحى ، ثم جعلت تردد لنفسها
بصوت عال :

- قلت لى إنهم خمسة وأنت السادس ! لا بأس !!

« واستدارت ناهضة . غابت فى غرفة النوم قليلا ثم خرجت ؛
ظهرت تحمل رزمة كبيرة من النقود. جلست أمامى ؛ أخذت
تعدّها بدرجة هائلة وبسرعة ؛ عددت معها ورق العشرات الحمراء
فإذا هى ستين ورقة. لفتها فى ورقة جرنان وقد تهلل وجهها :

- قل لهم لا داعى لتدخين السجائر فإنها مضرّة بالصحة
من ناحية ؛ والأمور متأزمة من ناحية أخرى ؛ شذواحيكم ! الله
معكم !!

« ونهضت بحركة من ينهى المقابلة. فنهضت واقفا. سلمت
عليها بحرارة وقد انتابنى شعور الممثل الذى يجتهد بإضافة
لمسة إلى تعليمات المخرج، وقلت :

- متشكرين يامدام !

« قالت وهى ترافقنى إلى الباب :

- بلغهم ماقلت لك !

- بكل تأكيد

« وسحبت الباب ورأى فأغلقتة برفق؛ واندفعت مهولاً إلى
الشارع أتلفت حوالى كاللص ، وقد احلوت الدنيا فى ناظرى.
جاءنى إحساس غارم بحب الحياة؛ بأنى استطيع الآن أن أفعل
ماأشاء ، أكل ماأطاب لى ، أشرب، أفنجر أفنطر كأى بك محترم؛
لكننى كنت مستغرقاً فى هذا التفكير فيما أنا متجه إلى شقتى،
فما دريت إلا وأنا أسلم النقود بلفتها لعبد الجليل مهيميد ؛ الذى
دسها فى جيبه وقد انفرد وجهه وأضاء. قال : يلابينا. قلت : على
فين ؟. قال : يلا وخلاص. فمضيت خلفه نضرب فى شوارع
وسط المدينة وحواريها الجانبية فى عز الليل. دخل بنا بيتا،
ركبنا المصعد، نزلنا فوق سطوح عريضة فإذا هى بار ساهر
حافل. إخترنا ترابيزة بعيدة مجاورة للمسور على انفراد. جاءنا
النادل : أهلا بعبد الجليل بك؛ فعرفت أن صديقى زيون دائم

هاهنا. قال عبد الجليل : قزازه لو سمحت ! ولو سمعت برضه
عليزين تتمشى ! عشوه نسمة ! ياريت حمام مشوى ! بس هات
القزازه الأول. فور انصراف النادل وجدتني ابنه عبد الجليل
مهيميد قائلا :

- على فكره ! الست عملت حسابى فى المبلغ الذى معك !
قالت لى : كم انتم ؟ قلت : خمسة ! قالت : وانت يكون العدد
سته !!

و تبسم قائلا :

- لا بأس ! إن أردت نصيبك خذه !

- إنى أنبهك فحسب !!

- لا تتعجل رزقك !!

و تعشنا وسكرنا حتى مابعد الثمالة بتمالة وما فوق النشوة
بنشوات. ولم اكن أعرف أن صاحبنى فيه كل هذه القدرة على
احتمال الخمر. طلع علينا الصبح فيما تتمشى بجوار سينما
مترو حيث تدور الأرض بنا؛ فإذا بعبد الجليل يوقف تاكسيا؛ ثم
يدفعنى إلى داخله ويجلس هو بجوار السائق. قام بتوصيلى إلى
شقتى ؛ وبقي فى مكانه قائلا إنه الآن يستطيع أن يشوف حاله
كما ينبغى وأن على ألا اقلق عليه فإنه سيحاول توصيل
المساعدات لأصحابها. تمنيت له السلامة ونزلت. بعدها بأيام

وجدتني أقوت على أتيليه القاهرة لأحضر ندوة يشارك فيها
الناقد إبراهيم فتحى، الوحيد الذى استفيد من كلامه وقراءاته
كثيرا. فى الحديقة علمت أن إبراهيم فتحى مقبوض عليه للمرة
المليون ربما؛ وسمعت من الأخبار والإشاعات ماجلعتنى اكروه
الدنيا وما فيها : ناس تتعذب فى المعتقل بوحشية ؛ ناس آخرون
تكفلوا بجمع تبرعات من جميع أنحاء الوطن العربى لمساعدة
المسجونين وأسرههم ؛ ثم صرفوها على أنفسهم ؛ ناس اتضح
أنهم هم الذين أبلغوا السلطات عن رفاقهم. نصف ساعة فى
الأتيليه كفيل بأن يجعل الدنيا فى نظرك سوداء لا رجاء فيها؛
يقنعك بأن مصر كلها من المخبرن والعلماء والسفلة واللصوص
والمرتزقة والقوادين. تلك هى الصورة التى تستقر فى ذهنك
وأنت جالس تتلقى الأخبار والإشاعات والتعليقات؛ كان الجميع
أعداء للجميع. ولقد وقر فى ذهنى أن هؤلاء جميعا لا وقت
عندهم لمناهضة السلطات الغاشمة أو بث التنوير فى قطاعات
الشعب المسكين الجاهل؛ لأن جميع وقتهم ضائع فى حربهم مع
بعضهم البعض ، ولهذا أصبحوا جميعاً لقمة سائغة فى يد
الجلاد؛ فبعضهم - من أسف - يلجأ إليه لينتقم له من صديق
لدود يقف فى طريق تقدمه أو ينافسه ؛ فتكون النتيجة أن الجلاد
يسوطهما معا فى هزء وسخرية ؛ لأنهم جميعا فى نظره حقراء

« صدقوني : لقد كرهت السياسة والعمل السياسى كرها شديدا بسبب هذ الجماعات السرية الموهومة للمغرر بها ؛ إنهم صبية ، أدوات فى أيد أخرى خفية لكنها قوية جبارة تحترف السياسة والمتاجرة بمصائر الدول الصغيرة. هذا ماحدثه وأيدته كل الظواهر والسلوكات التى احتككت بها واحتكت بى ..

« ماإن تخرجت فى كلية الهندسة حتى تلقفنى الجيش فى الحال. وفى الحال أصبحت مقاتلا ؛ فشعرت بلذة عظيمة لم أشعر بها فى حياتى من قبل ، إذ هأنذا قد صرت بالفعل مناضلا حقيقيا يفعل فعلا محدداً ونبيلا؛ يحارب فى صفوف الجيش درأاً لهزيمة كانت عابرة لكنها قامت بإخصائنا ولابد من استرداد رجولتنا المفقودة بأى ثمن . كان الفوران فى دى ودم كافة الجنود ؛ كنت أطلع بعمليات ليست من تخصصى وهذا ما عجل بإصابتى . فى فورة الحماسة داست قدمى على أحد الألغام فانفجرت القيامة كلها فى برهة خاطفة؛ بعدها لم أشعر بشئ . وحينما صحوت على سرير فى المستشفى العسكرى اكتشفت أننى نجوت من موت محقق فرفعت وجهى للسماء شاكراً ؛ وحينما علمت أننى قد أصبحت بلا ساقين نزل الخبر على قلبى رطيباً ؛ لم يصدمنى؛ بل حمدت الله إذ وهبنى شارة

البطولة التى لا تصدأ ولا تنمحي ..

« لم أشعر بأننى قد خسرت حياتى، وأننى قد غرر بى إلا فى هذه السنين الأخيرة منذ أن باعنا أنور السادات لأمريكا؛ لكى تجعل منا جوالا قديما تفرشه تحت مؤخرة إسرائيل؛ ثم سلما للصمص والوكلاء والسماصرة. لقد حاربت وبترت ساقى لكى بغتننى توفيق عبد الحى من إطعامى بالفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب، ويغتنى الحاج على داود ، وصبيحة ، والريان ، وكل تجار الرقيق الأبيض . مصر كلها كانت خرجا مليئا بالذهب محمولاً فوق ظهر السادات الذى توجه به إلى الموعود الأمريكى الإسرائيلى ومن فوقه رعوس قتلانا الأبطال. وأنتم الآن تنتظرون عودتها. إن البغلة هى أنتم ورأس القتل هو أنتم؛ وأنتم كذلك خرج الذهب. أنتم تسلمون أنفسكم عن طواعية لمن يمتص دمكم، ولا يعينكم أمر من يحكمكم ؛ غاية ما عندكم كلمة متداولة : ربنا يولى من يصلح. وللعلم فإن ربنا لن يولى من يصلح لسبب بسيط هو أن هذه المهمة ليست مهمته سبحانه وتعالى بل مهمتكم؛ فأنتم أعلم بشئون دنياكم؛ ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وبغلة العرش لن تجى، إنما عليكم أن تفتشوا عن رعوس قتلاكم وراء كل عربة مرسيدس تنهب الطريق، ووراء كل حياة مرفهة براق،

وكل هذه العمائر والأبراج والناطحات التى ترتفع فى أيام قليلة لتكتم أنفاسكم تحجب عنكم ضوء الشمس ومياه النيل، ليسكنها لصوص فجار كانوا فى الأصل عربية وبلطجية وقطاع طرق؛ ووراء كل هذه المتاجر السوبر ماركت العامرة بكل صنوف العمر الإستهلاكي. غير أنكم مع الأسف الشديد لن تفعلوا، لأنكم بكل صراحة توافقون فى أعماقكم على ماأنتم فيه...

« أرايتم كيف أنكم أنسيتمونى ماكنت أود أن أقوله، واستدرجتمونى لأقول ماكنت أظنه قد أنمحي من ذاكرتى. أشعر مع ذلك أنى قد استرحت نفسيا بعد أن رميت الحمل عن ظهري. وكنت أود أن أحكى لكم عما حدث لى اليوم من أحداث يشيب لها الأطفال ؛ لكننى تعبت ؛ الواقع أنى تعبت منذ ساعات طويلة؛ أشعر..

أشعر بضيق فى صدرى كأن جبلا يحط فوقه ، قلبى أيضا منقبض، ليس بمعنى التشاؤم بل بالمعنى المباشر للكلمة. كأن قبضة من حديد تفحصه، أحس أن شرايينه كلها ستتقطع بل إنها تتقطع بالفعل شيئا فشيئا. على كل حال ، فليقل لكم صديقى جعفر العطار أى مصيبة كنا فيها الآن !!! ..

١٠ - مَهْزَلُهُ

« لهفى على هذا الجدع ...
« قد كان والله غصنا واعدأ بأطاييب الثمر ..
« قد كان أطيّب من عرفت، أنكى من عاشرت من أبناء بلدتنا، تواقا إلى العلم والمعرفة، مقدسا لواجبات الدرس فى الكلية لا يتخلف يوما واحدا بل محاضرة واحدة ..
« كان يفرز من رؤية سكين المطبخ إذا تركناها على المنضدة بعد تخريط السلاطة ..
« لكن ! قاتل الله أفة الرغبة فى الثراء التى سرت عدواها فى عروق أولادنا فدمرت فيها كل شئ حى، دمرت مصريتها، عروبتها، دمرت نفسياتهم أحالتها إلى خراب يباب لا أمان له !..
« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة..
صدق الله العظيم !..
« قد دخل ملوك النفط قريتنا، تلك التى تمتد من المحيط إلى الخليج ..

« أبداً لا أقصد أصحاب التيجان الذين بتوارثون الملك كأنهم أبناء الله هم وحدهم المالكون والباقيون محض أرقاء ؛ إنما قصدت معهم أولئك الذين صب النفط فى خزائهم أطنان الذهب وفى صدورهم مفاتيح القهر والمهـر وفى قلوبهم سحب من الظلام ..

« الثراء - لو تعلمون - أصبح سهلاً وميسراً إذا ما تمكن الإنسان من تجفيف تلك العضلة الكامنة فى القلب واسمها الضمير وهذا فى الواقع ما قد حدث لولدنا لكنه كان مع الأسف غشياً أحمقاً، فوقع فى شر أمه ..

« هو بالطبع لا يتمكن من فعل ذلك بنفسه ؛ بل يتولاه زبانية ينتشرون حولنا يزيتون للنبي آدم أن يصبح كذا وكيت مثل فلان وعلان ..

« وهكذا ضاع الجذع ؛ وضيعنا معه ..

« باهر ابن أخ الباشمهندس عدلى هو من عنيت . عمه كان ولى أمره كما تعلمون منذ مات أبوه ..

« الباشمهندس عدلى لم يقدر له الزواج، فاتخذهُ ابناً وأخاً وصديقاً، لا يبخل عليه بأى شئ ، يعطيه الجزء الأكبر من معاشه من القوات المسلحة ، والباقي يصرفه على إخوة له تركهم أبوهـم صفاراً ..

« كل شئ كان على يدي؛ فلقد سكن باهر معى فى شقتى فى

أول الأمر بالمجان. فى كل شهر يتلقى من عمه مصروفاً ليده، إضافة إلى أثمان الكتب والمذكرات ..

« عمه مسئول عن تعليمه لكنه غير مسئول عن تدخينه. ليت المصيبة وقفت عند حد التدخين إذن لهان أمرها !!..

« الولد كان حلواً ذكياً ذا شخصيّة جذابة فالتف حوله لفيف من أبناء أثرياء الإنفتاح ممن يذهبون إلى الكلية بسيارات فارهاة ويخرجون بين المحاضرة والمحاضرة لشم الهيروين فى السيارة وهو معهم !..

« يوماً بعد يوم بدأ يفقد توازنه . بدأت اكتشف ضياع كتب ثمينة من مكتبتي لا يمكن تعويضها. داخلنى الشك بادئ ذى بدء فى بعض أصدقائى من هواة الأدب الذين يزورونى كثيراً. بعد الكتب تكرّر اختفاء النقود من محفظتى. راقبته أمسكت به متلبساً فطرده فاختفى من محيطى كله صرت لا أعرف عنه شيئاً..

« على مضض وبعد تردد أبلغت عمه بكل شئ فأصابه الذهول لمع فى عينيه بريق أوحى لى أنه كان يتوقع منه شيئاً كهذا !!..

« إستوضحته . نبهنى إلى أن الولد كان متطلعاً طموحاً بشكل خارق يتصور نفسه فى الغد القريب صاحب طائرة خاصة كالممثل أحمد سالم الذى قيل له إنه يشبهه !..

« هذا النوع من الطموحين أمرهم مقلق ليلهم إلى المغامرة غير المحسوبة !.. »

« الولد فعلا كان يتحدث دائما باعتباره من كبار الأثرياء حتى وهو يختلس السجارة من علبتى ! كل كاعب حسناء يلتقيها فى أى مكان لن تكون أجمل من زوجه القادمة أما رحلات شهر العسل فجولات على الشواطئ العالمية سباحات بالكواتر فى شوارع البندقية !!!.. »

« قدر حبى له المستمد من حبى لعمه شغلنى أمضيت الساعات الطوال أحدثه محاولا تصحيح أفكاره أساليبه فى التعامل مع الناس مع الحياة بوجه عام أحاول ضبط إيقاع أحلامه السائبة المنطلقة كالطيارة الورقية التى أنقطع خيطها فحلقت فى الفضاء صارت على مزاج الريح !.. »

« غاية ما استطعت فهمه أن الولد قد تلقى فى طفولته أعنف صدمة زعزعت فيه كل الثقات أعنى صدمة عمه المهندس عدلى !!!.. »

« باهر كان طفلا صغيرا حينما كان عمه عدلى شابا سمهري القوام رشيقا يثير منظره البهجة فى القلوب ! فلما عاد عمه من الميدان ينصف جسد قعيداً فى صندوق دراجة تدار بترس يمسك به بين يديه فى صبر اليم إنفطر الولد حزنا على عمه الذى كان مفخرة العائلة فبات موضع رثائها !!!.. »

« خف الحزن قليلا على طالب الشهادة الإعدادية فى ظل مظاهر الإهتمام بعمه التى جعلت منه وساما يعلق على صدر بلدتنا حيث الصحف والإذاعات تغدق عليه عبارات الثناء.. »

« التعويض الذى قبضه المهندس كان منثوراً لزواجه لكن البطل لم يعثر على عروس فى مستوى المسئولية فجُلَّ عرائس ذاك الزمان كن فى انتظار الفرسان العائدين من بلاد النفط بالسيارات والأموال الطائلة ! شيئا فشيئا فترت رغبة البطل فى الزواج دخل العمر فى المنطقة الحرجة ماتت الرغبة تماما إن بفعل القهر أو بالإقتناع الإرادى !.. »

« سرعان مااضمحلت مظاهر البطولة لم يبق منها سوى الجسد العاجز والسراب بل سرعان ماتحولت حرب أكتوبر نفسها إلى تمثيلات ساذجة تبثها الإذاعات مرة فى كل عام ! أبت إلى ذكرى باهتة غير مستحبة وإن بالغت أجهزة البث فى زفها بسخافات من الأغنيات السمجة والخطب الجوفاء والبزات العسكرية الحافلة بالرتب والنياشين !!!.. »

« عبد الفتاح العزيز على قلب عدلى حين أصابه الفشل الكلوى فرقد فى مستشفى البندر ينزف حتى مات أهمله الأطباء لأنه دخل القسم المجانى وإذ قال لهم قبل الغيبوبة النهائية إنه الشقيق الأكبر لأحد أبطال حرب أكتوبر سخروا منه وبعضهم أضاف إلى حرف السين ثلاث نقط ثقيلة جهيرة الصوت !! »

والبطل يدور فى أروقة المستشفى بدراجته بحثاً عن يغيث أخاه
 فلا يجد إلا الصد والإهمال والزجر ! زياهر طالب الثانوية العامة
 يرى كل ذلك يحاول أن يثار لكرامة عمه الجريئة فلا يقدر ! أن
 يتخذ أنفاس أبيه فلا يفلح فعاد بجثمان أبيه وجثة عمه المتكورة
 على دراجته محمولين فى صندوق عربيه سيزوكى نص نقل ...
 « ليت شعري كيف يسترد الولد ثقته فى الوطن ؟! »
 « كيف يصدق أى كلام عن القيم يشمعه أو يقرأه ؟! »
 « هاهو ذا يرى البلاد تفتح أحضانها لكل لص ونشال
 ونصاب وأفاك ...! »
 « هاهي ذى البلاد قد نكلت بعفه وبأمثاله أشد التنكيل حينما
 صعقتهم بصلحها مع العدو ...! »
 « أسوأ جيل هو ذلك الجيل الذى انشرح بين زمانين
 متناقضين أشد التناقض لا تفصل بينهما سوى برهة قصيرة
 كتلك التى يهوى فيها نجم أو يحترق كوكب أو تتزلزل
 الأرض ...! »
 « فى الصباح كان هذا الجيل يتأهب لملاقاة فاصلة مع العدو
 الأثيم ذلك اللقاء الذى ظل يكرس له طول حياته يستعد
 لاسترداد دم آبائه الذين استلبتهم رصاصاته ! فى المساء فوجئوا
 بالعدو يمشى فى شوارع بلدتهم آمناً تحت حراسة الجند يجلس
 فى الحانات يستببح ماكان محرماً على أبنائها ...! »

« كيف بالله عليكم ننتظر من مثل هذا الجيل التعيس أى
 استقامة أو رجاء ؟! بله أن تلومه أو نسخط عليه ؟! »
 « إنشרכת روح الولد إنكسر قلبه لم يبق فيه سوى جسد
 تيقظ يطلب الإرواء والشبع بأثر رجعى ...! »
 « إتضح له بكل جلاء أن أى كلام عن الوطن عن القيم عن
 الأخلاق عن الضمير الشرف الإحترام الاستقامة إن هو إلا
 محض خطب جوفاء يبيعها الناس للناس فى سوق التخاسة !!
 فكل من صدق هذا الكلام بات جسداً متكورا فى صندوق دراجة
 عبداً حقيراً فى ديوان الموظفين يحلم بمنحة قدرها نصف شهر
 بحد أقصى ستين جنيهاً لا تكفى ثمن حذاء لطفل ...! »
 « مشكور هو إذ بقى متماسكاً حتى تمكن من الإلتحاق بكلية
 التجارة بالقاهرة ليدرس لغة عصره لغة الأرقام والحسابات
 والدفاتر استعداداً للتعامل معها بشكل حى فى قابل الأيام ...! »
 « من حسن حظّه أو من سوءه لست أدري وجد نفسه بين
 أبناء الأرقام الفلكية فى البنوك الأجنبية من تجار الأدوات
 انصحية والمخدرات والمأكولات والملبوسات المستوردة من بلاد لا
 تضمر لنا سوى الشر والعدوان ...! »
 « وقع المفتون فى سحر الأرقام إذ تترجم على أجساد زملائه
 ملبوسات فاخرة ورفاهية لا حدود لها ...! »
 « صار مثلهم ولكن على حسابهم يظن أنه يستغفلهم وواقع

الحال أنهم يستخدمونه لمشورونه بصنعة لطافة يشتري الأصناف الأشياء يحملها إليهم !! لا بأس من السمسرة الخنصرة فهم قد تعودوا إلا يسألوا عن بقية الحساب لأنهم قد وضعوا ذلك من الأصل فى اعتبارهم كأجر له على مشاويره فى صورة مقنعة مدعومة باشتراكه فى متعهم !!..

حدثته فى هذا المعنى ذات مرة بشكل عفوى بقصد خفى لى أوقف فيه نخوة الكرامة الشخصية التى بدأت ألاحظ أنه لم يعد يعنيه أمرها ! ففاجأنى بأنه يعرف كل أبعاد الموقف يدركه تماماً فحينئذ سألته بشكل مباشر :

- يعنى أنت تعرف أنك مجرد خادم لهم ولست صديقا ؟!

« فبكل برود وهدوء أعصاب :

- وماذا فى هذا ؟! أنا أخدم مزاجى ورفاهيتى واستمتاعى !

- لكنك ابن أصول محترمة كريمة !

- لا أصول فى بلادنا إلا لحامل الدولار ! حامل الدولار الآن هو السيد الحقيقى والمسئول الحقيقى والحاكم الحقيقى !! لا تقل لى غير هذا لأن هذا هو الواقع من قديم الأزل فى مصر بالذات ! وغير هذا هو الخيال السقيم الذى يملأ رؤوسكم أيها الشعراء : أنتم تخرعون هذه المعانى الخيالية لتخدروا بها أعصاب الناس حتى يسكتوا !! حتى الدين نفسه يفعل بنا هذا الشئ نفسه ! يخدرونا يأمرنا بالقناعة والمسألة لى نسكت نترك

أصحاب الأموال يستمتعون وأصحاب السلطان يتسلطون وأصحاب الحكم يتحكمون على كيف كيفهم !! ألم تسمع القول المأثور المكتوب فى هذه الكتب التى تجمعها على رفوفك والتى ظلت هى الأخرى تخدعنا آلاف السنين ؟ لابد أنك سمعت أو قرأت القول المأثور : من كان لديه الذهب ! الناس إليه ذهبوا ! ومن ذهب عنه الذهب ! الناس عنه ذهبوا !! ومن ذهب عنه الفضة ! الناس عنه أنفضوا !! هذه حقيقة أزلية منصوص عليها فى الكتب القديمة !! فالرجل الجدد هو الذى يقدر على جمع الفلوس بقدر ما يستطيع !! لأنه بالفلوس وحدها يحمى شرفه وكرامته وإنسانيته !! ثم إن الناس فى بلادنا - وهذا هو المهم - لا تسأل أحدا : من أين لك هذا ؟ إنهم لا يسألون إلا الفقراء ولا يزعمون إلا المعدمين !!..

« بالله كيف أستطيع التفاهم مع شاب هذا وضعه وهذه أفكاره ؟! جمعت شجاعتى وطردته طرداً صريحاً !!..

« بعد طرده تكشف لى مساخر كان يفعلها من ورائى ! فجميع أصدقائى من الشعراء والأدباء الذين يعتبرون بيتى بيتهم لم ينج منهم واحد من برائته ! لم يترك واحداً إلا واقترض منه عشرة وعشرين وخمسين جنيهاً بل كان يعد بعضهم بابتياح أشياء لهم فيأخذ ثمنها مقدماً ولا يفى بشئ ! فلما اختفى بدأت الشكوى منه تنهال على أم رأسى فصرخت فيهم غاضباً :

- لماذا سكتكم وهو هنا ؟!

طوحوا رؤوسهم فى فروغ بال بل أكد بعضهم أنه اقترضه دون انتظار للرد ! بل أكد البعض الآخر أن الولد مع ذلك خفيف الظل بل المثير لدهشتى أن نفرا منهم أبدوا استعدادهم للتطوع بالبحث عنه للإطمئنان على حاله فربما احتاج للمساعدة لولا أننى صرخت فيهم ألا يفعلوا !!!

لما علم الولد أنى أخبرت عمه بحقيقة حاله انقطع حتى عن عمه !!!

ذات مساء فوجئت بعمه يطرق بابى فى القاهرة على غير انتظار ففرحت به قدر ماأشفقت عليه ! ألمنى تلك الليلة إيلاما شديداً لأنه بإرادة بطل محارب رفض أن يتكفل أصدقائى بحمله وحمل دراجته إلى الطابق الخامس على سلم حلزونى ضيق وأسبح فلبس القفاز الجلودى فى يديه صار يزحف بهما على الدرج يستند على واحدة ليرفع نصفه الأعلى يقذف به إلى الدرجة التالية وخياطة البنطال فى موضع الساقين المبتورين تكاد تتفصص فيما هى تكنس درج السلم فى زحفها !!!

بكينا جميعا خلف ظهره فيما هو محتقن الوجه من فرط انفعاله بالمجهود الذى يبذله والضحكات المرححة التى يرسلها مع تعليقات أكثر مرحا تنبهنا إلى المهارات البهلوانية التى اكتسبها بفعل عجزه !!!

كان على فى الصباح أن اصطحبه إلى كلية التجارة بجامعة القاهرة لنسأل على مقصوف الرقبة لكنى أصررت بكل قوة على أن يبقى هو وأذهب أنا وحدى للإتيان به ...

فى الكلية قالوا إنه منذ أن تزوج أصبح يجئ يوما ويتخلف يومين !!!

تزوج ؟!

قالوا نعم !!!

ولد من زمرته تعرف على شخصى لأنه سبق أن رأيته فى أكثر من ندوة أقيمت لى فى جامعة القاهرة قال الست الشاعر جعفر العطار ؟ قلت : نعم ! قال : أعرف عنوان قريبك فإن أحببت فإنى أتودك إليه ! قلت : أهو بعيد من هنا ؟ قال : سأوصلك بسيارتى ...

إقتادنى إلى سيارة بيجو (٥٠٥) راكنة بجوار السور فبكل حفاوة فتح لى بابها فركبت بجواره ...

كان لطيفا اليقا محبا للثرثرة صاحب الوجه من أثر الشم وحقق الماكس فورت والبرشام المخدر مشنت الذهن شاردا العينين بصورة خوفتنى من قيادته للسيارة إلا أنه مع ذلك يقودها بكفاءة عالية وإن بدأ أن مخه مخرب فارغ من المحتوى مثل وجهه يكاد يكون جلدأ على عظم وعلبة السجائر المارلبورو مفتوحة على فمة باستمرار !!!

« تسلم دفعة الحديث والتدخين الشرهين ينتقل من موضوع إلى موضوع فى سرعة العصفور التائه القلق لم يترك شيئاً فى حياته وحياة زملائه وأساتذته كليته إلا وحدثنى فيه كأنه يحدث نفسه بصوت عال وببلذة فائقة حتى أدق أسرارهم جميعاً كان يذكرها بتلقائية دونما تحفظ أو حرج ...!!

« عرفت أنه ابن تاجر أدوات صحية فى مصر الجديدة واسمه ضياء سبق له أن عاش فى ألمانيا طوال صباه لأن أباه كان وقتها دبلوماسياً وفى نفس الوقت شريكاً لعمه فى المحل فلما مات عمه وأحيل أبوه إلى التقاعد تسلم مسئولية المحل محتفظاً ببيتهم المملوك لهم فى ألمانيا يذهبون إليه كل صيف ...!!

« عرفت أن الجاكت الجلدى الذى يرتديه بإهمال متعمد ثمنه عشرة آلاف جنيه إذ أنه من جلد الغزال وأزراه كلها من الياقوت النقى وإن عنده أكثر من موديل من هذا النوع بألوان مختلفة وأنه أعطى لباهر بذلة ثمينة يلبسها ليلة الزفاف لتصبح ملكه مع أنها جديدة بشوكها كل ما فى الأمر أن طرازها لا يتفق مع ذوقه الهللهلى ...!!

« حكى قصة زواج صاحبنا ..

« مبدأ الحكاية طرده من شقتى لكن الطرد لم يكن هو السبب إنما السبب قائم فى نفسه منذ الصغر ولو لم أطرده من شقتى لطرد نفسه بحثاً عن الإستقلال والتصرف بحرية يتوق

إليها حيث يفعل مايشاء دونما رقيب أو حسيب ...!

« سرعان ما عرف كل أصدقائه أنه يبحث عن مأوى وإن مصروفه الضئيل لا يكفى لاستئجار المأوى ! لهم صديق من الوراق بجوارحى أمبابة كانوا يحششون عنده فى حجرة فوق السطوح جميلة وفى آخر الليل يتركون باهر يبيت فيها حتى الصباح ...!

« مذكور ولد طيب وابن حلال يحب الخدمة إنشغل بمشكلة باهر أراد أن يحلها حلاً جذرياً فواتته الظروف بالحل على طبق من حجارة الحشيش وحدهما :

« لمذكور ابنة خالة هكذا قال ثم اتضح أنها تمت إليه بصلة قرب

بعيدة جداً ثم اتضح أنها مجرد أرملة يعرقها لكنه واثق منها ...!!

« زوج الأرملة مات فى العراق لأنه بمراجعة تطوع فى الجيش

العراقى فى حربه مع إيران فمات وجئ بجثمانه فى صندوق

أسود عبارة عن كومة من الأشلاء مصرورة فى ملاءة !! بعدها

بشهرين ذهبت أرملة - واسمها كاملة - إلى بنك الرافدين

فصرفت مبلغاً لا بأس به قيل إنه فدية زوجها وقيل بل هى مرتبه

الذى لم يكن يرسل منه شيئاً ثم قالت هى إن زوجها سافر إلى

العراق هرباً منها لكن الله انتقم لها منه إذ إنه لم يكن ينوى

الرجوع إليها ...!!

« هى بالفعل دميمة كوجه القرد بالضبط ومن المشكوك فيه

أن يكون المرحوم زوجها قد نام معها قط إذ إنها لا يمكن أن تستهوى سوى حمار عقله فى عضوه ولو رضى قرد بالنوم معها فى فراش واحد فيجب أن يشكر القرد على تواضعه وحلاوة نفسه !!

« شابه صغيرة هى تحلم بالستر فى ظل رجل كما أنها على شئ كثير من الحصافة أحسنت التعامل مع المبلغ الذى قبضته من بنك الرافدين فاشتريت شقة ضيقة مكونة من حجرتين وردة فى منزل عتيق قمى فى حارة سد متفرعة من حارة متفرعة بدروها من حارة تطل على شارع عمومى ! وبالمبلغ الباقى صارت تشتري بعض الخضروات وأقفاص الفاكهة تفرش بها على ناصية الحارة صارت تهتم بزينتتها بشكل لانت للنظر تضع المساحيق تستحم باستمرار تلبس المشجر والمللون والشفاف تضحك على الدوام كاشفة عن السن الذهبية فى جنب فمها !!

« ووجهها كالقرد لكنها موهوبة فى الكلام الطرى والضرب بالحاجب وتكحيل العينين الواسعتين والإيحاءات الجنسية فى مشيتها المتقصعة فجسدها مع ذلك حلو جدا ومن كل شئ فيها بارز محدد مثير سيما حين تعطيك ظهرها بمؤخرة كسرة الهدوم ترتفع وتنخفض مع خطواتها المتقنة وكعبها الأحمرين مدعوكين بالطوبة فوق كعبى الشبشب كقورنين من الفلفل

الأحمر !

« قال مدكور لباهر وهما يمران من أمام فرشها فيشتريان كيسا من اليوسفى :

-- مارأيك فى البضاعة ؟

« قال وهو يفحص اليوسفى :

-- رائحة ! بشرط أن أخلع وجهها وأضع فوق هذا الجسد الجميل مالريده من الوجوه ! أستطيع على الأقل أن أنسى وجهها مؤقتا !!

« لاحظتها كان الفرع الذهبى الثمين المتدلى من عنقها على صدرها ومجموعة الغوايش فى معصمها والقرط فى أذنيها على شكل المخرطة ومثله مشبوك فى خرم فى أرنبة أنفها كل ذلك قد استقر فى ذهنه فأقنعه أن توقعات صديقه مدكور صحيحة مائة فى المائة وأن المضروبة تنام على ثروة طائلة !!!

« فى صبح اليوم التالى قامت أم مدكور بزيارة ودية لكاملة أيوب فى شقتها فمكثت عندها أكثر من ساعتين وعادت متهللة الوجه قالت إنهما معزومان غدا على الغداء ليذوق العريس طعم نفس العروس فى الطبخ !

« لعبت شمعة الطبخ المسبك برأس العريس حتى أدارته فأخذ جسمه المنهوك إلى الراحة فوق حشية الكنبه القطيفة وسط ردة كل مافيهما نظيف زكى الرائحة ! تحرك الوحش

المسعود الذى طال كبته وكنتم أنفاسه فجئ بالمأذون عصر ذلك اليوم دفعت هى أجرتة عن طيب خاطر !!!

« الهاتف رن فى منازل الصحبة فخضروا فى مطلع المساء بثلاث سيارات خاضت فى مستنقعات المجارى الطافحة حملت العروسين إلى نادى الجزيرة فتعشوا سكرورا حششوا غنوا رقصوا رفهوا عن رواد النادى الذين شاركوهم فى مرح جنونى !!!

« إستقر المقام بالعريس فى رغد من العيش يصحو من النوم وقتما يصحو فيستحم يرتدى بذلته الجديدة المهداة إليه من ضياء فيبدر فيها كعملاق أزعر ممسوخ الهيئة يتأبط حافظة المحاضرات يمر بها على ناصية الحارة أمام الفرش يصبح عليها يفتح الحصالة يأخذ مصروفه يمضى إلى الكلية أو إلى مايشاء أن يمضى ليعود فيجد الغداء جاهزا فيتغذى وينام ليصحو يسهر مع الشلة عند مدكور فوق السطح يرجع آخر الليل فيجد كاملة فى أبهى زينتها فيعتليها يظل ساعات طويلة فى هيد ورزق بقوة فلاحية جنونية غشيمة زادتها المخدرات والمنشطات جنونا وفتوة !!

« باتت فى أسعد حال لا يقلقها سوى غدر الزمان تخشى أن يتركها فى لحظة مجهولة خاصة أنه لم يعرفها بعد بأهله فصارت تلح عليه فى أن يصطحبها فى زيارة لبلدته غير أنه يستمهلها

حتى يزف إليهم الخبر بالتدريج إلا أنها لشدة قلقها تريد أن تشده إليها بأى قيد يريح بالها ! وأخر ماكان يتوقعه أن تبلغه أخيرا بأنها حامل منذ شهور طويلة وأنها سعيدة بهذا الحمل فأخيرا ستكون أما بعد طول اشتياق ولسوف تحب الطفل القادم لأنه سيربط بينهما إلى الأبد !!!

« حين أيقن باستحالة الإجهاض وخشى من الفضيحة التى تقبع له على ناصية الحارة ركن إلى راحة اليأس فترك الأمور تجرى على هواها كما رسمها الله وليكن مايكون !!!

« كان ضياء يضحك كالمعتوه وهو ينهى إلى هذه التفاصيل فيما يتمايل بكتفيه مع ميل السيارة وهى تستجيب لعجلة القيادة فى التمويد إلى حارة شديدة الضيق شديدة القذارة مليئة بالنتوءات والتضاريس وفتحات البالوعات ذات الغطاءات الحديدية الواقفة فى منتصفها لاهى مغلفة ولا هى مفتوحة فعجبت كيف يمكن لسيارة فاخرة كهذه أن تنغرز فى هذا الوحل العطن لكن عجيبى توقف فور أن تذكرت أن عصرنا الردي قد ساح فيه كل شئ فى كل شئ !!

« الحارة سد والبيت فى المواجهة ! ثمة باب قصير فى الجدار الذى يسد الحارة يعلوه شبك صدئ بمشربية ساذجة عتيقة ترقص فى فجواتها ثلاث قلل من الفخار منظرها شهى مثير للعطش !!

« ضغط ضياء على زر البوق بحركة صنعت أصواتا موسيقية
يبدو أنها متفق عليها فيما بينهما : تى توت تى توت ! فأطل وجه
صاحبنا من الشباك فكان رأسه قلة رابعة ضمت إلى القل !
فبحركة اغتباط صبيانية بهيجة شوح بذراعه لضياء أن اركن
وانزل ثم اصعد !..

« فتح ضياء باب السيارة ونزل بقدمه اليسرى وعوج رأسه
ناظرا إلى أعلى صائحا :
- معى ضيف يهكم !

« فشحب وجهه بعض الشئ لكنه صاح بصوت جف ريقة
فجأة فتحشرح :

- اياها بيه ! ياألف مرحب ! إتفضلوا !

« دلفنا إلى الدهليز فإذا بنساء متربعات على الجانبين أمام
طشوت الغسيل وصوت الدعك والعصر يملأ الدهليز برذاذ
الصابون وصخبه مع صخب النسوان !..

« أربع أبواب مفتوحة خلف ظهور النساء المتربعات بسيقان
عارية متختة وثياب سوداء رقيقة مبتلة بالمياه ملتصقة
بلحمهن بشكل مثير !! من فتحات الأبواب تظهر أطراف عمدان
سراير نحاسية منزوعة الملاءات بجوارها أشباح دواليب كالحة
أمامها أطفال زواحف بمؤخرات عارية ملوثة بالغائط وثمة بوابير
جاز تملأ الدنيا وشيشا خشنا تحت حلل وأنا جر يتصاعد منها

بخار عطن تبعثه كتل من الثياب المسلوقة فى الماء المغلى وثمة أيد
تحركها فى الماء بعصى خشبية كثيبة المنظر !!..

« صرنا كالبهلولونات تتمايل فى رشاقة لتنفادى الإصطدام
بالطشوت والبوابير المشتعلة والبط والدجاج ! قال ضياء فى
لهجة أولاد بلد مستعارة لكنها خفيفة الظل مقبولة :

- العواف عليهم !

« نطقن جميعا فى أصوات رثانة مليئة بالود وربما الشبق
المغلف بتنهدات الضجر :

- يسعد صباحك ياخويه إتفضلوا !

« شكرا شكرا رددتها وأنا أتملك درجة السلم المتأكلة ممسكا
بدرابزينه الحديدي الصديئ المتراقص لدى أى لمسة !! على أول
بسطة رأينا باهر يقف على البسطة التالية والأخيرة فى انتظارنا
ومن خلفه باب الشقة مفتوح !..

« بهت حين وقع بصره علينا لكنه اندمج فى صيحة ترحيب
كمهرج بارع حريف :

- يادى النهار النادى ! إيه الجمال ده ؟ معقولة ؟ الشاعر
الكبير نفسه جاي لى ؟! يامحاسن الصدف ! إيه المفاجآت
السعيدة دى يا ضيا ؟ دا أنت تستاهل قبله على المفاجاه دى !

« إحتضنه فقبله بسرعة ليفرغ لى فيحتوينى فى صخب
كبير ضقت به ضيقا شديداً ذلك أنه لم يترك وصفا خطيرا إلا

وصفنى به !!!

« إقتادنا إلى الداخل فإذا هى ردهة مربعة الشكل مترين ونصف فى مترين ونصف بها تزايزة سفره وبوفيه وست مقاعد من ذلك النوع المعروض فى الشوارع أمام المحلات الشعبية التى تباع بالتقسيط ...

« جلسنا على الكنبه البلدى تحت الشباك وظل هو واقفا بجلبابه البلدى النظيف وقد امتلأ جسمه باللحم وخدوده بالدم القانى كما اغنظَ صوته إذ هو قد يمم وجهه نحو مابدا أنه المطبخ مناديا :

- تعالى ياكامله تعرفى على الضيوف ! كنت تدوشين دماغى لأعرفك بأهلى ! هاهم أهلى جاءوالحد عندك !!
« أطل من باب المطبخ وجه قرء مدهون بالأبيض والأحمر مخطط الحواجب والجفون بالكحل الأسود فخفضت بصرى فى الحال تأففا لا ورعا !!!

« ثم إذا بغزال فاره القوام مخروطى الشكل يتبختر قادما من المطبخ فكدت أقف احتراما لصنع الله فى هذا الجسد وعميق حكمته الغامضة من تركيب هذا الوجه على هذا الجسد ...!!

« بنصف وقفة تلقيت يدها الملفوفة فى طرف ثوبها فإذا هى تسلم على بحرارة شديدة وعلى ضياء بسرعة ثم تهوول فتختفى فيما بدا أنه حجرة النوم فواربت بابها فسمعنا

صوت دولا ب يفتح يزيق فى صرير منقر ثم شمعنا رائحة عطر رخيص ينزلق فى الهواء بكثافة تكاد تكتم الأنفاس !!!

« خرجت فى أبهى زينة تلف الروب دى شامبر حول خصرها فكانها نحت فرعونى يشهد بعظمة النحات ! عبرت الردهة إلى المطبخ وسرعان ما رجعت تحمل صينية فخيمة بعض الشئ أتية لا شك من وراء نهر البصره عليها زجاجات الكوكوكالا الثلجة وضعتها أمامنا على طقطوقة بدت غريبة الذوق على المكان إذ هى من خشب الأبنوس برسوم فرعونية !!

« قالت السن الذهبية :

- يا أهلا وسهلا ! دا احنا زارنا النبى !

« ثم قالت وهى تربت على ظهرى كأننى طفل :

- إتفضل ياخويه ! تصبيره لحد ما اجهز لكو الغدا !

« صحت محتجا :

- لا ! غدا إيه ؟ داحنا بقينا على وش مغرب وأنا لازم أرجع

لأنى عندى ضيوف مهمين !

« سلطت على عينين كفوهتى بندقية تكاد كل فوهة تشطرنى

إلى نصفين ثم حلفت بالطلاق من ذراعها أن لا أخرج من هنا إلا

بعد تناول الطعام فالببوت ليست سائبة إلى هذا الحد ندخلها

ونخرج بمزاجنا وقتما نشاء !!!

« كان الغداء شهيا بالفعل تفوح منه رائحة الأنتى مختلطة
برائحة التوابل الحريفة لدرجة أننى ابتهجت إذ بدا لى الأمر كله
كحكاية عصرية طريفة مسلية لا بأس من الفرجة عليها حتى
النهاية فتركت باهر يزعم لها ماشاء له الزعم دون أن أعلق أو
أهتم !!!

« قال لها إننى من أعمدة عائلته وأننى أكبر شاعر فى البلاد
العربية كلها وأن الحكومة تخشى بأسى فتقيم لقصاصدى النارية
الف حساب وأننى مقيم فى أعرق أحياء القاهرة فعنوانى هو كذا
ورقم تليفونى فوق البيعة مع أنه رقم تليفون الجيران كما يعلم
ويعلم أكثر أننى أضيق بمن يطلبنى فى هذا الرقم كما أضيق
بهذا الرقم نفسه !!!

« صارت هى تكيل المديح لعائلتنا وطيب أصلها تعرب عن
شوقها لزيارتنا فى البلد وزيارتى أولا وقبل كل شئ فى منزلى
مادمت قريبا !!

« فى النهاية قام باهر ليرتدى بذلته كى يوصلنى فتعلقت هى
بطوقى قبلتنى على الخدين فى حرارة حملتنى السلام إلى
العائلة فردا فردا وبأسمائهم مع أنهم جميعا قد ماتوا منذ وقت
طويل !!!

« أخيراً خزجت السيارة من عنق الزجاجة فامتلك الطريق
السريع على الكورنيش فأشرت لضياء أن يحود فى الطريق

المؤدى إلى شقتى لكن باهر كان قد شعر بأن فى الأمر خبر غير
سار فطلب من ضياء أن يتوقف أمام إحدى المقاهى !!!
« نزل طالبا منا أن ننزل ففعلنا جلسنا على الرصيف نشرب
الشاي الذى طلبه لنا بحفاوة كبيرة ثم مال نحوى :

- فيه إيه بالضبط ؟ أكيد حابه حصلت !!!

- عمك هنا يريد أن يراك يطمئن عليك !!

« شحب وجهه تدلت أذناه ولأول مرة أراه منكسرا ضعيفا
خائفا حتى أنه زحزح كرسيه إلى الوراء ثم وقف فاقترب منى
أمسك بكتفى فى استرحام :

- إعمل معروف ! مقدرش أشوفه دلوقت ! أنا فى ورطه مهيبه
! حاغلط فى الكلام ولو عرف منى حيطب ساكت ! أرجوك !
قول له إنك ملقيتنيش ! وأنا من ناحيتى حاكلمه فى التليفون فى
البلد أسمعته صوتى وأطمنه على أخبارى ! حاكتب له جواب أقول
له إنى باشتغل بعد الظهر وحاوره عليه مصاريفى ! المهم إنه
مايشوفنيش دلوقت !! إخدمنى هذه المرة فقط ! وحامر عليك
بعد يومين ثلاثة أشرح لك كل شئ !!!

« نهضت فسلمت على ضياء بحرارة شكرته ثم انصرف
تاركا صاحبتنا منكشأ فى قعدته كشقى مذنب !!!

« فى الطريق إلى شقتى استحسننت فكرة الزعم بأنى لم
أجده إذ لو أننى طاورت انفعالى المكبوت وضيقى بما رأيت فإن

صديقي الحميم قد يقع ميتا بالسكته القلبية !!

« نذر صديقي حينما رأى أدخل عليه بمفردي جعل يحملق في وجهي بنظرة استطلاع متفجعة لكنني وفقت في إقناعه بأني توصلت إلى مسكنه في الوراق وأنني تأكدت من انتظام الولد في الدراسة غير أنه يشتغل بعد الظهر لدى أحد المقاولين طلبه اليوم للسفر معه إلى مدينة طنطا وسيعود بعد يومين وأنني تركت له رسالة ليمر على للأهمية ولسوف أجيء به إلى البلد فما على صديقي إلا أن يتكل على الله يسافر مطمئن البال !!!

« في الصباح قمت بتوصيله إلى محطة رمسيس أركبته القطار وأنا على ثقة أن الكثيرين من أولاد الحلال سيساعدوه كلما احتاج لمساعدته !!

« لأول مرة يفى الولد بعهده فيكلم عمه في سنترال البلد بل ويسافر خميسا وجمعه فتمكن بالفعل من إقناع عمه بسلامة موقفه فاطمان العم واستقر خاطره !!!

« سنوات الدراسة كلها مرت وأبنتهت ! وذات ليلة فوجئت به يدخل على مبهتجا يزف لي خبر نجاحه وحصوله على بكالوريوس التجارة بتفوق ! وكان يحمل حقيبة سفره ..

– إلى أين السفر ؟..

– إلى البلد إن شاء الله ! ألم تنته الدراسة ؟ ما الذي يبقيني هنا ؟!!

– زوجك طبعاً !!!..

« انفجر ضاحكا كشيطان التمثيليات الإذاعية :

– زوجي من ياراجل ياطيب ؟! كانت مرحلة وانتهت ! مجرد

محطة في الطريق الشاق !!!..

« ثم حمل حقيبته وانصرف إذ لابد أنه قرأ في عيني رغبتى

الملحة في انصرافه !!..

« لم يمض على انصرافه أكثر من أسابيع قليلة إلا وقابلته

في البلد يبرطع في الشوارع كالبعول الإستراالى فلما سألته عن

آخر أخباره عرض على أوراقه فإذا هو يتأهب للسفر إلى

السعودية بعقد عمل ثمين للغاية في وظيفة مجاسب بمرتب

خيالى بالعملة الصعبة !!..

« لم يطل عجبى إذ مالبث حتى صرح لى بأن والد أحد رفاقه

– العضو بمجلس إدارة نادى الجزيرة – هو الذى توسط له فى

هذا العقد الذى لا شك سيوفر له ثروة كبيرة فى سنوات

قليلة !!!..

« لم يعد فى الحياة ثمة ما يدهش على الإطلاق إنما كنت

حزينا غاية الحزن على مصر التى لم يعد فيها أى مكان

للشرفاء الأصلاء بعد إذ يصبح لمثل هذا الولد المخرب مكان فى

الطبقة المؤثرة فى مجريات الحياة وقلت لنفسى أنت واحدها

وهى أعضاؤك انتشرت صارت أشلاءاً يتناهشها الإنتهازيون من

كل حذب وصوب !!..

« فى نفس تلك الليلة المشئومة جاءنى زوار الفجر فعاثوا فى دارى فساداً قلبوها رأساً على عقب لم يتركوا مكاناً بغير تفتيش ثم رحلوني إلى السجن مكبلاً بالحديد لأعرف هناك أننى متهم بتنظيم حزب للبعث العراقى وأننى عميل لصدام حسين !!..

« أحببت تعذيبى وسجنى لسببين عظيمين كانا اكتشافين خطيرين بالنسبة لى ! إكتشفت قدرتى على الصمود وحماية الكبرياء الجريح من السقوط فى الوحل ! واكتشفت حب الناس لى ذلك الحب الكبير ! فلقد قامت الدنيا كلها تطالب بالإفراج عنى تندد بتعذيبى تهز الأرض تحت أقدام الجلاد !!..

« تلك هى القوة البديعة المقدسة التى بها ولها تنشأ قصائد تتفرع فى كل الأنحاء !!..

« تلك هى القوة التى غذتني بمصل القوة والإحتمال والتمسك بكل مبدأ أمنت به !!..

« أمنت بالأمة العربية وكنت فى لحظات الضيق أكاد الحد بها من فرط الظن بأنها تحللت فإذا هى تحتوى على خميرة لا تموت ولا تفنى !!..

« لزمتم شقتى أستقبل وفود المهنيين من كل مكان حتى الذين لم أكن أعرفهم جاءوا مهنيين ! حتى الذين كانوا

يتصوروننى مجرد ملثاق فى عصر عاقل إكتشفوا أن لى قيمة كبيرة !!..

« كثيرون لم يكونوا يعرفون ماهى مهنتى بالضبط ؟ مامعنى أن يكون المرء شاعراً ؟ وهذا من بين الفوائد الكثيرة التى نجنيها من وراء جهل الجلاد ! فكثيراً مايتولى الجلاد مهمة فضح الحقائق وتوضيحها من حيث أريد له تضليلها وطمسها !!..

« كان من الطبيعى أن يزورنى المهتمون بالأدب لكن ليس من الطبيعى أن أفاجأ بضياء يزورنى هو الآخر مهنتاً !!..

« طرق بابى ذات ليلة إرتدى فى حضنى قاتلاً إنه لم يكن يعرف أننى مهم إلى هذه الدرجة وإنه تابع كل أخبارى فى جميع الصحف فلما علم بالإفراج عنى قرر أن يقتحمنى ..

« وضع أمامى زجاجة ويسكى كبيرة أتى بها من السوق الحرة على شرف المناسبة !!..

« من حسن حظى أن كنت وحدى فى تلك الليلة فلما سكر ضياء صهّل وانتشى ركان لا بد أن تجئ سيرة باهر !..

« بذكائه اللامح «رك ضياء أننى لا أكن أى احترام لسلوك باهر فقال صراحة إنه وكل الشلة ينظرون إلى باهر نفس النظرة يعرفون أنه انتهازى لكنه مسل وخدم ! ثم قال ماذهلنى :

« لقد بدأ باهر منذ ليلة الزفاف يكثر من زيارة عونى بك
عضو مجلس إدارة نادى الجزيرة يدخل فى زوارقه يقنعه بأنه
طالب مكافح مجتهد يستحق الإحترام والمساعدة !..

« عونى بك هو الآخر ضرر لا يمكن خلعه ليس من السهل
الضحك عليه لكنه فهم الولد استوعب شخصيته ظروفه وجد فيه
صيда ثمينا يبحث عنه من زمن بعيد !..

« ذلك أن عونى بك يتاجر سراً فى جميع أنواع الممنوعات على
مستوى كبير جداً إذ هو فى الأصل تاجر سيارات لديه توكيل
من شركة المرسيدس يملك أكثر من عشرين صالة عرض فى
مصر. والبلاد العربية وقد اختار باهر ليعمل فى فرع تابع له
بمدينة الرياض وسيدفع له هذا المرتب الكبير لأنه الوحيد الذى
يستطيع أن يكلفه بمهمات تهريب تقتضى جسارة كبيرة
وصفاقة أكبر لا يقدر عليهما إلا فتوة دهل كباهر !..

« من جهة ثانية فإن الرجل العقر لديه ابنة أخت أشد دمامة
بكثير جداً من كامله أيوب وفوق ذلك سيئة السمعة والسلوك
يعبث بها كل رواد النادى ليل نهار حتى السعاة والنوابل
والفراشون ناموافى حضنها طويلا حتى سنموها بما هى
مريضة بالشبق لا تشبع ممة حتى وهى تدفع ثمن إمتاعها
بسخاء وسفه لا ينضب لهما معين ثروتها الضخمة المكونة من
حصص كثيرة فى مشاريع خالها وسبع عمارات فى مصر

الجديدة ورصيد فلكى الرقم فى البنوك وهى إلى ذلك كله وحيدة
يتيمة الأبوين !..

« أوعز الرجل العقر إلى باهر بأنه سوف يزوجه من شيرين
ابنة اخته هذه لو أنه استقام وشاف شغله بإخلاص وذمة
وتفان !..

« طار الولد من الفرع ! والبنت هى الأخرى ماصدقت أن
وجدت شابا فتيا يموت فى هواها ولو بالكذب فتشعلقت به
رسمت عليه دور الحب الذى جيد رسمه حتى الذوبان فى كل
من هب ودب !..

« ضوعف اهتمامى بالأمر فسألت ضياء :

- هل طلق الولد زوجه حقا ؟ !..

« تدفق ضياء فى صفاء تدفق الضوء على لؤلؤه :

- هو يقول إنه طلق ! صدقناه ! إننا نصدق دائما كل مايقول
! ماقصدت أنه صادق بالفعل إنما أقصد ! مثلما تقول يعنى : لا
نحب وجع الدماغ ! لا نريد أن نجادله لأننا نعرف أن مخه طاقق
من حاله ! بصراحة نحن نريد أن ننسب والسلام فصدقه أو
كذبه ليس يعنيننا ! طلقت يا باهر ؟ نعم طلقت ! خلاص طلقت
طلقت ! خيرها فى غيرها !..

« كنؤس الويسكى التى كان ضياء يحتسيها بحكمة وحرفة
وكياسة تدل على أن مشروب الويسكى طقس يومى سائد فى

حياة أسرته ! هذه الكتوس مالبثت حتى زهرت فانفكت عقدة
اللثة عن لسانه إنفرطت الضحكات من صدره بغزارة طازجة
تماما كأنه يضحك لأول مرة فى حياته كأننى لأول مرة كذلك
أرى مخلوقا يضحك بل كأننى اكتشفت اكسير الضحك الآن
فحسب !!...

« لا لم يكن ضحكى قبل الآن ضحكا لا ولا ضحك جميع من
عرفت من البشر ! إنما الضحك هو ماأراه الآن حيث يستحيل
الإنسان إلى عجينة من البهجة مثل المهلبية أعماقها فى
سطحها !!...

« محور الضحك هو باهر واقاعيله نوادره التى راحت
نكرياتها تتدفق على رأس ضياء فيهز جبهته الضيقة للمسوكة
فى أعلاها بفروة من الشعر الأكثر المنظوم على شكل فوضى
! فتتفرط الذكريات كحب الرمان تغمر الأرض تملأ الكتوس بدلا
من قطع الثلج فتخفف من لذع الشراب وحدته !! عدوى الضحك
تسرى فى بدنى سريان الريح فى جمرات اللهب فتتفطر عظامى فى آتون
الإحترق لا أرى دواءا للألم سوى أن أصب عليه الضحك لعلنى أحمى الرغبة
الجارفة فى البكاء الحارق فى العويل إلى حد الندب والنواح !! فالولد الذى سبق
أن أحبته أملت فيه خيرا لم يكن سوى خرقة بالية يمسحون بها
أحذيتهم ليس لكونهم أشرار بل لو ضاعة فى الخرقة لا أدرى
مضى تأصلت فيه ولا كيف !!...

« أبدا لم يكونوا أنبغ منه ولا أذكى ولا أكرم إلا أنه الإنسحاق
أمام الدرهم والدينار إنسحاق من ليس معه تحت نعال من معه !!
أهو دين جديد اسمه دين الثروة تأصلت فى شباب العصر
صارت عقيدته ؟! أهى عقيدة يتمسح فى شرفها المتعبدون ؟! أية
ريح سموم هبت علينا من الصحراء فلفحت ديارنا بهذه
الجرائيم الفتاكة ؟!...

« لا لم يكن اكتشافا لأنهم - ضياء والصحبة = حاولوا
نصحه باللحاح الذكية لكنه تغابى ! بل إن مدكور نفسه ظل
يمارس العلاقة بشكل طبيعى وبكل حرية إنشاء غيبة صاحبنا فى
الكلية ! فكان يوصله إلى المدرج ويتسلل عائدا لياخذ مكانه لا فى
بيتها إنما فى بيته هو حيث يبعث بأمه لتجلس مكانها على
الفرش حتى ينتهى هو من مهمته !!...

« سطح مدكور كان مباحا للشلة كلها دون أى تحفظ !
يستطيع كل واحد أن يأتى فى أية لحظة فيصعد إلى السطح حتى
لو لم يكن مدكور موجودا فلا تثريب عليه إن هو فتح الحجرة
وأشعل منقد النار وجهز للتشيش وحده إلى أن يدركه أحدهم
فى لحظة مقبلة لا محالة !!...

« نَنْ دماغ ضياء وهو فى طريقه من مصر الجديدة إلى الجامعة فلما تذكر أن المحاضرة الأولى لدكتور محنت لا يحب تزمته ولا يستسيغ لكنته المتأجبة حول اتجاه السيارة إلى طريق الوراق ميمما شطر سطح مدكور ليبخر رأسه بثلاثين أربعين حجرا !!... »

« كالعادة أوقف السيارة واشترى الفحم والمعدل وبعض قطع الشيكولاته وعلب البسكويت ثم صعد إلى حجرة السطح فوجدها على غير العادة مغلقة من الداخل بالترباس فاستراب فى الأمر فتمهل فشعر بأنفاس تتردد فى داخل الحجرة وثمة حركة كانت قائمة لكن وقع خطواته على السلم والسطح استكتها !! فعمد إلى التخابت فمضى بوقع خطواته الصاخبة فى اتجاه السلم ثم اخذ يهبط بصوت عال ثم عاد فقف راجعا على أطراف أصابعه كأنما أنفاسه فجلس لصق الباب مطمئنا إلى أنه قد أوههمم بالإنصراف وحينئذ طابت له ضحوية رائعة هدهدته سمفونية العشق المحتدم خلف الباب مباشرة حتى أغرقته فى اللبل فشعر بالحسد تجاه مدكور على فوزه بهذه الغانية المعطاء السخية !!... »

« على أطراف أصابعه ابتعد إلى ركن قصى من السطح فاقترعه فطالت قعدته حتى كاد يمشى بالفعل مكتفيا بما ناله من بلبل ! لكن الباب انفتح وخرجت منه كامله أيوب تعدل فى

ثيابها تهزول نحو فتحة السلم دون أن تراه فى حين بقى مدكور متمدداً على أرض الحجرة خلف بابها الموروب ! فلبث هو فى مكانه برهة طويلة سخن فيها بضع سجاثر ثم نهض متجها إلى الحجرة فدخلها ليجد مدكورا قد استسلم لسنة من النوم كالثور الذبيح فتركه وأنصرف لشأنه الذى جاء من أجله !!... »

« من الطريف أنه استيقظ على صوت اختبار الجوزة فألقمه ضياء بوصتها فى الحال ولم يفتح فمّه بكلمة !!... »

« مرات عديدة يحاول هذا الر الصافى استثارة نخوة باهر إلا أن هذا الأخير كان يتجاهل الأمر حتى اضطر أن يسأله ذات ليلة سؤالا مباشرا وصريحا :

- باهر ! أنت واثق تماما من إخلاص زوجك لك ؟

« فإذا برد هذا الملعون :

- أعرف كل مايدور فى دماغك ! رأيت شواهد وتأكدت منها !!

« حينئذ سأله بغيظ واحتقار :

- فلماذا تسكت ؟ ألسنت رجلا ؟

« فشوح يذراعه فى أسهتار :

- بينى وبينك أنا محتاج لفلوسها ! لطعامها ! لفراشها !

لجسدها ! والمحتاجه غناجه !!

« أحببت ضياء لأن ضحكاته الهازئة بهذا المسخ الشائه كانت

على صفائها تنضج بالمرارة والإستنكار والدهشة !! طلبت منه أن

يزورنى كلما وجد نفسه قريبا من شفتى !!..

« إختفى أسابيع طويلة ثم فوجئت به يطرق بابى ثانية قرب منتصف الليل وكان ثملا حتى النخاع يمسك بيده صحيفة مطوية تبينت من شكلها أنها جريدة المساء فتوقعت أن يكون من هواة الصفحة الرياضية !!..

« جلس قبالتى فأخلد إلى صمت شارد النظرات تنضج صفحة وجهه المحمرة بصفاء طفولى كامل السمات ! وجه مبتهج بطبعه ونظرات قلقة زرقاء زائغة ولفافه تبغ لاتنى تلثم شفثيه فى شغف !..

« قدمت له شايًا فقهوة فشايًا لعله يتكلم لكننى كلما استنفرتة للحديث نظر فى وجهى وابتسم كأنه نذر للرجمن صوما فلن يكلم اليوم إنسياً !!..

« إلا أنه حينما تأهب للإنصراف بدا كأنه تذكر شيئًا طريفًا برقت له عيناه وابتت فيهما الحيوية كمن اكتشف أخيرا موضوعا صالحا للحديث الطلى ! فامتدت يده إلى الجريدة المطوية ففردها بيد مرتعشة ثم طواها مبرزًا صفحة الحوادث وقدمها لى قائلاً مع اختلاجة سريعة فى خديه وشفثيه :

- تعرف لمن هذه الصورة ١٩

« إنتفض قلبى غاضت الدماء فى عروقى طلبت الستر من الله حملقت فى الصورة كانت لامرأة شوهاء الوجه ممزقة

الجسد بطعنات لا حصر لها كأن طفلا معتوها حاول تخريطها بسكين صغيرة وكان للوجه ظلا أليفا وثمة ملامح أخطأها حد السكين فبقيت كظل متجمد لتمثال معروف للذاكرة !! قطبت حاجبى قائلاً :

- « أحس أنها معروفة لى بعض الشئ ! نعم ! أظن أن فيها بعض الشبه من كاملة أيوب زوجة باهر !!..

« هتف ضياء بفرح طفولى :

- بالضبط ! أنا أيضا قلت هذا ! كنت الآن فى بار الكوزموبوليتان فرأيت الترابيزة المجاورة لى مشغولة بهذه الصورة وبالحادثة فاستأذنتهم للنظر فيها ! فلما جاعنى هذا الخاطر قلت أمر عليك لعلك تكون أدق نظرا منى ! أردت صاحبها يشاركنى الرأى والإهتمام بالخبر !

« لم أسمع بقية حديثه إذ انكبت على قراءة الحادثة فيما جيوش وقوافل من النمل تتمشى فى عروقى تبث اللهب فى كل أعصابى تضخ فى رأسى سحبًا من النذر الشريرة !!..

« هذه الجثة عثرت عليها مباحث محافظة الغربية ملقاة فى الهيش بين أرواد التيل والحلفاء وبحذائها جثمان طفلة رضية تنطبع على رتبته أثار الخنق بأصبعين غليظين غائرة فى الرقبة تحت الفكين !! وقد عجزت مباحث الغربية عن الإستدلال على شخصية القتيلة وهى الآن ملقاة فى المشرحة هى وجثة طفلتها

رغم الإنتهاء من فحص جميع البلاغات السابق تقديمها عن
نساء مختلفيات بل إن كل أصحاب البلاغات قد عاينوا الجثة
وأنكروها !!!

« سألنى ضياء بشكل عفوى :

- منذ متى لم تر باهز ؟

- منذ دخولى السجن ويظهر أنه سافر إلى الخليج للشغل

هناك !

- لا ! لم يسافر بعد لأنه كان معنا منذ حوالى أسبوع وربما

أقل ! كان مشغولا بتخليص مسألة التجنيد باعتباره العائل

الوحيد لأسرته ! كان فرحا كالمجنون لأن الرجل العقر جهز

لتسفير شيرين معه كي تتولاه بالرعاية وفى نفس الوقت تكون

جاسوسة !!

« ثم أردف بعد برهة كأنه تذكر الخبر اليقين :

- سفره لن يتم قبل أسبوعين بالضبط هذا ماقالته لى

شيرين فى النادى أول أمس !!

« ثم شوح بذراعه قائلا وهو ينهض :

- فضنا من سيرته يلعن ميّتين أمه ! هو خميرة عكنة فى

كل مكان !

« وعانقنى بحرارة ثم انصرف تاركا لى جريدة المساء فبقيت

صورة الجثمان المشوه تلقى بظلالها القاتمة فى ردهة الشقة

أياما طويلة ولا أدرى لماذا لم أرفعها من مكانها فوق الطقطوقة
لأرمى بها فى أى قمامة !!!

« المصائب لا تأتى فرادى ؛ ولابد للحدث أن يفرض إيقاعه على

جميع الأطراف حتى أولئك الذين لم يشاركوا فى صنعه !..

« إن هى إلا أيام قليلة حتى طرق بابى ذات صبح مبكرا جداً

لم اعتد الصحو فيه إن إنى بالكاد أكون استسلمت لطائلة النوم

العميق !..

« الطرق كان ملحاحا متوترا يعكس إصراراً راسخا بشكل

يصعب تجاهله أو احتمالاه ..!

« نفضت نفسى عن السرير متطوحاً متلفتاً حوالى فى حقد

عظيم أكاد أبحث عن هراوة احطم بها رأس ذلك الحيوان الذى

جبرنى على الصحو الآن وأنفى فى الرغام !!!..

« ماأن فتحت الباب حتى اقتحمه أفندى عملاق سمح يوحى

بالعشم وإسقاط الكلفة يسحب فى يديه طفلين صغيرين على

خدودهما حفر البكاء أخاديد غائرة ترفل خطواتهما المتعثرة فى

سمت مقهور وبؤس أليم !!!..

- فيه إيه يا جدد أنت ؟ إنت مين ؟ عايز مين ؟ عايز إيه ؟

« قال الأفندى فى كثير من الأدب وبلهجه كيسه :

- أنا أسف يا أستاذ جعفر ! صباح الخير أولا ! أسف جداً إنى

تلفتك من النوم لكن اعذرنى أنا مضطر ! إقعديوا بإعيال !!

- تحت أمرهما !!

- كل ماأطلبه منك أن تصف لى كيفية الوصول إلى بلدتكم
فأنا بإذن الله لابد أن أصل إليها اليوم !

- الأمر عاجل إلى هذا الحد !؟

- باهر كان عندنا منذ حوالى ثلاثة أسابيع لأنه كان معزوراً
فى قرشين من أجل تخليص أوراقه للسفر ! كان متفقاً مع
كامله أن يسافر بمفرده أولاً ثم يعود فى أول إجازة ليأخذها
بأولادها بعد أن يكون قد دبر لها مسكناً ! الولية بصراحة ربنا لم
تبخل عليه بالمال ! باعت مصاغها كله وأعطته ثمنه لحجز تذكرة
السفر !! لكنه فى المرة الأخيرة القريبة طلب منها مائتين
دبرتهما له من لحم الحى ! بات عندها ليلتين ! صارحته
بمخاوفها قائلة له لا أحد يضمن الموت من الحياة وأنت مسافر
ياعالم تشوف بعض تانى ولا لا ! اتصدها أن يحقق لها أمنية
واحدة قبل سفره : أن يعرفها بأهله ليتعرف الأولاد على أهلهم
ويتعرف الأهل على لحمهم الطرى ! المهم أنها اشتغلت فى
العايط ! قالت إنها لم تؤخر له أى طلب مهما كان وهى فى
المقابل تطلب طلباً واحداً تعيش بعده مطمئنة فى غيابه خاصة أنه
ليس من المعقول أن يدخل زواجهما فى العام الخامس دون أن
تعرف أهله !! فرق قلبه ! رضى أن يأخذها معه إلى البلد مع
الطفلة الرضيعة فقط ليبيتا هناك ليلة واحدة تعرف فيها سكة

قلت فى ضيق وتشاؤم :

- من أنت أساساً ؟

قال متلطفًا محاولاً تطيب خاطرى :

- تسمح لى أقعد مع حضرتك دقيقتين بالعدد ١٩

شوحت نحو للمقاعد :

- تفضل ! خير إن شاء الله !؟

أشار بيده نحو صدره :

- أنا مذكور ! بكالوريوس تجارة ! أعرف حضرتك من ندوات

الجامعة ! من أشد المعجبين بشعر حضرتك !

- مذكور من ١٩

- مذكور الدُّش صاحب باهر قريب حضرتك ! قصدى

بلديات حضرتك ! ودول ولاده : عدلى وجعفر ! واحد باسم عمه

والتانى باسم حضرتك !!

تلقائياً حملقت فى وجهى الطفلين بتفحص دقيق فرأيت دم

باهر مبعوثاً فى الوجهين بصورة لا لبس فيها ولا اشتباه

فشعرت نحوهم بحزن شديد كدت أبكى لكننى استرجعت هدوء

أعصابى من أجلهما تلطفت قدر الإمكان :

- أجييب لكم تاكلوا ؟ تشربوا شاي بحليب ؟

لكن مذكور أصر أن أبقى جالساً لأنه فى عجلة من أمره :

- لا نطلب منك غير خدمة بسيطة من أجل هذين الطفلين

أملها الآمنين الآن فى أعقار دورهم ؟! كيف يكون حال صديقى
المسكين ...؟

« كانيلاج خيط الضوء فى جبهة الظلام القاتم لمعت الخاطرة
فى رأسى فتماسكت أعصابى فاستطعت الوقوف فتبينت القدرة
على المشى فانجهت إلى المطبخ صنعت الشاى بالحليب جهزت
طهورا سريعا من أجل الطفلين منحت نفسى فرصة تقليب
الخاطرة على نيران هادئة حتى استوت ...! »

« مع رشقات الشاى وإقبال الطفلين على الطعام بشهية إلى
حد الإستفراق استطعت تهدأة مدكور وإقناعه بحل أسلم وأسهل
يوفر عليه مشقة السفر ... »

« من فورى نزلت إلى أقرب مكتب للهاتف فكلمت باهر فى
البلد طلبت منه ضرورة الحضور لاستلام طفليه بدلا من أن
يجى بهما صديقه إليه ... »

« لحظة. تحول الظلام من النافذة المظلمة على مقابر الإمام
الشافعى كان هو يدخل من الباب ...! »

« ما أن رأى مدكور والطفلين حتى أصابه الوجع والإرتباك
لمرّوح لكن لبرهة خاطفة سرعان ما استرد بعدها تماسكه فأقبل
على مدكور يحتضنه بشوق مردداً أن كامله أصابتها وعكة
صحية بسيطة ! ثم اندفع إلى الطفلين فحملها يقبلهما
بحرارة ...! »

« إستغرق ذلك كله دقائق معدودة رحت خلالها أتأمله فى

البلد لتزورها بعد ذلك هى وعيالها فى غيابه وقتما تشاء ! على
خيرة الله ! تركت الولدين فى عهدتنا حتى تعود بعد ليلة واحدة
لكنها لم تعد حتى الآن !! إستحلت المرعى هناك وتركنا
موحولين بعيالها ! ماضاقت أمى بالولدين لكن بكاءهما يقطع
قلبى كما أننى بدأت أنشغل بهذه الغيبة الطويلة ...! »

« الأرض كانت تدور بى فى دوامة هائلة حتى خيل لى أن
جميع البراويز على الحوائط والأشياء الموضوعة كلها سوف
تنقلب فى لمح البصر ! صرت أتشبث بقبضتى فى مسند المقعد !
جف ريقى كالرغيف اليابس تنتقل عينائى بسرعة الضوء بين
مدكور والطفلين وصورة الحثمان المشوة الملقاة فوق الطقطوقة
أمامنا ...! »

« إستللت صوتى من جرابه الصدى بصعوبة مريرة :

- لكنى يا أخ مدكور سمعت أن باهر طلق زوجته !

« ضحك ضحكة أسيفة :

- طلقها ؟! هه ! يقول طلقها ! اطمئن يا أستاذ جعفر ! أمثال

باهر لا يطلقون أبداً ...! »

« الورطة السوداء أحكمت حصارها حول عنقى سحب قائمة
تصادم فى صدرى تبعثرنى شطابا أسئلة حائرة هل أتركه
يسافر ؟! إنها الفضيحة الكبرى لا محالة ! ينقبض قلبى
كأليات حديدية وصورة الحثمان تلاحقنى ! كيف يكون منظرى
نى نظر الناس فى البلدة حينما أتل المصيبة على الطريق إلى

ذهول وحيرة بالغين حد البله أوحّد الشلل وقلبي يحدثنى بأن
هذا المرح الكبير ليس إلا قشرة سميكة تحتها ماتخفى من تورط
وحيرة وغباء منقطع النظير !!!

« حمل الطفلين متجهاً إلى الباب هاتفا :

- إسمحو لى ! لابد أن أبيت الليلة فى البلد لأطمئن

أمهما !!!

« قبل أن يتمكن من الرد عليه كان صوت هبوطه السلم
يبتعد فبعد برهة طويلة انتهت فإذا بمدكور وأنا جالسين فى
المواجهة فى شروء أقرب إلى الذهول وبيننا على الطقطوقة
صورة لجثمان مشوه تنام بجواره طفلة رضية مختنقة !!!

« إنصرف مدكور بعد أن أشبعنى اعتذار وشكرا دون أن أجد
القدرة على النطق بأى كلمة !!!

« حينما أويت إلى الفراش مهدوداً ممزق القلب كان النوم رغم
نلك يتأبى ويتمنع ! فعلى حافة الأفق عند أول ضفة من ضفاف
النوم يرقد جثمان ممزق الجسد بالسكين وبجواره طفلة
مخنوقة بقسوة بالغة !!!

« غير أن تمساح النوم اختطفنى على حين غرة فابتلعنى فى
جوفه برهة خيل لى أنها قصيرة وأن جوف التمساح قد ضاق
على جسدى فلفظه رمى بى إلى بعيد أتخسر خربشات أنياب
لا بد أنها انغرزت فى لحمى فتركها فك التمساح لى ضلوعى !!!
« فتحت عيني فإذا النهر التالى قد انمحق لم يبق منه إلا

أقله !!!

« جهزت حقيبة السفر لبست ثيابى نزلت إلى قهوة زهرة
البستان دفنت نفسى فى صخب الصباح تنقلت فى بطانتهم
الدافئة من الأتيلية إلى مستودع البيرة إلى القهوة ومنها توجهت
إلى باب الحديد فركبت منه إلى البلد !..

« فوجئت بباهر يبرطع فى البلد وحده ليس ثمة من أثر
لزوجه أو عياله !!!

« لم أطق صبراً سألت الناس فاندھشوا سألت صديقى
المهندس عدلى فاستنكر ، لا علم له بهذه المسألة على
الإطلاق !!!

« تصدع بنيانى تهاويت على صدر عدلى اعترفت له بكل
كبيرة وصغيرة حتى صورة الجثمان المشوه والطفلة المخنوقة
فى جريدة المساء !!!

« البطل القديم ليس ينهزم بسهولة ! فبكل صمود وقوة
استمع إلى القصة دون أن يقاطعنى فلما إنتهيت من خكايتى
بعث فى طلب الولد فلم يجد له أثراً وقيل إنه شوهد يحمل حقيبة
السفر ويمضى فى اتجاه محطة القطار منذ ثلاث ساعات على
الأقل !!!

« قال البطل القديم الجديد فى مشوه بصرى :

- وما الذى يتخفى علينا أن نفعل الآن فى نظرك ؟ أعطنى
مشورتك !

- رأى أن تبادر بتبليغ الشرطة بطبيعة الحال وفورا !

- وهو كذلك ! هذا أقل ما يجب !

» ثم تزعزح نحو دراجته وبدرية كبيرة قفز إليها فمضينا

معا إلى قطاع المباحث فأدلىنا لرئيسه بكل مالدينا !..

» اليوم فوجئنا بأننا مطلوبين من مركز الشرطة فذهبنا !

ليؤكد لنا أنهم قد نجحوا فى القبض على الولد فى نادى

الجزيرة وأنه اعترف بكل شئ : كيف استدرج زوجه إلى شرب

المخدر فى الشاى فى استراحة الطريق الزراعى وكيف استدرجها

للهيش قرب مدينة قطور ليطعنها خمسا وثلاثين طعنة نافذة !!

وكيف أطبق على عنق الطفلة الرضيعة بأصبعيه !! وكيف عاد

بالطفلين فوقف بهما على كوبرى دسوق فى عمق الظلام وهما

نائمين فيلقى بهما فى قلب النهر واحدا بعد الآخر فى ثبات

وقوة !!..

» مثل كل ذلك أما منا نون أن يطرف له جفن كأنه يتدرب على مسرحية

حميمة سيفتتحها غدا وسط تصفيق الجماهير الغفيرة !!!..

١١ - مَرْجَلُهُ

.. «العواف على الرجال ...

- أهلا خاله مسعدة ! جاء دورك !

- حضرت فى الوقت المناسب !

.. « مالكم ساكتين هكذا كأنكم فى مأتم ؟! يوه ! بسم الله

الرحمن الرحيم . على كل حال اطمئنوا .. بغلة العرش تعرف

سكنها وحدها .. هى ليست عبيطة لتفوت أمامكم على عينك

ياتاجر .. عشمكم عشم إبليس فى الجنة .. ولكن من يعرف ؟

ربما رجع واحد منكم إلى داره فلقبها فى انتظاره ..

« ولكن لا ، ليكون فى معلومكم أن الله سبحانه وتعالى يلهم

عبده من أول الليل ، « بقى البنى آدم شاعر بأنه يجب أن يلزم

أمره .. لابد أن الله يعطله عن الخروج بأى شكل ليكون فى

نصا البغلة عند وصولها سرا .. نعم يا أولاد ، إنها تاتى فى

سرا وبغرة قادر لا يراها أحد .. أنا والله من مينة بحتى صرت

ساقرة التى عليها البيضة .. لم أطق صبرا على القعود فى

حوش الدار ولو كانت البغلة من نصيبى لحببني الله فى قعدة الحوش ، مع انى وحق النبى اشرف خليفة الله استحق هذه البغلة من عمر طويل فات ...

« يوه ! من هذا ؟ الشيخ عبد المقصود ابو غلاب ؟ تمسنى بالخير ياشيخ عبد المقصود. الله يحبني لانى رايتك الآن .. اعوز منك جوابا على كلام فى دماغى .. أنت تعرفنى من زمن طويل .. فهل أنا أستحق البغلة أم تراها خسارة فى عظمى ؟ .. طول عمرى أجرى على اليتامى .. زوجى عبد الرسول ابو شهبه مات وأنا فى عز شبابى .. ترك فى رقبتي زربة عيال : سبت صبيان وخمس بنات .. الولد الكبير ياقلب امه اشتد حيله فخطفوه لحرب فلسطين فلم يعد .. قلت العوض على الله .. الولد الثانى فى كعبه، كان فى السويس يوم هجم علينا الإنجليز والفرنسيون فى بورسعيد ودارت الحرب فى البيوت وفى الشوارع بغطيان الحلل والمكانس ، فمات وانصهد قلبى عليه .. الولد الثالث كان يجرى على اليتامى ويتعلم فى البندر، فى الصبح تلميذ وبعد الظهر بياع فى محل، إنتظرتة الحكومة اللعينة -- أشوف فيها يوم - حتى نجح فى الكلية ، فأخذته ورمته به فى العريش .. وكان الراديو يصيح ويغنى ويهيص ويحطب ، وفى الصبح طلع هذا كله فى الفاشوش وقالوا لنا : نكسه .. نكسه نكسه ولكن أين ولدى ؟ قالوا إنها نكسه لأن ولدك لن يعود .. بقيت البلدة شهوراً طويلة ترى كل يوم والثانى ولداً

يجئ حافيا مبهدل الثياب مفرهداً من الجرى فى الصحراء ، إلا ولدى لم يجئ حتى الساعة .. لغت الأيام وجاءت الحرب ثانية بعد أن لبس إبنى الرابع فى الجهادية بستة شهور .. وكنت أعرف اننى منكوبة منكوبة ، فكان الراديو يطلق الزغاريد ويقول انتصرنا باسم الله باسم الله وعبرنا باسم الله باسم الله ورفعنا العلم، طبيب أين إبنى بعد مافع محمد افندى العلم فى الراديو ؟ .. روحى ياأيام تعالى ياأيام والحكومة لاحس ولا خبر .. وفى الآخر جاءونى به ياقلب امه لا يدين .. لا رجلين لكنهم دفعوا لى مبلغا زوجت به ثلاث بنات سترتهم بعون الله .. أما الولد ياقلب امه فلم تعجبه العيشة الكرب التى هو فيها .. حبة عين امه كان فى العذاب ليل نهار، حقه خادم يجلس به وأنا شقيانه فى غيطان الخلق اشتغل باليومية والولدان الصغيران يشقيان أيضاً، أحدهما مع هذا النجار الجالس معكم الآن ، والثانى مع محمود افندى خليفه يسرح له بالبهايم تطير أكله وشربه .. العاجز قرف من عيشته فمات .. أما الولد النجار فسافر إلى ليبيا تبع أحد المقاولين .. لا أعرف ماذا فعل به المقاول .. إنما هناك عيال من عزبة الحجر كانوا معه قالوا إن الولد امسكوه بشنطة تبع المقاول فحبسوه.. الولد إفلاح سمع أن العراق تطلب فلاحين تعطيهم أرضا يزرعونها وتصبح ملكهم، أخذ ذيله فى أسنانه وقال يافكيك .. كان يبعث لى يصونه فوق شريط لكنه سكت من يوم ماقامت الحرب فى العراق مع بلدة اسمها البصرة ..

« أنا أربى وأسمن والريح الكاسحة تقش .. ماتجمعه النملة فى سنين يأخذه الجمل فى خفه ويمشى .. الناس كلهم الآن باسم الله ماشاء الله فى عز ونفخة إلا أنا أم الرجال .. هل كنت أخلف وأربى رجالا لكى أخذ فى النهاية خازوقاً اسمه معاش السادات ؟! .. عندى الآن عروسان لا أحد ينظر إليهما مع أنهما من جميلات البلد .. لكن منذ متى كان العرسان يسعون لمصاهرة أرملة لا وراهما ولا قدامها ؟! .. أنا والله وحق ذى الليلة ومساها متأكدة أننى أحق خلق الله ببغلة العرش .. إن كان على رأس القتل فإننى مستعدة أن أكون له أماً ، ربما لا أدفنه فى الزريبة كما يفعلون ، سأبنى له مقبرة تلمه فأنا أم أنجبت الكثير من رعوس القتل ويعلم الله فى أى مكان دفنت رعوسهم .. ولو جاءتنى البغلة فإنى والله مستعدة لبناء جامع محترم لأهل البلد بدلاً من هذه الجوامع الخربانة .. سوف أتصدق على كل محتاج .. أى عروس فقيرة الحال تجد عندى شوارها كاملاً مكمل .. سأبنى لليتامى داراً كبيرة تأويهم وأترك فلوساً كثيرة تطعمهم وتكسوهم .. سأبنى مصانع يشتغل فيها المتخرجون من الكليات بدلاً من لطعتهم طول العمر بغير شغل مادامت الحكومة لم يعد لها شأن بالناس .. يقولون إن مصر مديونة ، والبلد فيها ألف مليون على داود ، ومثلهم ريان ، ولا واحد منهم يمس فى عينيه حصوة ملح ويساعد هذه البلد بقرشين .. ماتجمعه فى بغلة العرش وأنتم ترون .. نقرأ على إن جاءتنى

لأسد دن ديون مصر وحدى .. حبة عين أمها مصر طول عمرها منكوبة بالغز أو بالدين أو بمن يمسك لها العصا الغليظة .. اليوم هى منكوبة بأولادها الذين هم من أبناء الغزو البريطانى ومن تربيتهم لا أحد فيهم يحبها صدقوا خالتكم مسعدة .. الله يقيمها من حفرة ليوقعها فى حديرة بسبب غيلوة ناسها الأغنياء الذين يموتون على الدنيا ..

« الحكومة العبيطة تفتح باب التبرعات فلا يصدقها غير الغلبة الذين يتبرعون بثمن عشائهم فلا تستحى الحكومة فتأخذه تتأويه فى جوفها .. الحكومة أصلها من الأغنياء والأغنياء يوالسون على بعضهم . إبتلانا الله بحكومة تكره الفقراء وتحب الأغنياء كعينيتها .. الفقراء أحباب الله طبعاً ولكنى - أستغفر الله العظيم - لا أعرف لماذا وهو يحبهم يسلط عليهم شوارب العسكر وعصيتهم ..

« لماذا أنت ساكت ياشيخ عبد المقصود ؟ .. زمانك الآن تقول لنفسك : الولية جاءها لطف والعيان بالله .. لا ياشيخ ، فأنا وحق رعوس أولادى التى تدرجت على الرمال فأكلتها الصقور والغربان والذئاب أشعر اننى صديقة لله .. لا تنظروا لبعضكم هكذا فإننى لم أؤخر لنا واجباً أبداً .. لو أن واحداً منكم ضاع منه أصبع واحد لتاه صوابه مدى الحياة .. الدور والياقى على امرأة مثلى ضاع منى كل شئ فلم أزعل من ربنا أبداً ، لم أكشر فى وجهه .. كنت أتعذ وحدى فى قاعة الفرن أبكى من كل عين

حفان، فيدخل القمر من الناروزة في السقف يقول لى : نشفى
دموعك يامسعدة وتوضئى فإن الله قائم لزيارتك الآن.. فأقوم
فى الحال اتوضأ ، أتربع فى انتظاره ، أقرأ الآيات فى الترحيب
بمقدمه الجليل ، ماهى إلا شعرة من الوقت حتى أشعر أنى
انتفض من الخوف اللذيذ، خوف العروس لحظة ينغلق الباب
عليها مع عريسها لأول مرة، يغمرنى الهدوء والراحة ، ينزل
القمر فيقعد أمامى فوق قبة الفرن،فأتأكد أن عبادة الله
كالناموسية تنطرح على أنا وحدى ، أكاد أسمع أنفاسه جل شلنه
يقول لى : لا تحزنى يامسعدة فالمؤمن مصاب دائماً وحقق
عندى لا يضيع أبداً .. أسمع فى الخلاء أصواتاً تناديه سبحانه
صارخة : الله أكبر ، تتردد فى الخلاء متكررة متكاثرة فى
مهرجان كأنه فرح لعرائس الجنة، فأعرف أن صلاة الفجر قد
وجبت، فأنهض واقفة فى اتجاه القبلة ، حين أسجد تحتوينى
طيات ضوئه وحين أركع يلمس جيتهى طرف رداه ، نحين أفرغ
من ختام الصلاة أسمع فى صدرى يرن قائلاً : قومى يامسعدة
شوفى شغلك ياست الستات يالم الصبيان والبنات - ألف
الطرحة حول رأسى وفوقها الحواية ومن فوقها البلاص، أجرى
انمخطر كالفتاة العذراء إلى التربة فأملأه وأرجع أصبه فى الزير
وأعود لأملأه من جديد ...

خمسة أدوار ، رايحه جايه ، فى الروحة الخامسة يلتقيني
قرص الشمس على خد السكة البعيدة أحمر كرجيف طالع من

الفرن يحوطه الدخان ، فكأننى أكلته ساخنا بنار الفرن ، فإذا أنا
صبية عفية تجدد فيها الشباب ... يمتلئ الزير ويبقى فى
البلاص الأخير نصفه، أملأ به القل .. أشمر ذراعى وأخذ الدار
كنسا بالمقشة من أولها لآخرها ، بالمره أكنس قدامها ، بالمره ألم
المواعين كلها فأدعكها بالتراب والماء ، ألم الهدوم فى طست
الغسيل أمرشها وأشطفها وأنشرها على الحبل فى حوش
الدار.. أمد الطبلية أضع فوقها الرغفان وطبق المش وأعواد الخس
والجرجير وطبق بيض مقل، أطلق سراح الفراخ فتملأ الدار
أنسا وفرحاً، ألم ماكان تحتها من بيض أجمعه حتى يمر تاجر
البيض فيأخذه .. بعد الأكل نحمد الله ويتوكل كل واحد منا إلى
حال سبيله .. أكون أول واحدة من الأنفار تصل إلى الملم.. أعود
والشمس مروحة تعافى حوش الدار بالعافية تلف وجهها بشالها
الأحمر الذى تركته فى حوش دارى حين تدخله فى الصباح ..
فلما أراها لا ينهد حيلها أبداً ، أقول لنفسى أجمدى يابنت
يامسعدة أنت الأخرى لا تشمتى فيك العوازل ، الله جاب، الله
أخذ، الله عليه العوض ..

«إنما أريد أن أسألك ياشيخ عبد المقصود بما أنك تحمل كتاب
الله على صدرك : ماالحكمة فى أن بغلة العرش لا تجئ إلا لنس
تعرف أنهم أضل خلق الله وأوسخهم ؟! ماالحكمة أن الله سبحانه
وتعالى يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً ؟! أنا بعقلى البسيط
أقول إن الله يزين لهم الدنيا ليزداد فسقهم وفحشهم ليكون

عقابهم يوم القيامة شديدا مرعبا، ويزين للفقراء الفقر حتى تظهر نياتهم الطيبة وأعمالهم الصالحة ليكون جزاؤهم يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار.. اظن يامولانا أنك توافقنى على هذا الكلام، لكن الذى يحيرنى ولا أقهمه أن البغلة تجئ أحيانا لناس طيبين يعرفون الله ويؤدون فرضه، فما الحكمة ياترى ؟.. هل أكون على صواب إذا قلت إن الله يختبر عباده هؤلاء فيعطيه الفلوس بغير حساب ليرى هل تنسيهم الفلوس أنفسهم فيتجبروا ؟! المصيبة يا جدهان أننى عمرى مارأيت غنيا فى قلبه تقوى الله أبداً .. أعرف أن ربك رب قلوب وهو وحده يعرف القلوب الطيبة من القلوب الخبيثة ولكنى أشهد الشهادة لله أن كثيرين ممن يتظاهرون بالإيمان والتقوى فى هذه الأيام تظهر منهم أفعال يخاف أن يفعلها الكفار وقطاع الطرق ..

أستغفر الله .. أستغفر الله .. اللهم اغفر لى ذنبى ..

« مالكم لا تنطقون ؟! حالكم هكذا لا يسر .. أنتم بمنظركم هذا تخيفون البغلة ، ترصدونها، فهى الآن لابد أن تحول طريقها إلى طريق لا تعرفونها .. إلى دارى مثلا .. وأنا كام لكم أنصحكم بأن تفضوها سيرة فيذهب كل منكم إلى داره، لأنكم الآن تغضبون الله الذى يريد أن يرسل هديته لعبده الموعود فى السر والكتمان .. وعلى فكرة ، الآن فحسب أشعر أنى يجب أن أعود إلى الدار .. اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله .. ماهذه اللهفة على الدار التى لبستنى فجأة ؟! .. اللهم خير .. أقوتكم بعافيه .. »

١٢ - دَهْوَكُهْ

«.. أمر الآن بالصدقة خلّوا بالكم ..

« نعم ! هى الصدقة وحدها دحرجتنى من فوق السرير ضائقا كريانا لا أعرف علام الضيق والكرب فى ليلة مفترجة كليتنا هذه، لكنه الكابوس ، عليه اللعنة ؛ دائما يركب فوق انفاسى فى مثل هذه الليلة ؛ يتوهنى شرقا وغربا يطلع بى من حفرة إلى حديرة يرينى مالا أستطيع تصور رؤيته ..

« الكابوس اللعين يجيئنى فى صور وأشكال كثيرة يتفنن فى تغييرها لكى يرعبنى أكثر مما أنا مرتعب. يدخل بى فى متاهات مخيفة وسرايب مرعبة ولا أدرى لماذا يتسلط على وحدى دون خلق الله . الناس ترى الكابوس مرة كل حين ، إذا اكلوا وناموا بالتخمة مثلا أو ناموا بعد سهر ليال طويلة مرهقة . أما أنا فإنه يجيئنى عمال على بطل. الأعجب من مجيئه أن الناس لا ترى الكابوس إلا إذا نامت ؛ أما أنا فإنه يركبنى وأنا صاح ، وأنا ماش؛ حتى كرهت التمدد فى الفراش فيدروح الملعون يتحايّل على،

يسرح بعقلي حتى يخدره ، يغمض لى عيني حتى وأنا أنتفج
على التليفزيون فى السهرة الممتعة قبل السحور . هُبْ ؛ إذا بى
أرى نفسى فى قلب الفزع المفاجئ . فبينما اكون متربعا وسط
العيال أمام التليفزيون إذا برأسى - كما يقول العيال - قد
انكفات على صدرى ؛ وإذا بى اطلق صراخا كصراخ الأطفال
المفزعين ؛ ففى الحال تمتد يد أحدهم لتهزنى فى رفق. أرفع
رأسى، أشهق، أستعيز بالله من الشيطان الرحيم، أمسح الريالة
عن حنكى المفتوح ذهولا مما رأيته فى لحظة خاطفة لا تزيد عن ربع
ثانية من الزمن؛ فيها يتهاى لى أننى نائم فوق سريرى المواجه
لباب القاعة ؛ فما نظرت إلى باب القاعة حتى رأيت قائما يزحف
نحوه ثم يسده ثم يظهر من خلفه شبح عملاق ضخم الجثة
يغوص دماغه فى سقف الباب يتقمط بسرراويل ملفوفة حول
ساقيه كالعسكري السوارى يمد ساقه من على عتبة القاعة
فيركن ركبته على حافة السرير ويمد ذراعه نحو صدرى يريد أن
يملس عليه بكفه ؛ فإذا أنا قد صرت تحت جبال ثقيلة أحاول
تحريك أى عضو من أعضائى فلا أقدر، حتى صراخى يبدو لى
كأنه غير قادر على الخروج من حلقى ..

« مناماتى مشهورة عندكم؛ فكل من رأيته فى المنام فى مثل
هذه الليلة من الأعوام الفائتة جاءته بغلة العرش فى الصباح .
لست محتاجا لأن أنكركم بكل المنامات التى حكيتها لكم فى

هذه القعدة نفسها. يكفى أن أنكركم بمنام العام الفائت : بكرى
خليفه كان مساعدى فى شغل البناء؛ كنت أحسن إليه بالعمل
لاحتياج أهله للقرش أما هو فلم يكن يستأهل الخدمة؛ فشغله
كروته، لازمة ولا صنعة ، يسرق الكحل من العين، يكذب، ينم ،
لا يعرف ربنا، يبخلق فى الرزق بعين صفراوية ، يقول ببجاجة :
أنت قبضت من الزبون كذا فأعطنى كذا .. المهم أنتى ضقت به؛
صرت أعطيه الطرشاء إذا تحدثت والعوراء إذا تمنظر. يومها كنا
نبنى جداراً واقعا من مدرسة البلد؛ حضرة الناظر لمح لى -
أمامه - أن العملية خدمة للمدرسة يعنى لن نقبض سوى أجر
يوم واحد حتى لو امتد العمل ليومين ثلاثة. لو كان الود ودى لما
أخذت أجراً ، ولشترت الطوب والأسمنت على حسابى إكراما
لخاطر المدرسة التى تعلمنا فيها القراءة الرشيدة ؛ لكننى طلبت
أجر يوم لى أعطيه لبكرى خليفه أسد به عينه الفارغة؛ مع أن
وقفته قصاى على الجدار لا تريحنى بل تتعبنى ؛ فكل طوبة
يضعها لأبد ، أراقبها فأجدنى مضطرا دائما لعدلها وضربها
بالمسطرين ضربة واحدة تثبتها . حضرته جعل يبرطم بكلام
فهتمت منه أنه ليس له دعوة بالمدرسة يعنى يريد أجراً مضاعفا؛
لحظتها مددت يدى فمسحت المسطرين من يده وقلت له : إتكل
على الله ليس لك شغل عندى . فمضى لحال سبيله واكملت
الشغل وحدى فما دخل المغرب إلا وكان الجدار بعون الله كاملا

على الآخر. مرت الأيام فنسيته، خاصة أنه اختفى من البلد. فلما خلصت حرب أكتوبر وانتهى محمداً أفندى من رفع العلم إنقلبت الأحوال فى البر المصرى كله؛ إذ قال الرئيس السادات لا حرب بعد اليوم ، واصطلح مع اسرائيل وحده ، وجعل مدينة بورسعيد الباسلة مفتوحة لتجار العالم؛ فكل العاطلين من بلدتنا أصبحوا يسافرون إلى بورسعيد لتهريب البضائع وبيعها فى السوق السوداء. صرت أسمع كل يوم أن بكرى خليفه يبيع كذا وكذا : الملابس المستوردة، أطقم الصينى للعرائس ، المسجلات ، شرائط الفيديو ؛ أصبح اسمه على لسان فى كل دار؛ فهو يجيئك بالبضاعة لحد الدار فيأخذ مامعك والباقي تدفعه على مهلك. وذات ليلة فيما أنا متمدد فى حوش الدار مستغرقا فى النوم، رأيت كأننى أمشى فى جهة العكايشة بجوار دار النصارى؛ وقد خيل لى أننى مكلف بترميم دار النصارى هذه؛ فكنت أرفع رأسى إلى السماء ناظراً فى أعلى الجدار فأكاد انطرح على ظهرى من شدة ارتفاعه تعلو سبعة أدوار. كذلك كان يخيل لى أن بكرى خليفة لا يزال يشتغل معى، وأنه واقف بسيورى فى انتظار لأمرى؛ فتأديته لأسأله عن كيفية فتح بوابة الدار الكبيرة الخاصة فى الأرض لم تفتح منذ مائة عام. ناديت إلا وبكرى قد تقدم وصار يمشى فوق الجدار كالقطة ، حبه واقف ، كأن فى الجدار درجعت سلم خلفية غير مرئية إلا لقدميه وحده. ركبنى

الروع، فيما هو مستمر فى الصعود بخفة الريشة، حتى صار فى الأعلى مجرد ظل كعقلة الأصبع. صرت أنادى عليه أستعطفه لينزل قبل أن تنكسر رقيقته؛ لكن صوتى لم يكن يبلغه فى علوه. قلت فلأجرب الصعود إليه مثله؛ صرت أتشعبط فى حديد الشباك، أشبك أصابع قدمى فى نتوءات الخشب؛ فلا أعود خطوة إلا واسقط فى الحال تنكسر غظامى فى الأرض. صحت على نفسى أصرخ من شدة الألم . وفى الصباح سمعت أن بقله العرش جاءت بالأمس لبكرى خليفه؛ وفى اعتقادى أنها جاءت إليه فى اللحظة التى كان يصعد فيها على الجدار بغير درج أو مسكات. دليل ذلك- فيما لعلكم تتذكرون - أنه فى الصباح اشترى دار النصارى هذه نفسها - إشتراها من أصحابها الذين لا نعرف لهم مكانا. ظننتها إشاعة من الإشاعات التى تملأ البلد كل يوم؛ فدار النصارى هذه لا أحد يستطيع شراءها لأن ثمنها أكبر من كل الفلوس الموجودة فى بلدتنا والبلاد المجاورة. لكنه اشترىها وطلع مكانها بخمس عمارات بنفس طوبها القديم وبيع أخشابها الفرش الذى كان فيها وحده يساوى الملايين من سجاجيد وسراير وسفرة وغرف نوم وستائر من الجوخ وتمائيل من المرمر والرخام والفضة كل هذا أخذه لنفسه وفرش به سرايته التى بناها فى مدخل البلد لزوجته من البندر ..

« الليلة عرفت لمن ستجئ البقلة بعد قليل ؛ وغدا »

محمد داوود البنا قد قالها بمنامه الذى لا يخيب أبداً ..

« ستجى البغلة الليلة لمحمد أفندى ريشه، المدرس بمدرسة عبد الله نديم الثانوية. هكذا يقول لكم منام محمد داوود البنا. لا تضحكوا يا ناس، فأنا الذى بشرتكم بمجيئها لأخى الحاج على داوود، ولبكبرى خليفه وغيرهما. محمد أفندى ريشه أطيب مخلوق شفته فى حياتى. داره جنب دارى وأعرف داخلياته كما يعرف داخلياتى. عمره ما أعطى درساً بفلوس؛ عمره ما اضطهد تلميذاً حتى الذين يعاكسونه لطيبته. المدرسة قائمة عليه وحده. أليس هو الذى سعى لإنشائها؟ أليس هو الذى أسسها من الباب إلى الكرسى؟ التبرعات التى جمعها من الأهالى لم يمسكها بيديه؛ كانت توضع فى البنك باسم وزارة التربية والتعليم. كلكم تذكرون المشقة التى احتملها يوم كان يمر على الناس فى الدور ليقتنعهم بضرورة التبرع، ياما تعرض للإهانة والهزاء والسخرية من الذين لا يحبون المدارس؛ لكنه احتمل، ويوم افتتاح المدرسة كان أسعد مخلوق فى الدنيا؛ يقول إن بلدنا بهذه المدرسة أصبحت مدينة محترمة؛ وأن تعب الأولاد قد انتهى فلا سفر بعد اليوم ولا اغتراب فى البندر من أجل التعليم؛ غدا يصبح الأولاد تحت عين أهاليهم؛ ولا يصبح هناك خوف من سفر البنات. هذا على الرغم من أنه ليس عنده أولاد؛ لم يرزقه الله من صلبه لكن رزقه بمئات من أصلابنا نحن؛ يحبهم كان

دمه فى عروقهم؛ يحنو عليهم؛ يشتري الكراريس وكتب لمن يعرف أنهم غير قادرين على شرائها. يستطيع أى واحد من الأفندية المحترمين الجالسين معنا الآن أن يحكى لنا فضله عليه وعلى جيلهم كله. لم يكن فى بلدنا سوى المدرسة الإلزامية؛ فظل ريشه أفندى يساوم مرشحي الدائرة حتى أخذ حق البلدة فى مدرسة ابتدائية. على أيامنا كان الولاد يسافرون إلى مدينة بسوق للحصول على الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات من الغلب. حضرة الدكتور وحضرة الصحافى وحضرة الشاعر جعفر وحضرة الباشمهندس كل هؤلاء الأكابر كانوا أول دفعة تأخذ الشهادة الابتدائية من بلدنا. لا أنسى فرحة ريشه أفندى بهذا الموضوع؛ أمسك الدفعة من أول العام كمدرّب الكرة يستعد لمباراة دولية. قولوا يا أساتذة كيف كان لا يعرف الإجازة حتى يوم الجمعة؛ كيف يتسلمكم من أول النهار حتى مدخل الليل يسقيكم العلم بالمعلقة فى صبر أيوب؛ كيف كان لا يكتفى بهذا بل يفوت عليكم فى البيوت واحداً بعد واحد ليطمئن إلى أنكم تذاكرون دروسه بجد واجتهاد. كان يشتم الواحد منكم أمام والديه بأشنع الألفاظ، أجعص مافيكم فى نظره - عدم المؤاخذه - كلب ابن كلب إذا ضبطه يلعب أو يذاكر فى غياب أب الواحد منكم كان يفرح بالشمعة لأنه يثق فى نتيجتها المضمونة. إذا شعر أن الواحد منكم ليس فى داره شأى يصحّصه بعث بورقة

صغيرة إلى البقال الذى يجر منه - وتجر منه عائلته كلها - على حساب مرتبه؛ يشتري الشاي والسكر لكم. الكتاب الواحد يهملح لاثنين وثلاثة ليس فى قدرتهم شراءه. واحد منكم - لا داعى لذكر اسمه الآن فإنه معروف لكم - كان يساعد أهله بالشفل فى الوسية بستة قروش فى اليوم وأهله غير مرحبين بمسألة حصول ابنهم على الشهادة الابتدائية هذه مع أن الولد من النوابغ فى الدفعه - ريشه أفندى، الذى لا يقبض مرتبه أبدا لم يخلصه حرمان الولد من الشهادة وهو يستحقها. فكم يبلغ الأجر الذى سيقبضه الولد من الوسية طوال أشهر الدراسة يا فلان ؟ كذا ، سأدفعه لك، وفعلا، باع ريشه أفندى أردبين من قمح الدار من خزين إخوته الفلاحين ؛ دفع ثمنهما للرجل حتى لا يمنع ابنه عن حضور الدرس...

« يوم الإمتحان كان مشهوداً فى البلدة. قبله يجمعة سافر ريشه أفندى إلى بلدة دسوق فأتى بأرقام الجلوس وعرف موقع اللجنة؛ وحجز للأولاد جناحاً كاملاً فى لوكاندة ينى ؛ وقطع تذاكر السفر. ولما كان يعرف أن نفقات السفر والإقامة فوق احتمال بعض تلاميذه الفقراء فإنه قد فات على مجموعة من أعيان البلدة وطالبهم بأداء الواجب ؛ إحتاف ديك الساعة لما ولدتا تأخذ الشهادة الابتدائية من مدرسة البلدة ؟ دى مناسبة حلاوتها كبيرة قوى ياجماعه. جمع منهم بضع جنيهات وأكمل الباقي من

حبيب الآباء الميسورين . قبل الإمتحان بيومين طلعت ركائب البلدة تحمل عشرين تلميذاً يتقدمهم ريشه أفندى إلى محطة القطار. وفى صالة اللوكاندة أقام فصلاً دراسياً راجع فيه المواد ؛ ثم ساق الأولاد إلى أسرتهم فى التاسعة مساءً ؛ كى يستيقظوا فى تمام الخامسة صباحاً لمراجعة مواد اليوم الأول فى صورة امتحان صورى .

فى السابعة يتناول الأولاد فطورهم وشايهم ويتجهوا بصحبته إلى اللجنة وكل المواد مضيئة فى أذهانهم. عند عودتهم يراجع إجابات كل منهم على حدة ؛ ثم يبدأ مراجعة مواد اليوم التالى. نتيجة الإمتحان ماثلة أمامكم الآن فى طبيب وشاعر مهندس وصحفى إضافة إلى ضباط ومعلمين وأساتذة جامعات يعيشون فى بلاد الفرنجة. كل الدفعة نجحت بتفوق فكان منهم الأول والثالث والخامس على المحافظة كلها..

« ريشه أفندى قام بنفس الجهود لافتتاح مدرسة إعدادية، ثم مدرسة ثانوية ، ومعهد دينى، حتى تركيب عواميد النور، ومواسير المياه المكررة، و... حين خط أتوبيس إلى البلد .. الحق لنا أن ذكرنا أى شيء مهم فى بلدتنا سنجد أن ريشه أفندى هو من فكر فيه، وأول من جمع التبرعات له ؛ وهو الوحيد الذى سافر كل يوم والثانى لمقابلة المسؤولين والسعى وراء طلبات وتحريك أوراق. كان أبرز واحد فى جيله من الخمسة الذين

تعلموا فى بلدتنا. كان كانه الإبن الوحيد للبلد، المسئول عنها،
يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد البلدة تلعلع فيها الأنوار
وكل أهلها متعلمين. هو الآن محال على المعاش منذ سنوات
رغم أن صحته باسم الله ماشاء الله جيدة؛ فمن كان يراه فى
شبابه يجعر ويصرخ وينشال وينحط فى الفصل. ينبج من
صدره طول النهار يتصور أن هذا الرجل سيموت ناقص عمر .
تشاء الظروف العجيبة أن يبقى ريشه افندى كما هو بصحته؛
وأن تموت زوجه بنت بنت خالته، وأن يوصيه أهله بالبحث عن
زوج تخدمه بقية عمره؛ وأن الأرملة ذات الثلاثين عاما التى
اختاروها له تملأ له الدار عيالا. شوفوا عجائب الزمن : الرجل
بعد إحالته إلى المعاش وانتهاء عمره الافتراضى كما يقول أبناء
هذه الأيام يتضح أن العيب فى عدم الخلفه كان فى زوجه فإذا به
يبدأ الحياة من أول جديد؛ وإذا بمعاشه الضئيل لا يكفيه وحده
وهو مدخنة سجاثر ، فبدأ يعيش على مساعدات من إخوته
الفلاحين الذين سبق أن عاشوا على مرتبه كمصرف يد لهم
جميعا. أولاد الحلال تعبوا من محاولة إقناعه بإعطاء الدروس
الخصوصية : لم يقبل أى أجر من أى أحد مهما كان أبوه ثريا،
حتى الهدايا لا يقبلها؛ ويقول دائما إن العلم فيض من الله
يسبغه على من يشاء فلا يصح المتاجرة بفيض الله؛ ويقول
ايضا إن التعليم واجب وطنى مقدس فلا يصح أن يؤجر المواطن

على مواطنته. وهامو ذا على عتبة السبعين من عمره ومع ذلك
لا يهمد ، لا يكل ، يبحث عن أى شئ مفيد للبلد كى يشغل
نفسه به. وحينما طلبت الحكومة من الشعب التبرع لتسديد
ديون مصر ثار الناس كلهم قالوا لا نسدد له ديونا لا نعرف عنها
شئنا ولم يستفد بها سوى تجار السلاح وسماسرة الإنفتاح. أما
هو فكان أول المتبرعين، إستغنى عن يوم من معاشه الضئيل؛
وقف على منبر الجامع وقال لا يصح أن نأخذ الوطن بجريرة فتة
من اللصوص والمجرمين ..

« إننى كلما رأيته الآن يتقطع قلبى : كيف يعيش والأسعار
تقع إلى نار جهنم الحمراء والناس ينضربون بالصرم القديمة
سبح مساء من كل بيع صايح ولا يتكلمون. أذل الحرص أعناق
الرجال كما كان ريشه افندى يقول فى الفصل للعيال.. المسكين
حرم نفسه من السجاثر والشاى؛ ولولا أن جميع المدارس
المطلوبة موجودة فى البلدة بمجهوده ما وجد أولاده فرصة
للتعليم..

« نعم سأقول لكم المنام الذى رأيته الليلة قبل دقائق من
مجيئى إليكم . بينى وبينكم أنا مقتنع مقدما أن بغلة العرش لا
تجئ للناس الطيبين وهذه حكمة يعلمها الله وحده ولا نستطيع
نحن تفسيرها ؛ فربما كان الصالحون فى نظرنا فاسدين فى
نظره سبحانه وتعالى، حتى وإن التزموا بأداء الفروض والسنن

ولكن من بدرى ؟ فلربما كان محمد افندى ريشه صالحا مائه
فى المائه فى نظر الله مثلما فى انظارنا نحن عباده الذين لا حول
لنا ولا قوة..

« رأيت خيرا بالصلاة على النبىء : كنت ماشيا على شاطئ
قناة أشبه بقناة القطان متاخمة للبلدة لكنها مليئة بالمياه
الصفافية وعلى جانبيها اشجار التوت والجميز والليمون وذقن
الباشا. كنت أمسك بالمسطرين والدقماق فى يدي مما يدل على
أننى كنت ذاهبا إلى شغل فى مكان حلو جميل والشغل فيه
محبب للندس. طال بى المشى حتى رأيتنى أدخل فى جدينة أشبه
بجدينة أديب شتا لكنها منظمه ومتناسقة كجناين الملوك . شئ
فى صدرى قال لى لعلها الجنة؛ فمشيت على أرض مروية موحلة
لكن الوحل مع ذلك لم يكن يعلق بقدمى. وإذا بى أرى محمد
افندى ريشه يظهر من ممر شجرى جانبى؛ فيمضى محودا إلى
اليمين دون أن يرانى ؛ فمضيت وراءه بغير قصد؛ فرأيت أشياء
تتساقط من عباءة كان يلبسها فأسرعت بالتقاطها؛ فإذا هى
جواهر ولاكئ وأحجار كريمة؛ تتساقط بغزارة حتى أننى لم
أستطيع ملاحقته فى التقاطها ؛ فأخذت أصبح به أنبهه إلى مايقع
منه؛ لكنه لم يكن يسمعنى؛ حتى انتهى صف الأشجار فظهر
قرص الشمس منورجا مركبة النار؛ وكان هو يمضى نحوها

مقتريا منها وأنا من خلفه أصبح به بكل ما فى حنجرتى من قوة؛
إلا أنه كلما اقترب من قرص الشمس يتضح أن نارها لم تكن
لهيبا بل كانت نوراً كالكهارب الساطعة ؛ وإذا بريشه افندى يدخل
فيها ويختفى. فلما حاولت الإسراع للحاق به كان الضوء
الساطع القوى يكاد يعمينى فلا أرى سوى الشعاع يملأ ناظرى؛
وإذا بأيد خفية لا أراها تشدنى من كل ناحية فيما رحلت أصرخ
وأصبح طلبا للنجدة ؛ حتى أيقظتنى ابنتى عائشة بهزة قوية.
فلما صحت تذكرت أنها ليلة القدر؛ وكان الضوء الساطع الذى
رأيت فى المنام لا يزال فى عيني المغمضتين يضئ عممة الحوش.
فتذكرت قعدتكم هذه، فطسست وجهى بحفنة ماء، وبرمت
سجارة؛ على أنفاسها. قلبت النظر فى المنام؛ وقلت لنفسى :
لعل البغلة قادمة إليك أنت يا ولد، فالمنام لك وليس لريشه افندى،
وما هذه الجواهر والأحجار الكريمة التى تساقطت منه إلا خير
سينالك؛ فابق فى الدار يا ولد لعلها فى الطريق إليك الآن. غير
أننى - والكذب خيبة - تذكرت أننى لست واثقا من صلاحى فى
نظره سبحانه وتعالى. وقلت لنفسى : اللى من نصيبك يصيبك؛
وتفضت نفسى والفرح يشملنى كأننى سألتقى البغلة فى
طريقها إلى دار ريشه افندى. ويخيل لى أننى لو قابلتها فعلا
قاصدة الطريق إلى دارى، فلسوف اقتادها - تلقائيا - إلى دار
ريشه افندى؛ إلا أن تحزن هى فتقودنى بنفسها إلى دارى ١.

الهزيع الأخير

بُهِتَ الذِي كَفَرَ !

رأى على الجميع صمت حاد متى بالترقب الصامت. نكس الجميع رؤوسهم على صدورهم وبدوا جميعا كأن كل واحد منهم جزيرة منفصلة قائمة بذاتها؛ كل واحد يسبح في ملكوت خاص به، كقعدات الحشيش حينما تدور جميع الأدمغة ممتلئة بالخدر اللذيذ؛ الذي يهيئ لكل منهم انفراده ويعزله عن الآخرين رغم تجاورهم. بدت على وجوههم تعاسة كبيرة عميقة.

كان من الواضح أنهم جميعا وبلا استثناء يقاومون حالة واضحة من الإحباط المشوب بغليظ دفين وحقد لا تدرى لمن هو موجه على وجه التحديد. يكاد كل منهم يصيح قائلا : متى تنتهى هذه اللعبة ؟ متى تجئ البغلة وتخلصنا ؟!

شيء من الثقة كان يداخلني بأنهم جميعا قد سلموا بأنهم ليسوا من الذين يمكن أن تجيئهم البغلة ؛ هم ليسوا من أهلها، لكنهم جميعا يتمنون مجيئها لأى أحد؛ المهم أن يروها رؤية العين، بل إن كل واحد منهم مستعد لأن يباركها ويحرسها إلى

البُهْتَانُ

أن تصل لدار المدعو ؛ هو - فحسب - يتمنى أن يراها شخصيا ؛ بدلا من رؤيتها بعد ذلك فى مظاهر الثراء الفاحش التى تحط فجأة على ناس لم يكن ليتوقع أحد أن تصيبهم الثروة من أى مصدر.

المياه فى ترعة السلمونية كانت راكدة، مريدة، تنعكس فيها النجوم كدروس الدبابيس المضيئة فوق لوحة من القطيفة السوداء. صديقى الشاعر جعفر العطار كان مستندا بكوعه على إفريز القنطرة التى يتوسطها الباب الحديدى المغلق المحتجز خلفه المياه عن التربة الصغيرة المتفرعة من السلمونية فى شكل صليبي؛ تمتد أمامنا كجرح عظيم الحجم متورم الشفرتين بقروح سوداء؛ ومبنى الوحدة الصحية المتناثرة قاعاتها ووحداتها على اتساع ثلاثة أقدنة؛ يمتد أمام سورها براح واسع يفصلها عن الطريق الزراعى الضيق المحاذى للترعة الفرعية الماضية فى سفر أزلى طوله سبعين كيلو مترا تتصل فى نهايتها بمصرف نشرت؛ وسط أخطاط من أشجار الجزورين والسنت والكافور والصفصاف تحدد أرض وسية الملكة نازلى هانم التى وزعت أخيرا على الفلاحين فصبوا عدوانهم الغريب على هذه الأشجار فبدأوا فى تقطيعها كلما احتاجوا لتسقيف العيش والأكواخ.

فى هذه الإتجاه كانت نظرات الشاعر شاردة ؛ كأنه مقتنع

بأن البغلة - إن كانت تجئ فعلاً - فإنها لا بد قادمة من هذا الطريق ربما لأنه طريق حافل بالخرافات والأساطير بفعل الرهبة التى تلقىها عليه غابات الأشجار المتصلة إلى مالا نهاية ؛ وبحكم أنه يغوص فى مجاهل من بلدان وعزب وكفور اشتهرت بخشونه الطبع والجسارة ؛ وربما لأن كل المصائب التى غزت بلدتنا جاءت من هذا الطريق ؛ إبتداء من حملة الجنرال مينو الفرنسية ؛ إلى عسكر السلطان القادمين لاستلاب الرجال للشغل فى السخرة؛ إلى رجال التفتيش الذين طالما جاءوا لتحصيل الضرائب والمكوس والاتاوات؛ إلى كل ذلك فجميع تطاع الطرق وأولاد الليل يتخذون من هذا الجيب السحري الطويل مكمنا لهم.

الشيخ عبد المقصود ابو غلاب كان إلى جوارى فوق الطابية الدائرية التى لم تتسع للجميع فتقرفص الكثيرون على الأرض فى مواجهتنا كمن جلسوا لقضاء حاجة، والسجائر تفرقع فى أفواههم بغزارة وشراسة قبل أن يدركهم الإمساك . أما المهندس عدلى فقد ركن دراجته بجوار الطابية وبقي جالسا فيها . وكان الشيخ ابو غلاب قد بقى منكس الرأس منغمسا فى تحريك سببته وشفتاه لا تكفان عن التمتمة الهامسة. إستغرق محمد داود البنا فى لف سيجارة وعينه مرسلة إلى يمينه على الطريق الزراعى المهد العريض الممتد إلى محطة القطار مارا بعزبة

الحجر وبلدة قزمان ؛ طريق تقطعه الركوبة فى نصف ساعة إلى المحطة لنركب منها يمينا إلى دسوق أو شمالا إلا قليلين وكفر الشيخ وطنطا ؛ وهو طريق آمن لخلوه من الأشجار ، وامتلأه بالسيارات ليل نهار؛ ولأنه الطريق المؤدى إلى المدينة فكل الأخبار المفرحة مرتبطة به؛ ولا بد أن البغلة هى الأخرى ستجئ منه . هذا ماحدثت أن يكون دائرا بخلد البناء الذى ارتبط بمقدم البغلة ارتباطا وجدانيا وثيقا. أما عدلى، الذى كنت مشفقا عليه بشكل مؤلم جداً؛ فكان مندمجا فى تفكير عميق، وفى حال من الكدر والحزن جعلت ملامح وجهه تتورم وتزداد كثافة. فيما عدا ذلك فقد كان الباقون يتطلعون بعيون زائفة حائرة قلقة فى كل اتجاه، يبخلقون فى كل شبح يظهر من بعيد. بعضهم كان يقف ويتحرك مائلا برأسه هنا وهناك مدققاً فى كتل من الظلال تهتز هنا أو هاهنا.

العيون القلقة المنفجعة المصرة على استيضاح الرؤية تمكنت من ترقيق عباءة الظلام ونخللها وتوسيع ثقبها ثم صارت تسليخ عن جلد الليل غلالة فى أثر غلالة. وكانت السماء كمظلة من قماش البيسة الزرقاء كدخان سيجارة خرافية فى يد ملك أسطورى من ملوك الجن يتكئ على أريكة السحاب المبيض قليلا كلون بياضات الكذب. صوت الإبتهالات يأتى من كل مكان فى نواح موجه للقلب. عندئذ نهض الشيخ عبد المقصود متمنيا

لنا صباحا خيرا، ومضى نحو اليسار على وصلة الطريق الزراعى الموصلة إلى مدخل البلدة، يتوكأ على العصا فى تؤدة وهدوء.

تبعه محمد داوود البنا يتطوح عوده الطويل كالنخلة الهرمة العجفاء ؛ ثم التقت نحونا مشوحا بذراعه المعروقة :

- « أنتم شهود على أننى بشرت بالبغلة لريشه افندى ! لأننى فى الصبح سأطلب منه الحلاوة ! لن أطلب أكثر من مصاريف الحج ! هذه هى أمنيتى الوحيدة الآن ! أخى الحاج على يحج كل عام ويضن على ولو بسبحة أو طاقية من جوار النبى بفلوسه فقلبنى ليس راضيا عنه إلى يوم القيامة ! أنا الذى رببته ونجرتة وحينما جاءت البغلة قطع علاقته بى وبأولادى مع أننى كنت أتعشم أن يخطب ابنتى عائشة لابنه !! المقصود ! سلموالى على البغلة وقولوا لها إننى أصبحت مرسالها فى البلد فمتى تضعش فى برنامجها !! »

ثم بدعوا فى الإنصراف واحد بعد الآخر ؛ فى طقس غاية فى الغرابة ؛ إذ يعلن الواحد منهم أن موعد انصرافه قد حان ؛ لكنه يختلق موضوعاً للحديث يتلکأ عنده دقائق طويلة يكاد ينتزع خلالها الردود من الأفواه لولا أن الجميع فى حال من الشرود مشوب بكثير من القلق؛ قلق يعلن عن نفسه بوضوح كلما شرع واحد فى الإنصراف ؛ فكان انصراف الغير يعنى أن الأمر

قد انتهى، كأنه إعلان بانفضاض سامر البغلة واعتراف ضمنى بأنها لن تجئ أو لعلها قد جاءت بالفعل من طريق خفى وذهبت إلى صاحب النصيب يشرد الجميع عن الإنتباه لأى كلام؛ لأن الجميع قد استنفدوا كل طاقتهم فى الإنتظار والقلق والتحرق لمجئ البغلة. فى نفس الوقت يتضح على وجوههم شعور بعدم الترحيب بانصراف احدهم حتى يظل الأمل قائما ببقاء هذا القعدة منتصبه. يناقضه شعور أكثر عمقا وأكثر خفاء فلا يسفر عن نفسه إلا فى لمحات عابرة سريعة تكشف أن كل واحد كان يتمنى الإنفراد بهذه الطابية فى هذه اللحظة فلربما يكون هو صاحب الوعد السعيد. كان الواحد منهم إذا ماشرع فى الإنصراف بالفعل فإنه يتمطى واقفا فى تكاسل وبلادة؛ ثم يتمطع ويتلوى كأنه فى حلقه ذكر، يقطع أطرافه متتائبا فى عواء كزفرة حيوان تعيس مكبوت الألم، ثم يسحب علبة الدخان من جيب الصدىرى فيبرم سيجارة على عجل، يشعلها، يشد بضعة أنفاس متلاحقة، يتلفت حواليه مرسلا البصر فى كل طريق على حدة، فى تدقيق وتمعن شديدين كأنه يتملى من الطرقات بالنظرة الأخيرة؛ كأنه يريد أن يرى ماسيحدث فى غيبته؛ وأخيرا يمضى بخطوات بطيئة بليدة.

لم يبق على الطابية سوى عبد العال وعدلى وجعفر وأنا .. وبدا كأننا فى انتظار هذه اللحظة التى تنفرد فيها بأنفسنا ذلك

الإنفراد الحميم الذى تغذيه لغة مشتركة وذكريات متقاربة. أخذنا راحتنا فتربعنا؛ إحلو الحديث بصورة ممتعة ، لدرجة أن عدلى نسى أوجاعه مما حدث له اليوم من زلزلة رهيبة؛ فراح يتكلم فى الأدب ، وفى الأوضاع الإقتصادية للبلاد، وفى مسرحية اللعبة الحزبية التى تلعب دورا فى التكريس للقهر والتخلف والطفيان.

فجأة سأل عبد العال بشكل ساذج لكنه غاية فى البراءة :

- « بهذه المناسبة يا باشمهندس ! مارأيك فى انهيار الإتحاد السوفيتى ؟ هل يعنى ذلك سقوط الماركسية اللينينية إلى الأبد كما قال الدكتور أحمد كمال أبو المجد فى برنامج زيارة لمكتبة فلان ؟

لوى عدلى حاجبيه فى كآبة. رد بصوت فيه الكثير من المرارة والشعور بالضيق :

- « لم أكن شيوعيا ! لكننى - بصراحة - حزنت على انهيار هذا الصرح الكبير ! إرتعت ! فهذا معناه أن تنفرد أمريكا بحكم العالم على هواها ! نحن الآن مقبلون على عصر تقديس الثروة !! لسوف يكون رأس المال المستغل هو الحاكم بأمره فى العالم ! إنه ينشط الآن لاحتواء كل ثروات العالم الثالث باسم النظام العالمى الجديد ! فبشر العالم الثالث بالخراب التام !! »

- « إن العالم الثالث ملئ بالثروات الطبيعية إلا أنه مع الأسف

لا يعرفها ! وإن عرفها لا يدرك قيمتها ! وإن أدرك قيمتها لا يحسن إدارتها !! المصيبة أنه لا بد للغرب الإستعمارى أن يكشف له عن هذه الثروة أولاً !!

هكذا قال جعفر العطار بنبرته الياثسة فاستدرك عليه عدلى :
- « كل الثروات الطبيعية للعالم الثالث لا تعتبر من أملاكه وإن وجدت فى أراضيه ! فالثروة كما نعلم هى العلم والمعرفة أصحاب صناعة القوة !! علماء الغرب ! مخترعو السلاح ووسائل الإتصال يعرفون مافى باطن هذه الأراضى معرفة دقيقة ولا يكشفون عن الكنوز إلا لحظة احتياج بلادهم إليها !! فهذه الثروات هى المخزون الإستراتيجى للأقوياء ! وحينما يضع الأقوياء يدهم على الثروة فى أى مكان فى العالم فهيهات أن تزيجهم متاعمة مهما كانت عاتية ! إن الأقوياء يجدون دائماً أنصاراً من العبيد ! والعبيد دائماً أبدا لاخلق لهم ! أنتم طبعا تعرفون أن مصر غنية بالتراب والبشر ! كل ثروة مصر هى التراب والبشر ! ولقد نجح الغرب الإستعمارى فى تحويل البشر إلى مسوخ غربية ! إلى غربان بيضاء . فأبطل بذلك فاعلية التراب !! »

وجدتنى أقول - ولو على سبيل المشاركة فى حديث طالما أسأمتنى وضيق صدرى من فرط الشعور باليأس أمام قوة التخلف القابضة على زمام الأمور فى بلادنا :

- « أنظروا كيف انعكست الآية ! فبدلاً من أن تكون الثروة الشخصية مصدر قوة وعزة لصاحبها أصبحت مصدر عبودية وبؤس وشقاء !! »

قال جعفر وهو ينفث دخان سيجارته :
- « هذا هو قانون الثروة مع الأسف ! فلأنها هدف فإنها أكبر موضوع للصراع والقتال ! الإنتصار فيه - بالطبع - للأقوى ! فثروة بغير قوة تحميها وتعززها تصبح شؤماً على صاحبها ! إنها لا تنتزح منه فحسب ! بل أنها فوق ذلك تضعه فى مرتبة الخادم الأمين لسيده المسيطر عليه وعليها ! وهذا هو وضعنا الآن فى العالم العربى ! وهبنا الله ثروة البترول والمعادن النفيسة وسلبنا القوة والعزة والإتحاد ! إستخسرنا فيها فنحن فى الواقع لسنا أهلاً لها ! سلط عليها وعلينا من ينتفع بها وبنا ! حقا إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ! فمن الذى يشاء ؟ مولوا ؟ »

قال عبد العال :

- « الله طبعا !! »

نقل جعفر :

- « لا ! المشيئة هنا عائدة على الإنسان لا بد ! فالعزة شئ يخص الإنسان وهو مسئول عنها ! ولو كان الله سبحانه وتعالى يريد لهذا عزة ولذاك هواناً لبطل معنى الحساب يوم القيامة ! »

ولقيل إن الإنسان مؤمن بإرادة الله وكافر بها أيضا طالما أن الله هو الذى يشاء العزة والهوان للناس ! إنما المشيئة عائدة على الإنسان ! أى أن الله يعز من يشاء العزة ! ويذل من يشاء الذل ! نعم ! إن أردت أن تكون عزيزا فإن الله يعينك على هذا ويمنحك العزة ! وإن أردت لنفسك الذل فأنت الجالبه على نفسك ! إن الإرادة للإنسان فى كل ما يخص الإنسان على الأرض والله هو القوة النافذة فى كل الحالات ! إن الله لا يقف ضد أحد ولا يفضل أحدا على أحد إلا بالتقوى ! والتقوى هى العزة فى أسمى معانيها وصورها ! وهى كذلك العلم والقوة ! لكن مأساتنا أن جميع حكام المسلمين على امتداد الأزمنة السابقة سعوا إلى تحجيم عقل المواطن وتضييق آفقه حتى لا يقوى على مقاومتهم ومطالبتهم بحقوقه تجاههم ! وقد وجدوا دائما من الفقهاء المؤثرين من يساعدهم على تدجين المواطن وتطهير مخه من جرثومة الفكر وبذرة الثقافة وتعويدهم على التلقى فحسب دون المناقشة وإعمال الذهن ! فخلقوا بذلك المواطن ذا الإيمان الأعمى الذى يؤدى الصلوات والفروض دون أن يعرف حتى ماهى الحكمة منها أو محتوى الآيات التى يردددها فى صلواته ! أصبحت الصلوات والفروض العضلية هدفا فى ذاتها أدى إلى التنسك والإنسحاب التام من الحياة طلبا للأخرة ! كأنما الإسلام هو هذه الفروض الشكلية فحسب ! هى الهدف والأداة

معا ! بها يستعينون على قضاء الحاجات وحل المشاكل والخروج من الأزمات !! إن عز المطر صلوا صلاة الإستسقاء كى ينزل المطر ! وفيما كانت الجيوش الصليبية تقتحم الديار كان العلماء والمشايخ يجمعون المسلمين فى المساجد كى يبتهلوا إلى الله برد كيد الظالمين الغزاة ! بدلا من النهوض لمواجهة قوة لقوة ! حتى على المستوى الشخصى إذا حقد شخص على شخص قرأ عليه عدية يسين ! والموظف يطلب الترقية والرفعة لا بإتقان العمل ومراعاة الضمير والواجب بل بالإمغان فى الصلوات وترديد التعاويذ والسفر إلى الحجاز ! وهكذا وهكذا !! جميع حكام المسلمين سعوا سعيا لخلق المواطن الجاهل كى يستأثروا وحدهم بثروات البلاد ! ولأن الحكام ضعفاء فى الحقيقة ولا شرعية لهم بعد أن بطلت الشرعية الإلهية القديمة فإنهم استقوا بالآخر الأجنبى ! ليحققوا بذلك حكمة الله الكامنة فى قانون الثروة مثلما هى كامنة فى كل القوانين الطبيعية ! أن يتسلط الأقوى على المستقوى فيسلبه ثروته التى استلبها بدوره ممن استضعفه !! من جانب آخر فإن الظلم الذى حاق بالمواطنين دائما أبدا زرع فيهم حيلة النزعة الفردية ! لقد خلق الحكام أفرادا لا مواطنين ! والفرد عند المحن الكبرى يشغله أمر نفسه فحسب أما المواطن فيشغله المصير العام ! وحيث تنتشر هذه النزعة فى أى مكان فإن خصائصها تكون منفذ للغزاة ! بدخولهم من بينها

يتسع المايين فيزيداد الأفراد فردية يسعى كل فرد لتأمين مصيره ولو بالتعاون مع الغزاة أو على الأقل اتقاء شرورهم !! إن المستعمر الحديث لم يكن فى حاجة لتطبيق سياسة : فرق تسد ! لأن حكام المسلمين تكفلوا من قبلهم بإشاعة هذه السياسة فى أعنف صورها !! قال عبد العال فى حماسة مفاجئة : - « ولكن يااستاذ جعفر ألسنت تتفق معى فى أن الإستعمار الأمريكى الإمبريالى يقوم الآن بزرع الفرقة بين المسلمين ! وتسليط بعضهم على بعض ! وتوجيه أمخاخ شبابهم نحو التطرف والعنف لكى تبدو صورة الإسلام سيئة السمعة فى أنظار القوى العالمية ؟ وإلا فما الحكمة فى أن أمريكا تحتضن الآن الشيخ عمر عبد الرحمن زعيم التطرف المنسوخ من الخمينى ؟ وتتعاون مع حسن الترابى وعباس مدنى تمدهما بالمعلومات والأسلحة والدعم المعنوى والمادى ! والله إنى لفى دهشة : كيف تسكت حكومتنا على هذا الوضع وهى تعرفه بلا شك ؟! ثمة تواطؤ غامض فى الأمر كتواطؤ أمريكا ومجلس الأمن ضد صدام حسين ومع الصرب فى اعتدائهم على مسلمى البوسنة والهرسك ! ومثل تواطؤ بطرس غالى وأمم المتحدة مع النزعات الأمريكية فى نشر خرافة النظام العالمى الجديد ! ومثل تواطؤ عاطف صدقى مع البنك الدولى ضد جموع الشعب المصرى !!» ويبدو أنه انتبه فجأة . فخفض صوته إلى حد الهمس

المرعوش بكثير من التوجس . وكمن يقول : ضربوا الأعور على عينه قال خسارته خسرانه : بدأ كأنه تورط فى شئ خطير وخشى الإتهام بالجبن والمعيلة إن هو تراجع عنه : فاستطرد بانفعال مفاجئ وكمن يدلى بأقواله فى تحقيق رسمى يرد فيها عن نفسه تهمة العيب فى شرف الحكومة :

- « لا تؤاخذونى فأنا قد تحيرت ! لست أستطيع منع نفسى من الإنشغال بهذا الأمر والتفكير فيه ! فأنا فى النهاية مواطن تهمة مصلحة البلاد وليس بينى وبين الحكومة أى عداة شخصى إنما هو ربما يكون اختلافا فى وجهات النظر : ف! مثلاً ! مسألة البنك الدولى هذه لست أقهمها جيداً ولهذا فأنا غير مقتنع بها من أساسها فالتناس أعداء ماجهلوا !! كذلك مسألة التعامل مع الإرهابيين تبدو غير مقنعة ! إنهم فى النهاية مجموعة أفراد معروفين للسلطة ! والسلطة تعلن كل يوم أنها لا توافقهم على أرائهم ! ومع ذلك نراها تغذى تطرفهم ببرامج إذاعية وصفحات دينية تقول نفس الكلام ! أليس حديث الشيخ الشعراوى بؤرة من بؤر التطرف ؟! إن هيئة كبار العلماء فى الأزهر تقوم بالتنظير للأعمال الإر - بية وتفسفها وتعطيها شرعية ! مامعنى أن يذهب عدد منه للقبض على كتب المستشار سعيد العشماوى فى معرض الكتاب مع أن وجهة نظر العشماوى تتفق مع وجهة نظر السلطة ؟! سوف أشكر كل من يشرح لى هذه المسائل !!»

بنظرة سريعة خاطفة تلاقت عيوننا عبر وجهه المنكس فى حمية الإنفعال . إستقرت نظرتنا على معنى واحد هو أن صديقنا عبد العال طبيب الوحدة الصحية قد جنح إلى الجانب العكسى فى انعطافة حادة ليدفع عن نفسه تهمة التعاطف مع التيار الإسلامى ..

قال عدلى بنبرة سخرية مغلفة بجدية مبالغ فيها :

- « تريد أن تفهم هذه المسألة جيداً ؟! عد إلى موضوع الثروة وتمعن فيه وفى قانون الثروة الذى تفضل بذكره جعفر ! لو فهمت قانون الثروة يا عبد العال جيداً تكون قد فهمت كل صغيرة وكبيرة فى سياسة البلاد وصراعاتها !! لكن ! كل ما أستطيع لك الآن هو أننا جميعاً وقعنا ضحايا للبحث عن الثروة الطائلة !! كلنا ! باحث عن الثروة بأى شكل ! وكلنا وقود لمن يستحوذ عليها ! إن كل متحكم فىنا على أى نحو على أى وضع يزداد اقترباً من الثروة كلما أتقن التحكم فىنا ! والتحكم فىنا درجات ومستويات ! منهم من يركبنا للوصول ! ومنهم من يسرق قوت عيالنا ! ومنهم من يبذر فى صحتنا جرثومة ما لكى يبيع لنا علاجها ! على رأى الشاعر فؤاد حداد يرحمه الله : يبيع الأزعرية ! ويبيع الأسبرينه ! شنياراً بن يوانس ! يبيعنا ويشترينا !! شنياراً بن يوانس هذا يا يا عبد العال هو كل دجال سياسى ! كل تاجر ! كل بائع غشاش ! كل مثقف فهلوى ! كل

فنان أو نطجى ! هو أيضاً كل مستعمر يدخل علينا بصيغة براءة ليستلب قوانا ! هو البنك الدولى الذى يبرم حول رقابنا حبال أزمة إقتصادية يخلقها خلقاً بكل السبل والضغوط والتدخلات لكى يبيع لنا فى النهاية قرضاً يشتري به حرياتنا وكرامتنا ومستقبل أولادنا ! يضعنا فى سجن أبدي لافكاك منه ! يحكم علينا بالفقر المدقع ! حتى نموت وننقرض أو تذوب فيه بقاياتنا المفيدة له !!! قال جعفر بلهجة تريزياس العراف فى المأسى الإغريقية القديمة : الحكمة فى ثوب النذير ! أو النذير فى صيغة الحكمة : - « لا ثروة بريئة على الإطلاق ! كل ثروة وراءها عشرات الضحايا المظلومين ! لأن الجهود الشريفة لا تصنع ثروة وإن عيشت أصحابها فى رغد وستر !!!

رد عبد العال فى نبرة توضيحية كجملته اعتراضية :

- « ولكن هناك ثروات الذين سافروا إلى البلاد العربية وجاءوا بالأموال نظير جهودهم وخدماتهم !! قاطعه جعفر :

- « هذه لا تدخل فى باب الثروة !!

فشوح عدلى بذراعه منبها :

- « حتى هذه ليست بريئة هى الأخرى !! إن كل من حصل على قرش واحد زائد عن حقه أو حتى عن احتياجه إنما هو مخصص من حق شخص آخر مجهول أو معلوم ! إن الثروة

التي ظهرت في أرض من الأراضي ليست تكون مهكاً لأحد بعينه
أو لأسرة بعينها ! إنما هي ملك للأمة لابد أن ينتفع الجميع بها !
أما أن تحتكرها أسرة بعينها لكي تصني بها رفاهيتها فإنها تكون
معدية على حقوق الآخرين حتى لو أتت لهم بعض
المشروعات بعض المرافق ! ولكن دعنا من هذا الملف والدوران !
فالأمر باختصار شديد يمكن تلخيصه على النحو التالي : إذا
تواجدت طائفة من الأثرياء في محيط معظمه فقير فإنهم
بأموالهم يحصلون على زينة الأشياء ! انظف خبر ! أحلى نساء !
أريج منازل ! أجمل أثاث ! أمتع رحلات أشيك ملابس إلخ إلخ !
أصحاب السلعة دائماً يصعدون الأسعار تبعاً لقدرة الشراء
وندرسة السلعة ! حينئذ لا يبقى للفقراء شيء ! فالأثرياء إذن قد
سرقوا زادهم حتى وإن تم ذلك بغير إرادة منهم أحياناً ! فمجرد
وجود المال معك ليس يمتعك فحسب بل ويحرمنى ويشقىنى !!
تلك هي مأساة الثروة ! إذا تكومت عند رهنك من الناس دون
غيرهم !! لكن ! ما ينسأه الأثرياء دائماً هو أنه لا حماية للثراء في
محيط من الفقر ! ماذا يفيد الأثرياء ثراؤهم إذا شحت السلع
وشح زارعها وحاصدها وناقلها وصانعها ؟! ماذا يفيد
مصانعهم ومحلاتهم وورشهم إذا ماتت الأيدي العاملة جوعاً
وبؤساً نهشتها الأمراض والأوبئة ؟! كيف يهنا الأثرياء بلقمة
سائغة إذا كانت ألف عين ترصدها تتحين الفرص لاختطافها ؟!

هذا بالضبط هو حال الأمة العربية الآن ! الأثرياء سادرون في
غيهم سفهم ! الفقراء يحاولون الوثوب عليهم ! وإن فشلت في
حرب الخنيج مرة فإنها على موعد مؤكد مع مئات المرات ! مهما
استنجد الأثرياء بالبلطجية الدولية ! مهما احتموا في النظام
العالمى الجديد ! فلا نظام للفقير ! ولا قانون للجور !! وعلى كل
حال ربنا يستر !!

تناهت إلى أسماعنا نغاث الشيخ الطبلاوى ونواحه الحراق
الملتاع يمهّد لأذان الفجر بابتهالات صارخة متفجعة مع أن الله
سبحانه يسمع دبيب النمل. إلا أن القوم لم يكتفوا بعلو صوت
المذيع فسلطوا على المذيع مكبرات الصوت بأقصى درجاته .
إحتشد الأفق بمعركة حربية لابد أن تزعم الموتى في قبورهم
بصراخها وتداخلاتها وضجيجها المحموم. أى عاقل أجنبى يدخل
البلدة الآن لابد أن يصيبه الروع يظنها سراية مجاذيب مترامية
الأطراف. أين رومانسية الفجر الجميلة وما كانت تمتلئ به من
ورع وسحر وصفاء ؟!

هكذا تساءل جعفر العطار، ثم استطرده :

- « إن جمال الفجر في رومانسيته الهادئة ! مجرد
الصحوف فيه صلاة ! كيف يحولونه إلى ورشة ترعد في السماء
تزلزلها ؟!

لوح عبد العال بكفه يدفع عن أنفه دخان السجائر :

- « إنها احتفالية طريفة على أية حال ! ولا تخلو من انس وجمال يحجب الناس فى الصلاة يوقظ أى مستغرق فى النوم يدعوه للمجئ والمشاركة فى الإحتفال بصلاة الفجر ! إن الفجر لابد أن يكون مشهودا يا أستاذ جعفر !!!
عاجله عدلى فى غيظ مكبوت :

- « هذه صلاة المنتظرين لبغلة العرش ! لا تنسوا أنهم ينتظرونها منذ عشرات السنين ! وهم الليلة ينادونها بهذا الصخب العنيف ! كل واحد يريد أن يلفت نظر السماء إليه وإلى تفانيه فى العبادة ! كل هذا الصياح الغنائى ليس تهجدا وابتهاالا فحسب إنما هو صوت يريد أن يقول : نحن هنا أيتها السماء ! نظره ! خل بالك منا يارب !! لو كنا فى مجتمع حر يادكتور عبد العال لكان فى استطاعتنا أن نفرق بين الصلاة الصلاة ! والصلاة الأونطه !!!

- « وضع كلامك ياباشمهندس !»

هكذا قال عبد العال فى لطف خجول : فاستدرك عدلى :

- « كلما ارتفع صوت الصلاة والإبتهاال إلى حد الصخب العنيف كان الورع قليلا والفكر زائغا عن تقوى الله وحضرته ! هذا ماأردت قوله يادكتور وهو واضح !!

فى نبرة مزاح ودودة قال عبد العال :

« يظهر إن الفكر الشيوعي لايزال متأصلاً فيك

ياباشمهندس»

هز عدلى رأسه موافقا فى بساطة سلسه :

- « صدقت يادكتور ! بدليل أننى لم أفطر فى رمضان يوما واحداً طول حياتى !مع ملاحظة أننى لا أفسح فى العادة ! أما الأتقياء الورعون فإن بعضهم يفطر فى رمضان عينى عينك ! بعذر أو بأخر !!!

ظهر التوتر على وجه عبد العال : فإذا هو يستدرك :

- « على فكرة ! أنا لم أفطر إلا فى هذا العام فقط ! لأسباب صحية لابد أنك سمعت بها ! أنا لابد أن أشرب كمية كبيرة من المياه طول النهار !

- « وهل أنا جئت بسيرتك يادكتور ؟»

- « لزم التنويه على كل حال !!

ثم حط علينا صمت عميق متوتر ..

وكان الفضاء قد بدأ ينكشف أمامنا بصورة جلية ، كأن القمر قد طلع دون أن يظهر بنفسه . ظهرت الأشجار كأن الضوء قد نحتها من كتلة الظلام ، وهاهو ذا يجلو فى رتوشها الأخيرة فتظهر أطراف وريقاتها الصغيرة. بان الزرع فى الحقول، صار من الممكن تحديد نوعه بالنظرة العابرة. إتضحت الأعشاب لحشائش وأعواد التيل والبوص والحلفاء على شاطئ ترعة السلمونية . إنزاحت الأغصان السوداء الرمادية عن هياكل

وهاهى ذى مقبلة ! !

صرنا كالوطاويط المذعورة. تسلقنا إفريز القنطرة مثل
البهلوانات. رمينا البصر فى اتجاه الطريق الوعر القادم من جهة
بحر نشرت. صرنا ندعك فى أعيننا لكى ترى جيداً ؛ ثم نركز
البصر؛ ونعود فنندعكها ، لنركز البصر مرة أخرى؛ والذهول
ينشد كل الخيوط فى أعصابنا ..

فعلا ! هاهى ذى بغلة العرش قادمة ! بغلة العرش بلحمها
وشحمها ؛ تحمل على ظهرها الخرج الملآن بالذهب تتصاعد فى
الأفق هسهساته. وفوق الخرج رأس قتيل ، مشكوك فى عصا
قصيرة مربوطة بظهر البغلة بين فتحتى الخرج ..

كانت تمشى منكسة رأسها فى الأرض ؛ أخذت سمتها نحونا ..
أصابتنا عدوى اللوثة ؛ فانخرطنا فى بكاء حار. إنتابنا شعور
هائل بالضعف والقوة معا ؛ الضعف الشخصى أمام قوة
الموقف. صرنا نهذى بكلام كثير مضغوم غير مفهوم. صرنا
نتخبط فى بعضنا تتمايل فوق الطابية نومي بأنفسنا على
الأرض؛ لتعود فنصعد معلقين الأبصار بالبغلة؛ تشملنا فرحة
عظيمه لعل مصدرها أننا حظينا وحدنا بأن نكون شهود عيان فى
حدث تاريخى كونى جليل ؛ وغداً تكون لشهادة الواحد منا
قيمتها العظمى عند أى حديث عن بغلة العرش. صارت البهجة
التي شملتنا مرادفة لمجى البغلة لأى واحد فينا أولنا جميعا..

الدور فظهرت عارية. بانث الشبابيك والشرفات والبلكونات
واحمال القش والحطب. بدا المنظر بديعا. دب الأنس الحقيقى فى
الكون بعد أن خمدت أصوات مكبرات الصوت. إنبعثت أصوات
الضفادع وصفير الصراصير وصوت موجبات تضرب فى باب
القنطرة فتلقى فى الأذان هديرا طروباً .

إنشالت بنا الأرض فجأة على صرخة صدعت بنيان الأفق كله
زلزلت صخر الطابية من تحتنا قبضت على قلوبنا بكلايات
حديدية:

- « الله اكبر ! الله اكبر ! جل جلاله ! »

تبددت نفوسنا فى الفضاء من فرط الفزع . كان عبد العال
هو الذى أطلق هذه الصرخة المفاجئة التى لم تكن لتتفق أبدا مع
رذائته وماعرف عنه من هدوء الصوت والأعصاب. إنتفضنا
واقفين ننظر تحت أقدامنا وحوالينا بحثا عن شعبان قرصه.
فوجئنا بالطبيب وقد تحول إلى طفل أبله ملثا ؛ راح يتنطط
يدبذب فى الأرض بقدميه مواصلا الصراخ والهذيان. صرخنا
فيه :

- « مالك يا عبد العال !؟ »

أشار بذراعيه إلى بعيد صارخا فى غبطة جهنمية :

- « البغلة !! بغلة العرش وصلت !! أنظروا يامن كنتم
تشكون فى قدرة الله سبحانه وتعالى ! البغلة حقيقية إذن !

بقى أن نعرف لمن هي زاهية ؟ من تراه يكون الموعد بها في هذه الليلة ؟ هي لا شك تحمل عنوانه حتى وإن كان يسكن في عشة ؛ سيما وأنها قادمة في لحظة سحرية مناسبة جداً ؛ عقب صلاة الفجر؛ حيث استأنف المتيقظون للفجر نومهم وأخذ الساهرون للنوم؛ فالجميع في سبات فيما عدا الموعد يكون قد تلقى الوحي بأنها في الطريق إليه..

هاهي ذي تقترب وتقترب. ثم إذا بها - في خطو واثق راسخ الوعي - تحود قبل وصولها إلى الوحدة الصحية تسلك ، الطريق إلى وسط البلد من الممر المتاخم للكنيسة المهجورة ، وهو ممر شديد الوعورة رغم اتصاله مباشرة بوسط البلد، لا تمشي فيه دواب على الإطلاق؛ الكنيسة المهجورة تضفي عليه كآبة وغموضاً ووحشة ؛ مئات الأساطير المرعبة تنبعث كل مساء من جوفها ؛ منذ أن تحولت إلى قرافة لأقباط بلدتنا. ولم يكن ليجرؤ أي واحد في البلدة على المرور من هذه الوصلة بعد أذان المغرب مباشرة ..

البغلة إذن يحركها عقل إلهي فتسلك من تلقاء نفسها في طريق مرسوم لها سلفاً ؛ يحجبها عن أعين المتطفلين ..

فوجدنا بأننا قد اندفعنا نحو هذه الوصلة في هرولة مضطربة وقد نسى كل منا الآخر بل نسى نفسه ؛ حتى جعفر نسى أنه لا بد أن يدفع دراجة صديقه عدلى ؛ فمضى وحده كالهائم المجنوب.

بدرية كبيرة صار عدلى يحرك ترس العجلة بيديه ؛ لكنه مالبث حتى تهالك فتوقف يائساً ..

المسافة بيننا وبين ممر الكنيسة ليست بالقصيرة كما أنها ليست بالبعيدة . كان عبد العال هو أول المتقدمين في الجرى ؛ وكنت خلفه مباشرة أحاول اللحاق به ؛ ومن ورائنا جعفر ، ثم عدلى . إنخلعت فردة الشبشب الزنوبة من قدم عبد العال ، طارت في الهواء ؛ فتوقف يبحث عنها بعد أن جرب الجرى بدونها فشعر أن قدمه الرقيقة لا تحتل الحصى. في اندفاعتي اللاهثة المجنونة اصطدمت بتوقفه المفاجئ فانكفأت فوقه فسقطنا معا في الأرض في عنف. كدت أصاب بالإغماء لولا أنني أسرعت بالوقوف مستأنفا الجرى في اتجاه ممر الكنيسة المهجورة وقد أخدمت في رأسى كل الحكايات الخرافية المحيطة بهذا الممر ..

دخلت الممر عبارة عن قنطرة صغيرة مبنية تحت الأرض تقطع ترعة المشروع المتفرعة من ترعة السلمودية ؛ عريضة فوق الماء فحسب ؛ تسمح لعزبة نقل كبيرة أن تتحرك محودة إلى اليمين أو إلى اليسار لتستوى على الطريق الزراعي الممهّد على شاطئ ترعة المشروع. على ناصية الممر كبّاس المعلم عبده، العتيق ، البالغ من العمر تاريخاً قد يمتد إلى مصر الفرعونية ، تشاع عنه هو الآخر عشرات الأساطير عن جنّيات نصفهن إنسيات تسكن في قاعه السحيق ؛ له مدار كربوة عالية عريضة

بطول شعبت التي يتعلق فيها ثوران عند دورانه لجلب مياه جوفية إذا شحت مياه الترع. يجور المدار على الطريق : أما الجميزة العتيقة المزروعة فوق المدار فإنها جارمة الفروع والجذع والأوراق تصنع مظلة هائلة الحجم تبدو من بعيد كراس جنية خرافية تقطع الطريق على العابرين. بعد هذه الريوة مباشرة يبدأ الممر في شكل ثعبان متعرج، على يساره مصرف ضيق يصب في بحر السبيل الذي كان يطلوq البلدة قبل أن تجف منه بساتين كثيرة تحولت إلى برك ومستنقعات عطنة : فأصبح العابرون إلى البلدة والخارجون منها يمشون فوق البساتين الجافة التي تحولت إلى أرض صلبة .. أي أن هذه الكنيسة المهجورة كانت فيما مضى بناية بديعة الشكل على شاطئ بحر السبيل منذ سنوات بعيدة مضت قبل أن تؤوب إلى طلل يحوطه الهديم من كل ناحية. أما الممر الذي يمضى أمامها فكانه خط رفيع بالقلم الرصاص الباهت خطته يد طفل عابث في مواجهة قطع من النخيل ..

مأان وصلت إلى كباس المعلم عبده حتى تيقنت أن قلبي سينزع من مكانه إذا واصلت الجرى؛ فصرت أهرول . فوجئت بجعفر مستنداً على شعبة الكباس يتجاذب من الهواء أنفاساً متلاحقة : كان من الواضح أن دواراً أصابه من الجرى نظراً لشراسته في التدخين. إنشغلت بمنظره لبرهة؛ لكنه سرعان

باعتدل صائحاً في استنساك كأنه قد أفاق على شيء مهم :
- « فين الباشههندس ؟! أما احنا أندال بشكل إزاي نسيبه ونجرى ؟! »

ثم هبط عن الربوة وارتد عائداً نحو صديقه : فبعد خطوات قليلة عثر في فردة شبشب عبد العال فحملها إليه . فلاحق بي عبد العال وأنا أبعثر نظراتي في كل اتجاه. لم يكن للبقعة أي أثر على الطريق . كدت أجن : إذ ليس من المعقول أن يكون مارأيناها يوماً : ففحص حملياً واثقوناً الثقة أننا رأينا بقعة العرش رؤية العين نمشى بإحمرارها وشحمها على هذا الطريق : فأين تراها اكتفت هكذا في لمح البصر ؟!

لقد أنظر من هناك لعلها تكون واقعة في مسطح الممر أو محتجبة خلف نخيل المعلم عبده . لك القطيع البرائل كالأغاية في هذا الممر يضمى عليه بشاعة في الليل. المؤكد أنها اخترقت غابة النخيل لسبب من الأسباب . لحظة أن يثست من الإستمرار في البحث عن خط سير البقعة كان عبد العال قد وصل لاهناً يمسح عرقه : ليسالني فور وصوله بلهجة متشككة مستترية :

- « راحت فين ؟ راحت فين ؟! »

احسست كأنه يتهمنى بإخفاها ، فشوحت في وجهه بغيظ :

- « في جيبى ؟! »

فى زهوله صار يتلفت حواليه كالماتات :

- « تكون استخبت فى الكنيسة ؟! »

فى وضع النهار

القريحة الكونية

لم ينتظر جوابى ، بل هرع نحو الكنيسة ثم تسلق جدار سورها صار ينظر فى كل ركن فيها ؛ هبط ينفض كفيه من التراب؛ وقف بحذائى ، صدره يعلو ويهبط ؛ ينظر فى كثير من الريبة. صرنا نرسل البصر فى جميع الأنحاء ؛ رأينا شبح دراجة عدلى تزحف فى مدخل البلدة يدفعها جعفر فى الخلف. جلسنا فوق جذع نخلة عتيق واندمجنا فى تفكير متوتر كظيم..

طال بنا الإنتظار حتى مللنا. وحينما أبدت رغبتى فى الإنصراف نظر لى عبد العال نظرة مشحونة بالإتهام والحققد الدفين ؛ لكنه نهض فتقدمنى ؛ ومضى بجوارى موحىالى بأنه - نوقا ولياقة - يرافقتى للإستمتاع بى أطول وقت ممكن كما قال . ولم يتركنى إلا بعد أن اطمأن إلى أننى دخلت منزلى بدون بغلة العرش. ولعله رجع وحده إلى الممر يواصل البحث والتنقيب عنها.

١ - القصيدة

« الحمد لله أن لحقتك قبل سفرك فربما نسافر معا أو نبقى
معا ... »

« بودى لو أقنعتك بالبقاء عدة أيام آخر ... »
« لسوف أبقي لأشهد اكتمال القصيدة المرعبة التى تفجرت
ليلة أمس فأسعنتى بنيرانها الحارقة ! .. »
« لكى أنجو من حريقها لابد أن أكتبها ولن أستطيع كتابتها إلا
إن شهدت اكتمالها على الحقيقة ! .. »
« هذه أول قصيدة فى حياتى يعجز خيالى عن وضع نهاية لها
كما لا يقبل وجدانى تركها مفتوحة ! .. »

« دائما أبدا كان الواقع يمدنى بالشرارة التى تندلع كالريح
فتلتحم بالجمر الكامن فى قلبى فتشتعل القصيدة يقوم
بنيانها ! .. »

« يبدو أن القصيدة من الأساس أشبه بالبيضة عبارة عن

قشرة تحتوى على كتلة من السائل اللزج هو خليط من
الصفار والبياض فإذا تفوت الشرارة فتلمس الجمرة فى قلبى
فيشتعل القلب ترتفع درجة الحرارة تنفقس البيضة يخرج منها
كائن حى !!! .. »

« اليوم اختلف الحال فلأول مرة تجئ القصيدة مكتملة لا
دخل لى فيها ولا فضل إلا جهد التدوين على الورق !!! .. »
« الشرارة فى هذه المرة تندلع من قلوب الناس فتلتحم
بالجمرة الكامنة فى الكون فإذا به يؤلف القصيدة !!! .. »
« صحيح أن الكون بارع فى التأليف إذ هو معلمنا الأول
والأعظم فيه فى كل هذه المخلوقات والظواهر الخارقة على ظهر
الأرض ولكن هذه أول مرة أراه يؤلف قصيدة على هوى الناس
كما أرادها الناس بالضبط كأنه قد أصبح أداة من أدوات التأليف
فى يد المخيطة الشعبية الخصيبة التى لم يخب لها أوار أبد
الدهر !!! .. »

« إن ماوقع فى الساعات الأولى من فجر هذا اليوم لهو حدث
فاصل فى تاريخ علاقتى بهذا الكون العجيب ومخيطة القوم
الأعجب والأكثر مدعاة للدهشة !!! .. »

« قديما قيل إن السنة الناس أقلام الحق واليوم أقول إن مخيلة
شعبنا هى الحق الصراح فى أجلى صورته وأبهر معانيه !!! .. »

« ألم تكن تشاركنى الاعتقاد بأن أهل بلدتنا يهرفون ؟ ألم تكن أنت وأنا وعدلى وعبد العال نفسر لوثنهم ببغلة العرش هذه بأنها محض خيال نبع من خرافة صادفت سندا من الواقع ينميها ؟... »
 « أسطورة بغلة العرش لم تكن لتجد مناخا طيبا يعطيها مصداقية العقيدة لو لم يكن الواقع فاسداً بصورة مخيفة أشد خرقا من الخرافة نفسها إن مظاهر الثراء الفاحش المتفشية فى الواقع بغير مبرر منطقي مفهوم لا يمكن إرجاعها إلى أسباب واقعية على الإطلاق !!

« ذلك أن أى واقع فى أى مكان فى الأرض لا يمكن أن يتيح لأى شخص - كائننا من - كان فرص الثراء بهذا الشكل الجنونى السريع يقابلها فرص للإدقاع بنفس الإيقاع الجنونى !! »
 « الحق كل الحق لقد استعلينا على الواقع حينما نظرناه بسخرية واستهزاء ففسرنا الظاهرة تفسيراً فنيا فإذا بالواقع - كالعادة - يبطل كل معتقداتنا يثبت أن كل تصوراتنا بل كل نظرياتنا عن الفن جد خاطئة فجة !!... »

« الأمر إذن صحيح مائة فى المائة وليس محض خيال من خرافة كما كنا نعتقد !!... »

« الذهول مستبد بى منذ هذه اللحظة التاريخية الفذة لم يغمض لى جفن ولا أظنه يغمض بعد الآن بعد الذى رأيناه رؤية

العين المجردة !!... »

« أه لو رأيت صديقنا عدلى ! من فرط ما أصابه من تصدع لم يتوقف عن الهذيان فعز على أن أتركه فى هذه الحال وحده فبقيت معه حتى هذه اللحظة تركته خطاما ينتفض من الحمى يتقلّى فى النار بهذيان بشع : يرى الله جل جلاله ماثلا أمام عينيه يخاطبه يهرع إليه محاولا الإقتراب منه فلا يقوى فيتفتت فى بكاء يقطع نياط القلوب !! يستغفر يعتذر عن ذنوب اقترفها فى سالف الأزمان يطلب العفو والرحمة يكاد يمزق نفسه المأ وندماً رغم يقينه من قبول الرحمن الرحيم للتوبة !! لم يكفه أن فقد ساقيه فى حرب أجهزت على شبابه فتوته مستقبلة فداءً لوطنه كى يستمتع بثمرة بؤسه نفر من اللصوص والقوادين والسفاحين وتجار الأسلحة والسياسة من السفلة الأفاكين !!... »

« هو - تصور ! - يعتبر نفسه قد أجرم فى حق أهله فى حق الإنسانية الأخلاق الغلابة البؤساء لمجرد اشتراكه فى حرب قامت باسم التحرير وانتهت بالعبودية المطلقة لكل من يلوح لنا بالدولار ! فأنعدمت الإنسانية تدهورت الأخلاق ديس الشرف بالأحذية تحت كعوب المومسات الفاضلات !!... »

« الولد يالهدف قلبى قد انفرط تماما أصبح من المستحيل تجميعه من جديد فى واحد صحيح !! يخامرنى اليقين بأنه انتهى

فلن نقرر له قاضية بعد اليوم ...

« إنترمت عبد العال من فرشته ليسحقه بأي مسفف فإذا هو الآخر في حال أشد نكراً وإذا أنا في مهب ربيع عاصفة أريد أن أربط دمانى في أى وتد حتى لا يتفصص على طائراً في الهواء بدءاً فليس من وتد سوى القصيدة ضرورة التشبث بالعنق بامتلاك الإيقاع الصحيح كيما أتمكن - أنا المصدوع المزلزل - من إسعاف الإثنين !!!

« أخونا عبد العال أفتى بكل بساطة أن حالة عدلى لاشبيه لها في كل مآدرسه في الطب أو شاهده على البشر فلم أجرو على مناقشته نظراً لسوء حاله الواضح في خلط وهذيان وشروء وانعدام تركيز واهتزاز أطراف ولجاجة وثقل لسان !!!

« لأول مرة أحب عبد العال حبا عميقا لأن المبرر الوحيد لبقائه واقفا على قدميه كان إحساسه بالمسئولية والواجب تجاه عدلى ! لولا شدة إحساسه بهذا الواجب لوقع ميتا !!!

« حينما أيقن من عجزه تجاه حالة عدلى تهاوى جالسا فوق حافة السرير متشبثا بيديه بالفراش خوف الوقوع لكنه نطق بصوت صدى مكتوم : روحونى !! فحملته على ركوبة إلى قراشه بالوحدة الصحية تركته في عهدة رئيسة الممرضات المقيمة وقفلت عائداً إلى عدلى !!!

« ألقينا فوق جسد عدلى كل البطاطين والألحفة الموجودة في الدار فما لبث حتى استقر على السكون ربما من فرط التعب سرعان ما انتظمت أنفاسه فاستغرق في النوم فغادرته للحاق بك قبل سفرك وفي ظنى أننا يجب أن نلقى نظرة على عبد العال !!

« إذا كان عبد العال قد انخرج كل هذه الخرعة وهو لم ير المشهد كاملاً فكيف لا يتفتت عدلى وأنا بعد إذ رأينا تمام الحقيقة !!!

« من صلابة مخى ومخه كنا حتى آخر لحظة نميل للإعتقاد بأن في المشهد ثمة لبس ما ! لكن نهاية المشهد اطعت دابر الشك باليقين !!!

« إسمح لن أن أتية عليك الآن بميزة حرمت منها أنت وعبد العال فالتاس في الإمتياز الإنسانى درجات بقدر ما يعرفون لا بقدر ما يملكون والرؤية العيانية أسمى مراتب المعرفة !!!

« جميعاً رأينا بغلة العرش رؤية العين لحظة قدومها إلى أن دخلت من أوعر طريق لكنك وعبد العال لا تعرفان من هو المليونير الجديد الذى : - فجر اليوم !!!

« فيما مضى كان الناس يتوقعونه يرشحونه بحكم ماطرأ عليه من مظاهر الثراء ! أما أنا وعدلى فقد رأيناه !!!

« هذه أول مرة في التاريخ يتاح لشخص أن يرى شخص

الموعود بلحمه ودمه فى لحظة تلقيه الوعد واستقباله للعطية
الإلهية ! تلك اللحظة السجرية العبقرية التى ظلت طول عمرها
سراً من أسرار الكون لا يكشف عنها إلا للموعود نفسه فى
لحظة التحقق الفعلى السماوى فكأننى رأيت المشيئة الإلهية
مجسدة مشخصة تثبت فسولة الرأى الذى تفلسفنا به فيما
نحن جلوس على الطايبية أعنى ماقلته بشأن قوله تعالى : يعز
من يشاء ويذل من يشاء ...!!

« أظنك على معرفة وثيقة بالمواطن الطيب القلب المدعو عبد
الرءوف العصرة ذلك الرجل الذى إن بحثت عن تلخيص دقيق
لمعنى أن يكون المواطن مصريا صرفا لما وجدت أبدع ولا أكمل
مثلا من عبده الرءوف العصرة : الصبر وطول البال واحتمال
العسف والرضا بالمقسوم والتضحية والإيثار والسلوك المتحضر
حضارة باطنية رغم خشونة المظهر وبؤس الحال وعدم
التعليم ...!!

« تعرف لا شك أنه قبل ثورة يوليو كان تمليا يشتغل باكله
وكسوته فحسب فى معية أحمد أفندى خلاف يسرح بالبهائم
يكنس الدار يفعل أى شئ يطلب منه دونما أدنى اعتراض فإن
شعر بالتعب أو بالألم لا يشكو مطلقا لأن الشكوى لغير الله
مذلة إنما يحول شكواه إلى نكتة تسخر من الألم ومن الأوضاع

لكنها فى عمقها البعيد مؤلمة فى حق سيده ...!!

« لما قامت الثورة فوت سيده عليها فرصة تأميم ممتلكاته لأنه
كان له إبن من بين الضباط الأحرار أنبا أباه باتجاه حكومة
الثورة إلى التأميم فقام أبوه بتوزيع كل ممتلكاته على أبنائه
الكثيرين ...!!

« الوحيد الذى أضير كان عبد الرءوف العصرة إذ تخفف
سيده من كل الخدم ثم غادر البلاد نهائيا ليقيم فى بلاد الفرنجة
يتاجر فى الأسلحة والمخدرات خلف مشاريع وشركات متعددة
الجنسية ...!!

« لفت الأيام وعاد فى عصر الإنفتاح ليخدم بلاده - أى
يستنزف دمها المستباح - بمشاريع استثمارية معفاة من
الضرائب عبارة عن مصانع للبسكويت وتعبأة المياه الغازية
والشاي المضروب يشتري ثلاثة أرباع وقت الإرسال التليفزيونى
بمذيعيه ومذيعاته يلفق الجوائز الخيالية فى شقق سكنية
وسيارات وأجهزة وسفر للحج والعمرة بل يبلغ الواقع السياسى
حداً من العهر الأسطورى يسمح له بالعودة على رأس حزب
باشواتى النزغة ...!!

« أخونا عبد الرءوف العصرة داخ الدوخات السبع حتى عين
فراشا فى مدرسة البلد العتيقة فاعتراه الزهو على ضالة المرتب

فذهب بعين قوية فتزوج من بنت ناسن طيبين ملأت له الدار عيالا
وهما ووجع دماغ حتى بات على مشارف الجفون أمام جنون
ارتفاع أسعار الحياة !!!

« ضرب المثل فى القدرة على الإحتمال حتى بعد أن أبحل على
المعاش أصبح يشتغل فى أى شغل يخطر أو لا يخطر على البال
كى يوفر لأولاده لقمة وهدمة وكراصة فحسب !!!

« هامى ذى أبواب السماء تنفتح له على مصاريعها فقدا
يكمل عياله تعليمهم فى أوكسفورد يسكنون القصور يركبون
المرسيدس الشبح !!!

« الموعود إما أن يجيئه الوعد لحد عنده وإما أن يذهب هو إليه
دون أن يدري ربما بدافع خفى أو بهاتف قلبى !!!

« فى العادة يسلك عبد الرؤوف طريق ترعة السلمونية صباح
كل يوم إلى عزبة الحجر حيث يعمل هناك مبيضاً للبنائيات
الجديدة ليعود فى الغروب فيشتغل حتى منتصف الليل فى
شباك داره للطل على الشارع يبيع الشاى والسكر والخيط
والكمون والدخان ! وما بين الزبون والزبون يقوم بشد الكلمة
على قوائم خشبية مليئة بصفوف من الخيوط حيث قد اخترع
صنعة لم تكن معروفة من قبل فى بلدتنا فأنت وغيرك تجمع
القصاصات والخرق القديمة تعطيها له فيفتلها فى حبال يمررها

بين هذه الخيوط يصنع منها كليما متينا يحتمل الوسخ
والبهدة !!!

« لأجل نصيبه العبقري قرر اليوم أن يخرم من قلب نخل
المعلم عبده فما أن اقترب من وصلة الكنيسة حتى فوجئ بالبغلة
تمشى وحدها تتلكأ ! فتسمر واقفا أمامها مذهولاً فجفلت
فجعل يرتعش فصارت تقترب منه تمد بوزها تتمسح فيه

ففهم الرسالة فى الحال فما كان منه إلا أن سحبها من
مقودها ثم دخل بها غاية النخيل ! هذا مارأيته أنا قبل أن تلحق
بى حينما رأيتنى أستند دائخا على شجرة الجميز !!!

« ولحظة أن كان خارجا بها من وسط النخيل يهرول فى نزق
ولهوجة فى اتجاه داره كنت أنا وعدلى قد صرنا خلفه لا يفصلنا
عنه سوى خطوات قليلة فظللنا به حتى شاهدناه يفتح باب داره
يدفع البغلة ثم يدخل وراءها فيغلق الباب من خلفه فسمعنا تكة
المزلاج تصك الباب !!!

« أثناء عودتنا إلى دار عدلى شاهدنا عبد العال خارجا من
حارتكم يتلفت حواله كاللص الموتور يرسل نظراته الشاردة فى
كل اتجاه دون تركيز !!!

« خيل إلينا أنه قد لحنا فتوقفنا فى انتظار أن يقبل علينا لكنه
كان فى حال غير طبيعية فالعين التى اعتادت رؤية الدكتور عبد

العال فى كامل ثيابه الرسمية باستمرار على درجة كبيرة من
الأناقة إذا رآه هكذا بالبيجامة المتهذلة والشبشب الزنوبة يترنح
فى مشيته فلا بد أن تتصوره معتوها ضالاً !! الطريف أنه اخترق
غابة النخيل مهرولاً كالمثلثات كمن يطارد أشباحا يحاول القبض
عليها بيديه فكان منظره مضحكا حقاً مثيراً للرائاء فى نفس
الوقت !!..

« إلا أننا لم نضحك لأن جسد عدلى لحظتئذ كان قد بدأ
ينتفض بصورة مقلقة لدرجة أننى كنت أمسك الدراجة بكل
قوتى أتشبث بها حتى لا تنكفى !! وقد اضطررت لحمله على
صدرى مسافة كبيرة من أول الحارة حتى السرير !! ».

٢- الصَّو

صوت زوجة أخى يرن فى أذنى كالحلم ؛ يأتى من خلف باب
المنذرة الداخلى، ينادى علينا فى حرج من اضطر إلى التصريح
بفحوى الطلب :

- « مش حتاكلوا لكم لقمة يااستاذ !! »

تبع ذلك استئناف نقر خفيف على الباب مالبث حتى اشتد.
فتحت عينى بصعوبة شديدة . إخرق بصرى الواهن شبكة
العماص المتكلس ؛ إستقر على الباب الذى راح يهتز تحت الدق
بقبضة يد رقيقة . قلت بصوت يخرق بصعوبة شبكة ريق
متصلب خشن :

- « طيب يامعالى !! »

ثم تقلبت على جنبى الأيسر ؛ ففوجئت بجعفر يتمدد على
الكنبة المقابلة وقد تدرج رأسه عن التكاية القصيرة القامة،
فانحشرت بينها وبين المسند ؛ وشعره المهوش المجعد يبدو

كعمامة من الجريد المغبر الداكن يطل ضوء الفجر على شواشيه. فكأنها مدهونة بالجير. كان مستغرقا فى النوم ، مكسور الرقبة مفتوح الفم، يتصاعد شخير من حنكه وأنفه . ملامح وجهه الحادة الصارمة مشدودة على إطار من الجدية الهائلة؛ يشع منها شعور قوى بالتقرز والإشمئناط والإشمئزاز والمرارة ...

تنحنحت ثم دحرجت صوتى الكسيح فوق الأرض اللطيفة الزلقة بمياه فاضت من صينية القلل الراشحة ، الموضوعة لصق كنبتى ؛ يجاورها وابور غاز ، وعدة شاي، وجوزة ومنقذ نار. فى الركن حصير مبروم ومركون على الحائط ؛ وفى الركن المقابل طبليّة مرفوعة مركونة هى الأخرى على الحائط ، فى الركن الفاصل بين كنبّة جعفر وكنبة أخرى. فالكنب البلدى معتد تحت الحوائط الأربع وقد البست بياضاتها التنظيف المعطرة بمناسبة شهر رمضان الذى تكثر فيه الزيارات. رفعت صوتى صائحا :

- (جعفر ! جعفر !!)

رد كأنه متيقظ تماما مع أنه لم تند عنه حركة واحدة :

- (هيه !!)

- (اصح !)

- (طيب !!)

وبقى كما هو . دفعت البطانية ؛ حررت ساقى. نفضت جسدى قاعدا؛ فهابطا إلى الأرض. فرشت الحصير على البقعة الجافة. جئت بالطبليّة فوضعتها فى المنتصف. سحبت مسندين رميت بهما على الحصير بحذاء الطبليّة. إرتكزت بركبتى على حافة كنبّة جعفر، ثم فتحت درفتى الجزء العلوى من الشباك القائم خلف المسند؛ فاقتحم المندرة ضوء يرتقالى شاحب . إستدرت ذاهبا إلى كنبتى، فتحت درفتى الجزء العلوى من الشباك القائم خلفها؛ فارمد ضوء الشعاع البرتقالى . ساعة الحائط التى جاء بها أخى من السعودية خصيصا لهذه المندرة كانت تشير إلى العاشرة صباحا. تشككت فى صدقها؛ لكن ساعة يدى أكدته . معنى ذلك أننا نمنا من ظهيرة الأمس حتى صباح اليوم فانقطعت صلتنا بالحياة تماما ..

على أن ظلّالا باهتة من حلم غامض كانت تترك فى جدران مخى لزوجة غريبة تعلق بها الصور والمرثيات، فكأننى رغم انفتاح عيني على وسعهما ، والحيوية التى أخذت تدب فى أوصالى، لا أزال مستغرقا. فى نفس الحلم الغامض. أحاول التركيز على الصحو النهائى. ميلت على صينية القلل؛ غمست يدى فى الماء للتجمع فيها فلسعتنى بروتها ؛ فكبشت حفنة منها القيت بها على وجهى فأنعشتنى . كررتها عدة مرات.

وحيثما غزت أنفى رائحة الفطير المصنوع من نقيق الذرة مخلوطا باللبن مدهون الوجه بالقشدة الساخنة؛ شعرت بخجل عميق من كوننا - جعفر وأنا - مفطرين فى رمضان ؛ هكذا عيانا بيانا؛ ويمثل هذه الفضيحة الزاعقة يصنعها مهرجان الفطير الذى لابد أن يثير سخط الصائمين ؛ لولا أن الرجال غائبون الآن فى أعمالهم. وكنت واثقا أن أهل الدار جميعهم متمعضون من ذلك لكنهم لا يجروئن على إظهار مشاعرهم نظرا لأنهم يعتبرونى - وإن كنت منهم - ضيفا ينبى معاملته بكل أدب واحترام وتحفظ. أما معالى زوجة أخى فإنها - نظرا لأنى الأخ الأكبر لزوجها- تخاطبنى بقولها ياعم؛ وتعاملنى ببشاشة وود كبيرين حتى لتهتم بى أكثر من اهتمامها بزوجها ؛ فشدة احترامها لى نابعة من شدة حبها لزوجها. ولهذا كانت تدافع عن إفطارى فى رمضان بأسباب غاية فى الطرافة وخفة الظل؛ وتعديلى الطعام والشراب بعناية وأريحية بالغين؛ لكن ذلك لا يمنعها من أن تلكزنى برفق ومرح مع ابتسامة شديدة العذوبة فيما تقول :

- « نفسى أعرف مصر بتعمل فيكم إيه يخليكم تفطروا فى رمضان عيني عينك ؟ »

طرق الباب ، فتجته ، نزعت الشنكل الكبير فانفتحت

الدرفتان أمام الصينية النحاسية العريضة إرتصت فوقها ثلاث فطائر عريضة كالطرحة يفوح منها عطر جنونى؛ والقشدة الساخنة لا تزال تطشطش على وجوها فى رقع حمراء وبنية وبرتقالية، تتخللها أطباق صغيرة فيها قشدة صابحة وجبن قديم بالمش وعسل النحل والبيض المقلى ..

دخلت معالى مشمرة ذراعيها البضين، محبوكة القوام مجسدة التقاطيع كجندى رشيق قوى البنيان . وضعت الصينية فوق الطبلية دون أن تنظر إلى أى شئ آخر؛ ثم انصرفت تتبخرت مسرعة كالغزال الهارب ..

كان جعفر قد شعر بدخولها فانفض قاعداً كطفل عابث فاجأته أمه فى وضع زرى. أول كلمة نطق بها عندما هبط إلى الطبلية :

- « مايزين نشوف عدلى عمل إيه ! »

وشرع يقطع اللقيمات بأطراف أصابعه الطويلة فيغمسها فى الجبن القديم ويطوحها إلى فمه فى سأم :

- « كان المفروض نبات جنبه ! »

ثم رد على نفسه :

- « بس ماكناش حنعرف ننام ساعة واحدة ! على فكرة ! أنا

ماكنتش نائم ! أنا كنت مقتول ماكنتش عارف جسمى راح فى

١٩ عقلى طول الليل سارح بيدوز على جثتى !! ياترى عدلى عمل
إيه ؟!!

قلت وأنا أحس - لا أدري لم - بأنى أموه على نفسى :

- « ماأظن أن حالته خطيره لهذه الدرجة »

تعلقت يده باللقمة أمام فمه :

- « إحمد ربنا لأنك لم تره »

ثم شوح باللقمة وواصل وهو يمضغ :

٣ « قبل أن يفقد الوعى قال : كل مافات من حياتنا كذب فى

كذب ! وحادثة الليلة كانت جلسة النطق بالحكم فى قضية

حياتنـلـ ! القاضى الأعلى نطق به صريحا دامغا : أنتم جميعا

أيها المثقفون على الهامش لا وجود لكم فى الحياة ولا بقاءو

لستم تصلحون لأى شئ إن أنتم إلا خرق بالية لا تصلح إلا لمسح

الأحذية كما عشتم طول عمركم أمضيتم عمركم كله عبيدا

تبحثون عن سيد أجنبى يسوطكم وتروجون لأفكاره تعاليمه

غافلين عن حقيقة أنكم أبناء أعظم أفكار وتعاليم عرفتـها البشرية

على امتداد التاريخ أمضيتم عمركم تكدحون لتمتلى كروش

الصوص تعرون أجسادكم للجلاد تقدسونه تلتزمون بالقبيلات

حذاءه الثقيل الجاثم فوق صدروكم فلا طوبى لكم !!

طرق الباب فقلت : أدخل. فدخل سميع ابن أخى الأصغر منى

مباشرة، وهو طالب السنة الأولى بكلية أداب طنطا ويسافر كل
يوم. حياتنا برفع ذراعه فى الهواء نحو رأسه، وضع حقيبة
كراريسه على الكنبه وجلس بجوارها :

- « البلد مقلوبة بره !! »

- « خير ! إستبر يارب !! »

هكذا نطقنا فى نفس واحد أنا وجعفر . فقال سميع فى كثير
من الدهشة :

- « جئت أسألكم !! على كل حال ساجئ لكم بالخبر حالا !
سأعرف كل شئ »

صحت فيه وقد توقفت عن الأكل خجلا من كونه صائما أما
أنا وجعفر فمفطرين :

- « شفت إيه ياسميع ؟!! »

- « عربية إسعاف تقف قدام المستشفى ! الناس ملمومين !

من يقول أن الدكتور عبد العال انتحر ! من يقول جاءته غيبوبة

بسيطة ! من يقول جلطة فى المخ ذبحه صدرية ! صدمة عصبية !

الممرضة السستر تقول إنه كان يخرف تخريفا عظيما ويقول إنه

يشاهد عزرائيل وجها لوجه !! عربية الإسعاف مشت به ! فى

البلد لقيت سيارات البوكس فوردد الحكومية تجرى ناحية نقطة

البوليس ! وقابلت العمدة وهو يهرول مصفقا كفاً على كف يريد

أن يشق الهدوم يقول يادى المصيبة يادى الحراب ! وشيخ البلد
يجرى ! وشيخ الغفر ! ومن ورائه الغفر ! البلد فيها حاجة غير
طبيعية !! ساجى بالخبر !!

حمل حقيبتيه ومضى: لكنه ماكاد يختفى حتى ارتفع
الصوات؛ صارت أصداؤه تتردد فى كل مكان؛ نساء البلدة كلهن
يصوتن فى مندبة جماعية. إنتفضنا واقفين ؛ يكاد كل منا يتعثر
فى جلبابه. من شدة الشرعة واللهوجة لبس كل منا فردة من
شبهش الأخر إندفعنا خارجين إلى الخلاء.

٣- الفجيعه

يمتلئ الخلاء فجأة بمئات من البشر من رجال ونساء وبنات
وصبيان وأطفال. العجيب أنهم لا يمضون فى اتجاه واحد، بل
يبدو - لفرط كثرتهم واختلاف وجهاتهم - كأنهم يتحركون فى
مطارحهم دون أن يتقدموا هنا أو هاهنا - فبقينا واقفين على
ناصية الحارة لا ندرى فى أى اتجاه نسير، ولا ماهى الحكاية
بالضبط. كغريبين وجدا نفسيهما فجأة فى مولد كبير حافل
كمولد البدوى أو الدسوقى؛ إلا أن الطبول والشخايل والنايات
استبدلت كلها بصوات قادم من كل اتجاه، ولغط ، وثرثرة
غامضة؛ كل مجموعة تتكلم مع بعضها فيما هى ماضية؛ وثمة
من يكلم نفسه فيما هو يهرول؛ حتى الصامتون كانوا يتكلمون
بحركات من أيديهم ووجوههم وعيونهم الذاهلة ..

الشئ الوحيد الواضح هو الذهول المطلق فى كل العيون؛
كأننا فى يوم القيامة حيث لا ينشغل كل فرد إلا بنفسه وإن
كثر الزحام . على أننا شرعنا فى التحرك - تلقائيا - نحو دار

صديقنا عدلى. وكان الطريق إليها هو نفسه الطريق إلى نقطة البوليس فالمدرسة العتيقة فدوار العمدة فالمجلس القروى فمركز الشباب الذى كان عدلى يرأس مجلس إدارته إذ إنه هو الذى سعى لإنشائه وجمع التبرعات لإقامة بنيانه وتجهيز ملاعبه..

ثمة جرن كبير يفصل بين المدرسة ونقطة الشرطة. على هذا الجرن يطل مدخل حارة الزغالوة التى يقع فى نهايتها بيت عدلى. هى حارة متعرجة ضيقة تبدو لنظرة العابر فى الشارع العمومى أنها مجرد شق متسع. والمار فيها لا يفقد الشعور بأنه يخترق قلب دار كبيرة تم تقسيمها إلى دور صغيرة ملتحمة فى بعضها فى غير نسق؛ فساكن هذه الحارة هم جميعا من أبناء عائلة واحدة تفتتت أوصالها فاختلفت فيها الأسماء والألقاب كما تمزقت العلاقات. وكان عدلى يفسر لنا هذه الظاهرة بأن تفتت العائلة الكبيرة يرتبط فى مصر دائما بتقسيم الأرض الزراعية، الذى يستتبعه تقسيم للدار الكبيرة؛ فسرعان ماتتجزأ علاقة الرحم وينتشر الفقر بين الأجيال الجديدة. مع ذلك فإن ثورة يوليو العبيطة - يقول - لم تعتبر بدروس التاريخ ولا بالوضع القائم؛ فقامت هى الأخرى بتفتيت ملكية الأرض الزراعية بتوزيعها على أفراد؛ والأرض إن تجزأت ينهد حيلها يقل خيرها. على أن الأخطر من هذا كله - فى رأيه - أن الفلاح المصرى فى هذا العصر قد أصيب بأخطر مرض فى حياته؛ ف لأول مرة فى

التاريخ تهون الأرض على الفلاح المصرى فيفرط فيها بسهولة إما بالبيع أو بالتجريف كأنما قد انتهى عصر الفلاحة : مصر ياإخوانى مقبلة على انخراب الأعظم لأنها الآن تخلع شخصيتها الحقيقية لتلبس هذه الخرق المخاوعة عن جسد الغرب المريض تنقل إلينا جراثيم كل أمراض هذه الجراثيم أرغمت مصر على أن تكون بلدا صناعيا مرموقاً ؛ لا بأس ولكن لماذا لا تبقى فى نفس الوقت بلدا زراعيا خصيبا كما هى طول التاريخ ؟! الكارثة أن الصناعة التى فوضها علينا نظام السادات المتهرئ لا تدخل مطلقا فى باب الصناعة بقدر ماتدخل فى نطاق المشاريع الإستثمارية ؛ كل رأسمالى لص هرب دماء الشعب المصرى إلى الخارج فى زمن مضى جاء يستأنف السلب والنهب باسم الإستثمار؛ يشجع المصريين على الإستهلاك فى رفاهية لا أساس لها من الواقع؛ رحم الله فؤاد حداد أعظم شعراء عصره؛ لقد عبر عن هذه « الوكسة» التى نحن فيها الآن أجمل وأبدع تعبير :

نقلد الحجل رجل برجل نتزغزغ

وانطع المهل لا حسن عظمى يتدغدغ

ودى برضه بالمثل خايغه الحوصلة تتبغمغ

إزاي حنعمل اكابر قبل مانلغغ

بنقلد النغنغه من غير مانتغغغ

فالحين نبغغ !

ياليلى ياعينى ونغنى بالموال

صوت عدلى وهو يلقي قصيدة (كتاكيت الفن) يهدير الآن فى قلبى ؛ كان مروعا ، بديعا، يمتلىء بالتشخيص والتجسيد والتعبير رغم أنه لم يكن شاعرا. جعفر نفسه كان يشعر بالسعادة حين يتطوع عدلى بإلقاء شعره علينا ممسكا بذلك الكراسة العتيقة التى يكتب فيها جعفر مسوداته النظيفة المنسقة. ولأننا لم نكن نفهم شعر جعفر على النحو المرجو؛ قال جعفر كان يصفق بمنتهى السعادة معتبرا أن نجاح عدلى فى إلقاء شعره أكبر دليل على أن شعره فيه مايلمس وجدان كل قارئ مهما ضعف مستواه الثقافى أو اشتد ، فيه قوة تؤدى إلى التواصل والا ماانفعل عدلى هكذا وهو يلقيه ؛ ولو كانت لغة هذا الشعر حديثه لقلنا إن المفردات تحمل شحناتها الإنفعالية التلقائية ؛ أما والمفردات هنا عتيقة تكاد تكون مهجورة وغائبة عن القاموس المتداول ؛ فإن فى هذا الشعر سر كبير سوف تكتشفونه فيما بعد حينما يصفو وحدانكم من الشوائب المألوفة المعتادة. على هذا القول الحميم يعلق عدلى بقوله إن أجمل ما فى شعر جعفر أنه يذكرنا بهذه المفردات يربطنا بحياة البادية التى تفجرت فيها ثقافة غنية بهرت العالم كله . على أننا كنا نحب شعر جعفر حتى مع عجزنا عن فك جميع رموزه ..

صوت عدلى هو أوضح الأصوات فى كل هذا الضجيج المكتوم

الذى نجوس خلاله الآن . ويبدو أن شعورنا بعظم المصيبة التى تتوضح خيوطها الآن قد أصابنا بالزهد فى معرفة كنه ما يحدث؛ كأننا نؤجل الصدام بالمصيبة حتى تبترد أعصابنا بالقدر الكافى لاحتمال أى خبر فاجع. كان صوت عدلى يهدير فى صدرى بالأشعار فيما نشرف على مدخل الحارة الحميمة . كنت أمنى النفس بجلسة دافئة فى مندرة عدلى المطلة على هديم محاط بعدة دور صغيرة. المندرة فى ناظرى : سرير صنعه بنفسه على شكل سرير توت عنخ آمون؛ تحيط به مكتبة من الجهات الأربع فيما عدا فتحة يدخل منها إلى الفراش فكأنه دخل فى تابوت سحرى. كل واحد، فينا كان يتوق إلى الدخول فيه بمجرد دخولنا المندرة؛ ليطمد وسط عدة صفوف من الكتب كلها مجلدة فيما عدا الحديث منها؛ كتب محمد حسنين هيكل الحديثة الكبيرة بارزة، إلى جوارها كتب عن الفولكلور، وموسوعة مصر القديمة لسليم حسن، ومجموعة لسان العرب، وطبعة فاخرة من كتاب فى ظلال القرآن لسيد قطب، تاريخ الجبرتى، تاريخ ابن إياس طبعة هيئة الكتاب، أجزاء من كتاب الأغانى للأصفهانى ، أجزاء من الخطط التوفيقية وخطط المقرئى طبعة كتاب الشعب، أجزاء من الفتوحات المكيه لابن عربى، ديوان ابن الفارض مع ديوان المتنبى تحقيق البرقوقى مع رسالة الغفران واللزوميات للمعرى، كل روايات نجيب محفوظ، كتب يحيى حقى ويوسف

إدريس وتشيكوف وديستوفسكى ، دواوين أدونيس وعبد الصبور والبياتي وفؤاد حداد وصلاح جاهين ، مسرحيات شوقي عبد الرحمن الشرقاوى والشوقيات، عبقریات العقاد، رف كامل لطف حسين، ركن صغير للمازنى، كتاب الأب عيروط عن الفلاحين وكتاب الأب جوميه عن ثلاثية نجيب محفوظ ، مجلدات ألف ليله وليله وبعض السير الشعبية ، تمثال للكاتب المصرى الجالس القرفصاء مصنوع من البرونز، أبا جورة تشبه زهرة اللوتس مثبتة فى ركن بين رفين على شماله. تلك هى مكتبة عدلى وكم هى حميمة؛ وهى كل عالم ومكان صحوه ونومه. بجوارها منصة مائلة السطح تعلوها أبا جورة ذات قضبان متداخلة؛ من تلك المناصد التى تتواجد فى مكاتب المهندسين. امامها مقعد دائرى مرتفع. هناك عدة كنبات منجيات بمساند منفصلة؛ ويضع مقاعد من الخيزران. فى الأرض سجادة عتيقة. هناك أيضا ثلاثة سبعة قدم نظيفة قائمة فوق طبليّة عالية من الخشب؛ ودولاب للملابس مشابه فى الطراز للسريّر قام بصنعة كذلك إذ إن النجارة كانت هوايته يشتري لها العدد الحديثة والمناشير الدقيقة التى تدار بالكهرباء. الغرفة منسقة كمعارض المحلات الكبيرة؛ حتى دراجته تأخذ مكانها فى ركن بعيد بعد أن يتم تنظيفها على الباب . لهذا فعلى لا يشعر بالفراغ أبداً؛ سيما وأن غرفته هذه الجذابة تستقبل

طول النهار والليل زواراً من كل لون؛ من ضابط النقطة إلى موظفى المجلس القروى والمدرسين الغرباء، وأعداد كبير من الطلاب وعشاق القراءة والفتيات المفتونات ببريق الثقافة . ولو قيل إن فتاة منهن دخلت حجره رجل ولو على سبيل الخطأ فمصيورها الشئ لا محالة . أما إن قيل إنها مكثت طول الليل فى غرفة عدلى فإن ذلك يضىء عليها قيمة وأهمية. وربما كان هو الوحيد فى بلدتنا يتطوع لخدمته أسراب من الحوريات وهن يشعرن بفخر كبير. منهن من تقرأ له على كرسى مجاور لرأسه ؛ منهن من ترتب له نظام الأشياء ؛ ومن تتخصص فى صنع القهوة التركية التى يفضلها ؛ ومن تغسل له ثيابه الداخلية ؛ ومن تشرف على كل ما يختص بملبسه. أما مشاويره الخاصة التى تقتضى الذهاب إلى الهندر فهناك عشرات ممن يسافرون كل يوم على استعداد للقيام بها نيابة عنه، يشترون له الجرائد والمجلات الثقافية والكتب.

المرجح أن التقى فى غرفة عدلى هذه كثيرين من زملاء الدراسة ممن سافروا وعادوا فى زيارات خاطفه. وعلى الرغم من أننى أعيش فى العاصمة التى هى مصنع الأخبار والأنباء الطازجة فإننى فى غرفة عدلى هذه أشعر بأننى كنت أعيش فى مقبرة ؛ إذ يدهشنى أن أسمع فيها أحدث الأخبار وآخر الأنباء وآخر النكت؛ والتفاصيل الحقيقية لما دار فى المعارك الأدبية والسياسية ؛ بل إن

فى تلك اللحظة انتبهنا على وجود أفندى غريب سرعان
ما فهمنا أنه الطبيب الشرعى جاء يكشف عن سبب الموت.
كانت آثار البكاء واضحة على وجهه بصورة مؤلمة لأنه كان من
رملاء المرحوم فى جبهة القتال فى العام الثالث والسبعين بيد
مرتعشة وقع شهادة التصريح بالدفن . ثم اتجه إلى الكعبة التى
يجلس عليها جعفر : فتهادى عليها ثم انخرط فى البكاء
بصوت عالى.

٢ - الجنائز

السرادق كان حافلا يسفى بالبشر أنوار عشرات اللمبات
الكهربية تؤجل مقدم الليل الذى بدأ كأنه يتلصق ويتعثر فى
شوارع البلدة بين اكوام السباخ وجذوع الأشجار المقطوعة صوت
الشيخ محمد القزاز يلطم بأقصى ما عنده من فنون الطرب؛
ليثبت لأهل البلدة أنه أميز بكثير جداً من هذا المقرئ الشهير
الذى استوردوه من بلدة أخرى لقراءة ربعين أو ثلاثة نظير مبلغ
جسيم قد لا يتناهى القزاز طول عمره.

على باب السرادق، ولمسافة كبيرة، وقف رهط من الشبان
فى استقبال المعزين. والعناية بركائب الأغراب. وكان مبنى نقطة
الشرطة فى المواجهة تماماً. كانت هى الأخرى فى حال غير
طبيعية : يقف على بابها رهط كبير من المخبرين والخبراء
والعسكر السوارى راكبي الأحصنة؛ والأفندية؛ وعربات البوكس
فور الزرقاء الكئيبة المنظر؛ وأرهاط متناثرة من الفلاحين
والطلاب والأطفال.

فجأة، بدأت الحركة تدب فى انتفاضات مبهمة : يتحرك الواقفون بغير سبب ظاهر ؛ السوارى يشدون الألجمة. راحت الأحصنة تتبختر موسعة رقعة الفراغ امام مبنى النقطة. أعداد المتزاحمين مع ذلك تتزايد فى صخب جعل الخفراء والمخبرين يعملون العصى؛ يضرىون فى قسوة وتوتر. ترتفع صرخات التآلم يعقبها جعير يهدد بقطع الرقاب. ثم أخذ الصياح واللفظ يرتفع أوارهما شيئاً فشيئاً بصورة طاغية حمقاء هوجاء مثيرة للغيظ والغضب لعدم وضوح أى شئ . صارت عواميد السرايق تهتز من زلزلة أصابت الأرض كأن تنيناً خرافياً يدب فوقها بخطو ثقيل متشعب الأقدام.

بدأ التملل يدب بين الجالسين فى السرايق. راحوا يغمغمون فى احتجاج غاضب. لم يعد فى الأفق سوى صوت اللغط المبهم الغامض الرهيب؛ وصوت الشيخ القزاز يزعق فى الميكرفون بأقصى ما فى صدره من قوة فلا يسمعه أحد. إضطر إلى إنهاء القراءة : صدق الله العظيم .

ماكاد المعزون يسمعونها حتى انتفضوا جميعاً واقفين يتلفتون حولهم يلغطون بدورهم يتساءلون : فيه إيه ؟ فيه إيه ؟ تسلسل الجميع خارجين إلى الخلاء الذى لم يعد خلاءً بل ملاءً بأعداد وأنواع لا حصر لها من البشر. إحدى عربات البوكس فورد كانت مقبلة فى اتجاه نقطة الشرطة بخطو بطى؛

خلفها مباشرة ثلاث من عساكر السوارى فوق الأحصنة مرفوعى الرؤوس فى نفخة تركية متفطرسة. خلفهم قافلة من عسكر الهجانة سود الوجوه يركبون الجمال. خلفهم بغلة العرش التى قدر لنا شرف رؤيتها فجر أول أمس؛ فوقها يتدلى الخرج وفوقه رأس القتيل مشكوك فى طرف عصا قصيرة خلف البغلة - مربوط فى ذيلها بحبل متين - عبد الرؤوف العصرة فى صورة منكبة؛ ممزق الثياب منتفخ الوجه مما لحقه من ضرب وبهذلة ؛ مخفورا بعدد من العسكر والخفراء لا يكفون عن ضرب الناس الذين تجمعوا خلف الموكب فى صورة مذهلة ، كأن بلدتنا قد طرحت ملايين البشر. ورغم قسوة الضرب بالعصى والكرابيج والهرارات فإن الزحام لا يتفكك ولا يتراجع بل يزداد كثافة كلما فات على بقعة من الأرض. حتى إذا ما وصلوا إلى نقطة الشرطة كادوا يدمرون سرايق العزاء لولا أن تصدى لهم رجال أشداء. كادت تحدث مذبحة ، فالعسكر يضرىون الجميع بما فىهم المعزين، وأهل الميت يضرىون فى العسكر. ذاب الجميع فى الجميع. تمخضت قريحة المأمور عن فكرة عبقرية فى الشر والقسوة ؛ سرعان ما نفذها العسكر السوارى، إذ حركوا المهاميز فانطلقت الجياد تجرى بأقصى سرعتها موسعة المكان؛ فليقع من يقع ؛ تدوس فوقهم الجياد؛ فيسحب الآخرون جثثهم بسرعة قبل عودة الخيول فى ردتها..

إسعت الدائرة حداً . نزل المحققون من السيارة . جئ لهم بمقاعد خيّرانية وضعت أمام باب النقطة . سيق إليهم عبد الرؤوف العصرة ببغلته . بدأ التحقيق على الملأ؛ فإذا بتفاصيل الكارثة تتضح شيئاً فشيئاً فتعقد الألسنة تجمد الشعور على الوجوه :

البغلة فى حقيقة أمرها هى بغلة الحاج على داود : ورأس القتل هى رأسه شخصياً . وكان الحاج على داود قد نفذ واحدة من مغامراته الجريئة فى المضاربة بأموال المودعين؛ إذ علم أن أسعار الذهب فى صعود؛ فاشترى بكل مدخراته ذهباً حوله إلى سبائك انتوى تخزينها إلى حين فى داره بالبلد . ودرءاً للشبهات رأى أن ينقل هذه السبائك فى خراج فوق بغلته ؛ حتى إذا رآه أبناء الليل ظنوه بائعاً سريحا على قد حاله فلا يطمعون فيه؛ سيما وأنه قد دفن السبائك فى لفائف بين أنواع من بضائع كالعطارة والخرفوات ؛ لكنه لشدة غبائه وضيق أفعه نسى أن اللصوص يترصدونه فى كل مكان؛ ونسى أن هذه الليلة بالذات لم تكن مناسبة لمثل هذا الشوار الخطير؛ فدون أن يدرى شارك ليلة القدر - وشاركته ليلة القدر - فى رسم خطوط مصيره ومصير مودعيه المشنوم !!!

نظرت حوائى باحثاً عن جعفر؛ فإذا هو بجوارى قد تحول إلى كتلة بلهاء فاعرة الفم . وكان عبد الرؤوف العصرة ينتحب مردداً

أنه وجد البغلة هكذا، وأنه متأكد أن أحداً من بين هذا الجمهور الكبير لابد قد شاهده لحظة أن قابلها فى الطريق فاقتادوها . وكان اثناء كلامه المنتحب قد راح يتمعن فى الوجوه الملتفة حوله؛ وإذا هو - كالغريق يتشبث بعود من القش - قد انتفض بشئ كالفرح فيما يشير بذراعه تجاهها . أخيراً صاح بأعلى صوته كأن طاقة من السماء قد انفتحت أمامه :

- أه ياسعادة البتية !!

فتقدم واحد من الأفندية فى اتجاهنا . وضع يده على كتف أحد الشبان : هذا ؟ لا ... هذا ؟ لا ... إذن فهذا ؟ لا !!

فأمسك بكتفى فى غيظ : هذا ؟ لا !! فوضع يده على كتف جعفر : فصاح عبد الرؤوف بأعلى صوت :

- نعم هذا ! هو ! هو !!

فإذا بيد الأفندى تدفع جعفر فى قسوة وغلظة حتى كاد ينكفى على وجهه . وصوت الأفندى الجالس على المقعد فى الوسط يصيح فيه :

- تعال يا ولد !!

أمسكه الأفندى من خنأقه ؛ سحب ماضياً به نحو باب النقطة؛ ليتقدم عسكري غليظ لدى هزة رأس من الأفندى الجالس فى الوسط؛ فيتناول ذراعى جعفر ؛ يدس الكلبشات الحديدية فى يديه؛ ثم يدفعه بغلظة ليوقفه خلف البغلة مباشرة بجوار عبد

الرءوف . ثم بدا كأن صورة المشهد قد تجمدت عند هذا الحد؛
وطال تجميدها حتى بدأ كأن الزمن قد توقف نهائيا عن الحركة
فلم يعد فى الأفق ثمة نسمة ؛ وليس فى الصدور ثمة نفس من
الأنفاس ..

تمت